الإرهـاب .. المـوسـاد .. البـزنـس

لاجئ فى لندن

حمدى الحسينى



لاجئ فى لندن
الناشر: دار الخيال
الغلاف: محمد الصباغ
الطبعة الأولى



الإرهاب .. الموساد .. البزنس

لاجئ فى لندن

الإرهاب.. الموساد.. البزنس
لاجئ فى لندن
الطبعة: الأولى فبراير ٢٠٠٢
رقم الإيداع: ١٨٥٦٨ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى: 5 - 28 - 5979 - 977
دار الخيّال : ٠١٢٣٢٩٠٦١٨ / ٠١٢٤١٢٦٠١٤

دار الخيّال



تصميم الغلاف: محمد الصباغ
لوحة الغلاف: الفنان عصام طه
جرافيك: محمد كامل مطاوع
خطوط الغلاف: لمعى فهيم
المشرف على الإنتاج: عماد حمدى
طبع الغلاف: القطان للمطبوعات الفنية المهندسين
ت/ ٣٤٧٩١٦٣
كمبيوتر: دار جهاد ـ ت : ٧٩٦٤٧٨٣

الإرهاب .. الموساد .. البزنس

لاجىء فى لندن

حمدى الحسينى

مطبوعات دار الخيّال

لندن عاصمة الإسلام

لندن مدينة الضباب والمتناقضات ، يفضلها المشاهير والمجانين ، والأثرياء والفقراء ، فى ربوعها ينشط عملاء أعتى أجهزة المخابرات وعلى أرضها زرعت الولايات المتحدة أضخم شبكة للتجسس والتنصت على اتصالات الرؤساء وكبار المسئولين فى دول العالم المختلفة.

وبالرغم من أن حادث الثلاثاء المروع فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ جرت وقائعه فى مدينتى نيويورك وواشنطن إلا أن الجاليات المسلمة فى بريطانيا دفعت ثمناً باهظاً لهذا الحادث الغامض ، بعد أن تسرع الإعلام والإدارة الأمريكية فى إلصاق التهمة بعناصر إسلامية وعربية مما أدى إلى تصاعد موجة الغضب فى الغرب ضد كل ما هو عربى وإسلامى وقام المتطرفون بإحراق بعض المساجد والاعتداء على المدارس والمنشآت التابعة للمسلمين فى عدد من المدن البريطانية، وتعمقت روح العنصرية عند الإنجليز تجاه المنتمين إلى العقيدة الإسلامية عندما تم استغلال ذلك الحادث ذريعة لإضافة مزيد من التشويه للإسلام والمسلمين خاصة بعد أن تحولت العاصمة البريطانية لندن

إلى قبلة للاجئين الإسلاميين فى السنوات الأخيرة وصارت مركزاً لجذب آلاف المسلمين من كل مكان حتى أصبح الحجاب زياً مألوفاً لدى البريطانيين ووجود المساجد ظاهرة طبيعية ، كما بدأ الإسلام ينتشر بسرعة مذهلة فى أوساط البريطانيين واعتنقه عشرات المشاهير فى السنوات الأخيرة . ومضى المتفائلون فى أحلامهم إلى حد توجيه الدعوة للشيخ الشعراوى قبل رحيله للمشاركة فى احتفال عالمى لإعلان الخلافة الإسلامية فى العاصمة البريطانية ، كما تمادت بعض الجماعات فى تفاؤلها إلى حد دعوة ملكة بريطانيا لاعتناق الإسلام.. وترددت أنباء عن أن الأميرة الراحلة ديانا والدة ولى العهد البريطانى دفعت حياتها ثمنا لرغبتها فى الزواج من المسلم عماد الفايد.

الواقع أن بريطانيا مملكة العجائب وبلد الغرائب ، وهذه خلاصة تجربة صحفية رصدت خلالها مشاهدات وملاحظات ربطت فيها بين الماضى والحاضر. وبين الجغرافيا والتاريخ بحثا عن الخلاف بين الشمال والجنوب والشرق والغرب.

ولعل ما يدعو للطرافة أن نرصد أولا أن بريطانيا تشبه مصر ولندن تشبه القاهرة وسكان البلدين متقاربان والشعبين تجمعهما صفات مشتركة ، ومع ذلك فالفوارق كبيرة والاختلافات كثيرة ، تبدأ بالحرية وتنتهى بالعدالة وسيادة القانون ، وقد ظلت بريطانيا تحافظ على أن تكون الملاذ الآمن لأصحاب الرأى والمكان الهادئ الذى يفضله المفكرون والمبدعون ، فاختارها الثوريون أمثال جان جاك روسو والمبدعون أمثال الشاعر نزار قبانى عندما ضاقت به سبل الحياة ، ففجرت لندن بركان شعره الجرىء حتى آخر لحظات حياته. كما أنها تظل البلد المفضل لرموز الإرهاب وعصابات المافيا.

وما زالت بريطانيا هى الدولة الجاذبة لأصحاب التطلعات والمغامرين من الشرق الأوسط ، فقد حرصت معظم الأسر الملكية الحاكمة فى الدول العربية على إرسال أبنائها لتلقى تعليمهم بها ، وظل العاهل الأردنى الراحل حسين بن طلال يتخذها محطة رئيسية فى كل زياراته الخارجية منذ أنهى دراسته بأحد معاهدها العسكرية فى بداية حياته ، بعدها احتفظ بقصر صغير فى إحدى ضواحى لندن وأعجب بنسائها

فتزوج من «منى» الإنجليزية وأنجب منها الملك عبدالله الثانى كما تربى أمير قطر الحالى فى المدارس البريطانية بالإضافة إلى أن معظم أمراء الخليج الشباب فضل آباؤهم إلحاقهم بالمدارس والمعاهد الإنجليزية لما تتمتع به من تقاليد عريقة وسمعة متميزة. وانتقلت هذه العدوى إلى أبناء الرؤساء العرب الذين تعلم معظمهم فى المدارس والجامعات البريطانية وقضوا جزءاً من حياتهم فى مقاهى لندن.

أما رجال الأعمال فيرون فيها منجماً للاتصالات ومركزاً لعقد الصفقات ، وكون المليونير المصرى محمد الفايد ثروته الضخمة بها ،كما كانت لندن المكان المفضل للدبلوماسى أشرف مروان زوج ابنة الزعيم الراحل جمال عبدالناصر الذى استثمر علاقاته السياسية وترجمها إلى «بزنس» وأعمال تجارية جعلت منه واحدا من كبار المليونيرات فى مصر.

وهناك أيضا اختار منصور حسن أقرب الوزراء إلى قلب الرئيس السادات أن يعيش فى إحدى ضواحى العاصمة البريطانية ليتابع أعماله بعيداً عن التحولات السياسية التى شهدتها مصر فى أعقاب اغتيال السادات ، وعلى الجانب الآخر تعد لندن مقراً دائماً لعشرات الصحفيين المصريين والعرب الذين وجدوا ضالتهم فى صحافة عربية مهاجرة غير محايدة تخضع لسياسة الأقوى والأكثر قدرة على الدفع ، مع أنها تعد من أهم المنابر الصحفية بالعالم العربى فى ظل ضيق صدر بعض الحكام العرب بالديمقراطية وحرية التعبير.

ولعله من قبيل المصادفة أن يختار الليثى ناصف قائد الحرس الجمهورى فى عهد السادات لندن لتكون مكاناً مفضلاً يقضى فيه بقية حياته بعد الصدام مع الرئيس السادات وظهور صراع خفى بينهما انتهى بوفاة الليثى فى شقته بلندن فى ظروف غامضة. وتكررت المصادفة عندما انتحرت السندريللا سعاد حسنى من نفس العقار الذى انتهت فيه حياة الفريق الليثى ناصف. كما أن شمس بدران أحد الضباط المصريين الأحرار اتخذها مقراً دائماً لحياته بعد الهروب من مصر عام ١٩٧٥ ومازال يعيش فى إحدى البنايات الفخمة بلندن على الرغم من صدور حكم قضائى

من محكمة الثـورة ضده بالأشغال الشاقة لأسباب تمس الأمن القومـى ، كما يعتبره الإخوان المسلمـون صاحب مدرسة فى التعذيـب وتقدموا ببلاغات ضده إلـى النيابة العامة وصدرت بحقه أحكام تقضى بسجنه ٧٠ عاماً.

لقد ظـلت بريطانـيا إمبراطوريـة لا تغيب عنـها الشمس حـتى سطعت الـشمس الأمريكية فى مـنتصف القرن العشرين ، بـعدها اكتفت بأن تلعب دور الـرجل التابع لكـل ما هو أمريـكى منذ أن حـدث الزواج السرى بـين الطـرفين وتسـلمت بعـدها واشنطن مفاتـيح المستعمرات البريطانيـة حول العالم . وقد كانت بريطانـيا فى العهد الإمبراطـورى دولة قاسيـة لا قلب لهـا ولا مشاعر واستخدمت كـل أساليب الـقهر والعنف والاستعباد ضد شعوب مستعمراتها من الهند شرقاً إلى أمريكا اللاتينية غربا مروراً بمـصر والمنطـقة العربـية وقد شـيدت مجدهـا وعظمـتها علـى حساب مصـير ومستقبل الـشعوب المحتلة ففى الوقت الـذى دأبت على ترسيخ قواعد الديـمقراطية فى شعبها كانت تمارس الإرهاب والاغتصاب والبطش ضد الآخرين.

وقد عانت شعوبنا العربية من هذه الإمبراطورية الظالمة مرتين : الأولى فى الماضى عندما احتلوا بلادنا وعـاثوا فيها فسادا ، ونهبوا خيراتنا وأجهضوا حـلمنا نحو التقدم والازدهار. والمرة الثانـية فى الحاضر عندما قرروا الـتآمر على الأمة العربـية والانتقام من تاريـخها المضـىء ففتتـوها إلى دويلات وقـبائل تـتـصارع على الـسلطة والـثروة وساعـدوا أنظمة لا تـقل قسـوة وظلماً عـن الاستعـمار ، وقبـل أن تغادر بلا رجـعة تآمرت عـلى شعوب المنـطقة مرة أخرى بـأن غرست فى خـاصرة الأمة العربـية دولة إسرائيل ، تلك الدولة الشيطانية المصطنعة حـتى تضمن استمرار تخلفنا وضعفنا إلى ما لانهاية. وفرضت علينا مواجهة غير متكافئة مع عدو يلقى كل الدعم والمساندة من القوى العظمى فى العـالم حتى أصبحت هذه المنطقة الحيوية من الـعالم ضعيفة هشة عاجزة عن اسـتعادة مجدها الـغابر ، وتحول الوطن الـعربى إلى جسد مـريض هزيل يعانـى العلل والآلام وظل الـعرب فى انتظار صـحوة قومية تـخلصهم مـن كابوس يطاردهم طوال العقود الأخيرة.

ورغم كل هـذا الماضى المؤلم والتـاريخ الأسود الذى تحمـله ذاكرة شعوبنـا للأمة البريطانيـة المتناقضة فإنها اليوم أصبـحت نموذجا يحتذى به فى الديمـقراطية والحرية والعدالة . أما فـيما يتعلق بالقـضايا التى تخصنا فـمازالت عقلية الماضى تـطفو على سطح الحياة البـريطانية الحديثة التى تـظهر فى صورة تصرفات عنصـرية وسلوكيات شاذة تجاه كل مـا يتعلق بالـعروبة والإسلام لاسيمـا قتل الأبرياء فى كـل من العراق وفلسطين وأفغانستان .

هذا الـكتاب مجـرد ملاحظات غـصت خلالهـا فى تفـاصيل صغـيرة من نسـيج المجتمع الـبريطانى بهدف الـوصول إلى حقيقة مشـاعرهم المزيفة ورؤيتـهم المزدوجة لكل قضايانا.

حمدى الحسينى

مفاجآت السفر!

في السفـر تتغير الأفكـار ، وتتنوع المعارف ، وتتـوالى الخبرات ؛ تصبـح المشاهد البسـيطة ذكريات عـميقة ، وتتـحول المواقف الـعابرة إلى محـطات ساخنة فـي حياة الإنسان.

وفي السفـر تتشابك العلاقات ، وتتضاعف المعلومات، وتنمو المشاعر في صحراء الغربة ؛ إنه الجامعة التي يتخرج فيها الـعباقرة والفلاسفة والمفكرون ، إنه الظل الذي يلطف من حرارة الحياة.. والزهر الذي يعطر جسد الأيام .

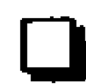
كانـت كـل هذه الأفـكار تـتزاحم فـي رأسي وأنـا أقف أمـام موظـف السـفارة البريطـانية بحي جـاردن سيتي في الصـباح الباكر، وقد أزعـجتني ملامحـه الصارمة ومشاعره الباردة ، سـألني في تجهم عن سبب زيـارتي ولم ينتظر الـرد ثم سـألني عن راتبــي الشهري ووظـيفتي ، وعـندما علـم بأني مازلـت بعيداً عـن الحياة الزوجـية ، أجابـني بالرفـض طبقاً لـلقواعد الـتي تضعـها السـفارة لتنـظيم سفـر المصريـين إلى بريطانيا(!!) .

إنها قواعد جامدة تضع عقبات شبه مستحيلة أمام البسطاء الراغبين فى التوجه لزيارة بريطانيا ، فى الوقت الذى يمنحون تأشيرة الدخول مصحوبة بابتسامة جافة إلى كل من يحمل جواز سفر مسجلا به فى خانة الوظيفة لقب رجل أعمال .

وخرجت من باب السفارة محبطاً أجر أذيال الخيبة والحزن ، وأحدث نفسى عن الأحلام التى رسمتها والخيالات التى تصورتها عن الإمبراطورية التى كانت لا تغيب عنها الشمس.

كنت أشعر أن آمالى فى السفر ستتحقق ، رغم وجه الموظف البريطانى المتجهم ، لذا قررت الإصرار والعودة فى اليوم التالى ، لأن تذاكر السفر كانت ستنتهى صلاحيتها بعد ٢٤ ساعة ، وصلت إلى الباب الضيق للسفارة فى الصباح أيضاً وبمجرد دخولى إلى صالة انتظار واسعة ومنظمة لاحظت عدم وجود الموظف «إياه» ، إذ تم استبداله بموظفة بريطانية ذات ملامح بسيطة ، وبادلتها تحية الصباح بالإنجليزية ثم أخذت أتحدث معها باللغة العربية فى محاولة لتصحيح الخطأ الذى ارتكبته مع زميلها فى اليوم السابق، وطلبت منى الانتظار حتى جاءت موظفة مصرية مهمتها الترجمة الحرفية لكل كلمة ألفظها.

أخذت تستجوبنى كأننى متهم بمحاولة الرغبة فى السفر إلى بلادها ، ولكنها كانت بالفعل ألطف بكثير من ذلك الموظف المتجهم ، وقررت منحى تأشيرة مدتها ستة أشهر، فابتسمت لأننى طلبت ثلاثة أسابيع فقط وأشارت إلى الشباك المجاور لتحصيل رسوم التأشيرة ، شعرت بأننى لم يعد بينى وبين بلادها سوى فركة كعب بالطائرة. وبالفعل كنت محظوظا فقد أبلغنى كل معارفى أن البريطانيين أكثر حرصاً وترشيداً فى منح المصريين تأشيرات دخول لبلادهم خاصة الشباب غير المتزوجين بسبب تجاربهم المريرة مع آلاف غيرى.



وبعد أن زينت جواز سفرى بتأشيرة الدخول التى طال انتظارها وكان موعد الطائرة المتجهة إلى لندن فى الصباح التالى مباشرة حيث قضيت النهار كله فى

الاتصال بكل أصدقائي وأقاربي لإبلاغهم النبأ السعيد وزيارتي الميمونة ، وإذا ما كانوا يرغبون في شراء أية متطلبات من محلات لندن الشهيرة ، وفي المساء كاد كل شيء يتحطم على صخرة النسيان ، فقد انتهيت من إعداد حقائبي ورتبت كافة أموري الأسرية والوظيفية ولم يبق سوى أوراقي وجواز سفري الذي اختفى فجأة في غمرة ارتباكي وتعذر عليَّ الوصول إلى مكانه ، وفي تلك الليلة المزعجة بدأت رحلة البحث عن جواز السفر من التاسعة ليلاً حتى الثانية صباحاً ، وقلبت شقتي رأسا على عقب ثم اتصلت ببعض أصدقائي الذين جاءوا لمساعدتي في البحث عن جواز السفر، وأخيراً اقترح بعضهم إلغاء هذه الزيارة لأنها تتعطل بطريقة غير مفهومة وربما أنني غير مقدر لي القيام بها ، وبعد أن فكرت في الاتصال بشركة الطيران لاستطلاع الأمر وأنا في طريقي إلى التليفون تذكرت مكانه. وبالفعل وجدته بعد أن وصل بي القلق والضيق أقصى درجاته ، وفجأة انهال عليّ أصدقائي بالضرب والسخرية وسط ضحكات هستيرية من التصرفات غير المفهومة.

لم يبق على موعد الطائرة سوى ساعات قليلة قررنا أن نقضيها معاً ثم توجهنا إلى مطار القاهرة في الصباح ، وفي طريقي مررت بكشك بيع الصحف وتناولت نسخة من كل الجرائد والمجلات المتوافرة ثم جلست أتابع الأخبار والأحداث اليومية التي أصابتني بالملل من تكرارها وروتينيتها المزعجة ، وعندما أعلنت الإذاعة الداخلية في المطار عن توجه الركاب إلى صالة السفر ، ظهرت المفاجأة الثانية والتي كاد أن يترتب عليها إلغاء السفر مرة أخرى حيث تبين أنني لم أحصل على تصريح بالسفر إلى خارج البلاد وأن تصريحي أوشك تاريخ سريانه على الانتهاء ، لولا تدخل بعض المسئولين في المطار وتعهدوا بمنحي موافقة السفر على مسئوليتهم الشخصية .. بعدها تنفست الصعداء ، وتوجهت إلى طائرة الإيرباص الحديثة التي كانت في انتظار المسافرين إلى عاصمة الضباب لتبدأ المفاجآت الحقيقية للرحلة.

شمس مصر وثلج لندن

بعيداً عن الوطن يتضح الفرق بين النور والظلام والمعرفة والجهل والغنى والفقر والصحة والمرض والجنة والنار.. إن السفر فرصة لتجديد الأحلام وإيقاظ الأفكار وإذابة الهموم فى بحور المسافات ، فهو القارب الذى ينقلنا من الجمود إلى الانطلاق ، وهو الحالة التى تتجسد فيها عيوبنا ونرى أنفسنا عرايا كما ولدتنا أمهاتنا حيث نعرف من خلالها حجمنا الطبيعى وندرك حقيقة قوتنا بعد أن تصبح صورتنا بدون ماكياج ولا رتوش، إنه رهبة للمبدعين وقدسية للمفكرين يضخ فيهم روح الحياة.. بعدها نحاول إعادة اكتشاف أنفسنا من جديد.

كانت الطائرة تقترب من الأجواء البريطانية ومعظم ركابها من الأجانب أو هواة السفر من مختلف أنحاء العالم ، معظمهم إما نائم أو مشغول بما ينتظره من أعمال ، أما أنا فقد سيطر على تفكيرى شبح قريتى القابعة فى أحضان النيل ، أهلها بسطاء لايتطلعون لأى شىء سوى الستر.. وكانت صور الحياة فى لندن التى أترقبها بلهفة تتداخل مع صورة المزارع البسيط وهو يسحب الماشية مبكراً متجهاً إلى الحقل... لا أعرف لماذا تداخلت الصور بهذه الطريقة المضحكة ، ربما لأنها المرة الأولى التى أتجه فيها إلى شمال الكرة الأرضية أو ربما لأن المسافة بين قريتى الصغيرة وبريطانيا العظمى أكبر من المسافة التى تفصل بيننا وبين أجدادنا الفراعنة . . كنت أحاول التغلب على تداعى هذه الصور بالاستماع إلى الإذاعة الداخلية فى الطائرة حيث كان عبدالحليم حافظ يغنى ... « ابتدى المشوار » .. وكأنه يفكر معى حتى جعل بسمة خفيفة ترتسم على وجهى !!

بعد دقائق لاحظت على شاشة الطائرة الداخلية إشارة بأن مطار «هيثرو » الدولى أوشك على الاقتراب فقفزت مسرعاً إلى الشباك المجاور وأخذت أحملق فى المنظر البديع الذى تظهر عليه مدينة لندن من الجو. إن الضباب الكثيف الذى يغطى مبانى لندن يزين سماءها ، يحولها إلى فتاة مراهقة تنتظر صديقها فى الصباح وسط زهور حديقة واسعة .. إن منظر البحيرات والجداول والخضرة التى شاهدتها من نافذة

الطائرة أثناء هبوطها تعجز الكلمات عن وصفها بدقة ، وتجعل الإنسان يتمنى أن تظل الطائرة تحلق فى الجو حتى لا تنتهى النشوة بإبداع الطبيعة الساحرة ، وظللت سابحا فى المناظر التى تتتابع على عينى استعدادا للهبوط فى مطار (هيثرو) .

بعد دقائق انفتح باب الطائرة لنجد أنفسنا داخل صالة المطار مباشرة وعلى بعد أمتار من موظفى الجوازات البريطانية ، وهم عبارة عن شباب وشابات فى مقتبل العمر. يقفون على حوالى ٥ بوابات مخصصة لدخول الأجانب وبوابة خاصة بالبريطانيين وأخرى بمواطنى دول الاتحاد الأوروبى . فاخترت فتاة جميلة لايزيد عمرها على ٢١عاما وتقدمت نحوها ومددت يدى إليها بجواز سفرى وقبل أن تلتقطه بادرتنى بابتسامة رقيقة وكلمة مرحباً.. ثم تفحصت الجواز لمدة ثوان ثم سألتنى عن سبب زيارتى وعن المدة التى أنوى بقاءها فى بريطانيا ... وكانت إجابتى سريعة بأنها مهمة صحفية قصيرة ، وبسرعة أعادت لى الجواز بعد منحى إقامة ٦ أشهر كاملة ، وأشارت لىّ إلى مكان الحقائب ... ولم يستغرق خروجى من المطار أكثر من ٣٠ دقيقة كنت بعدها أستقل سيارة جاءت لنقلى إلى لندن . لكن إحساسا غريباً تمكن منى ولا أعرف دوافعه .. فقد بدأت رحلة تسجيل كل المشاهد التى تصادفها عيناى خاصة أن الخروج من المطار سهل وبسيط لأن كل شىء يتم أوتوماتيكيا ولا دخل للإنسان فيه . وكلما رأيت شارعاً أو حديقة أثناء مرورنا بالطريق السريع الذى يصل بين لندن وهيثرو أتخيل أنى رأيته من قبل أو قرأت عنه أو توقعته ، على الرغم من أنها المرة الأولى التى تطأ فيها قدماى الأرض البريطانية .

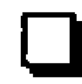
لم تستغرق المسافة من المطار إلى المنزل الريفى الذى سأقيم فيه سوى ٢٥ دقيقة خاصة أنه خارج مدينة لندن .. كانت الشمس تظهر على استحياء متسللة وسط الأشجار العارية من الأوراق ، وبادرنى السائق بأننى محظوظ لأن هذه الشمس من الصعب رؤيتها بهذا المنظر فى فصل الشتاء ، كان أزيز الطائرة لايزال عالقا بأذنى ولكن صوت العصافير والطيور وهدوء الجو وصفاءه أعطتنى إحساسا بالسعادة لم أعهده فى نفسى من قبل. ونظرت إلى المنازل ذات الطراز الإنجليزى المميز، إنها تمنح أصحابها الاعتزاز بأنفسهم. حتى إنهم يطلقون على هذه البيوت أسماء مثل «البيت

الفضى» . . «بيت السحاب» .. «بيت العشاق».. كلها أسماء رومانسية تنسجم تماما مع طبيعة المكان وتتماشى مع ظروف الجو الساحرة.

وعن طريق الريموت كونترول .. قام مرافقى الإنجليزى بالضغط على بعض الأزرار ففتح بوابة بيت ريفى محاط بالزهور والخضرة من كل جانب ويضم البيت مطبخا جانبياً ودورة مياه وحمام ساونا ومساحة صغيرة منقسمة إلى جزءين: الأول مخصص للتليفزيون والمدفأة التى تعمل بالخشب . والجزء الثانى عبارة عن غرفة نوم بسيطة تضم سريراً وضع بطريقة تجعل صاحبه قادراً على رؤية الحديقة الشاسعة عبر شباك زجاجى مغطى بستائر كثيفة..

أثناء توجهى للبيت الصغير شعرت بنسمة هواء خفيفة باردة منعشة أوحت لى أننى أعيش داخل ثلاجة ، مع أن الجو لطيف وغير ممطر، لكن لا يمكن تحمله بدون التدفئة المتوافرة لدى كل إنسان يعيش هنا فى بريطانيا ، لأن الحكومة هى المسئولة عن تحمل تكاليف إدخال التدفئة للمنازل ويتم خصمها من الضرائب بنظام الأقساط حتى يمكن لأى شخص الاستفادة من هذا النظام.

وساعدنى المرافق على حمل الحقائب.. وبسرعة شرح لى طريقة التعامل مع الأدوات الحديثة بالبيت ووسائل الاتصال ، وقبل ذلك قام بتشغيل أدوات التدفئة للتغلب على برودة الجو ، وما كدت أخلو إلى نفسى حتى دخلت فى النوم قليلا استعدادا لبدء برنامج الرحلة التى تركزت حول ما تعيشه العاصمة البريطانية من أحداث ساخنة وسياسات متناقضة جعلت من لندن نموذجاً فريداً للمعاناة التى تواجهها الحضارة الغربية رغم نجاحها فى الاحتفاظ لنفسها بخصوصية تميزها عن غيرها من المدن الأوربية.



ففى مدينة لندن من الصعب أن تشعر بالملل بالرغم من ضخامتها، ولا تخشى الضيق بالرغم من اتساعها ولا تحس الخوف رغم ازدحامها ، وفيها تنعم بالأمن رغم انتشار الجريمة بكل أشكالها ، وتكون سعيداً بالرغم من تبخر أموالك فى غلاء

أسعارها.. إنها واحدة من أكبر العواصم العالمية وواحدة من أكثر المدن انضباطا مع أن عدد سكانها يعادل عدد سكان القاهرة. وتعتبر لندن نموذجا لتعدد الأجناس وتباين المستويات، في شوارعها تشم رائحة التاريخ وتلمس فى مبانيها عظمة الماضى وعلى وجوه سكانها تعرف قيمة الاعتزاز بالنفس حيث يتظاهرون بحب الغرباء ويدعون الكرم ولا يفرقون بين الناس بسبب الأديان ، لكن لديهم حساسية خاصة تجاه الإسلام ولهم نظرة ظالمة للعرب.

وتعتبر لندن من أكبر مدن العالم حيث تصل مساحتها الإجمالية أكثر من ٦٠٩ أميال مربعة فتتخذ شكل الضواحى المترامية الأطراف. بينما لندن الحقيقية تتركز فى حوالى ٥ أميال مربعة على الشاطئ الشمالى لنهر «التيمس» الشهير، وتنتشر فى هذه المساحة معظم الفنادق والقصور والمستشفيات والمسارح كما تجمع بداخلها المعالم الرئيسية التى تشتهر بها العاصمة البريطانية.

ويرجع تاريخ إنشاء لندن إلى عهد الرومان الذين استعمروا بريطانيا فى عام ٤٣ ق. م وبعد أن نجحوا فى السيطرة عليها أنشأوا مدينة (لونديديوم) فى مكان لندن الحالية وربطوها بشبكة من الطرق الحربية إلى أن جاء «وليم النورماندى» بعد نحو ألف عام واتخذ من هذه المدينة عاصمة لإمبراطوريته بعد أن هزم «هارولد جودوين» آخر حاكم ساكسونى لإنجلترا فى عام ١٠٦٦م. ومنذ ذلك الوقت حصل على لقب «وليم الفاتح» وجرى تتويجه فى كنيسة «وستيمنستر آبى» التى أصبحت فيما بعد الكنيسة التى يتم فيها تتويج كافة ملوك بريطانيا حتى الملكة إليزابث الثانية التى مازالت تحكم حتى الآن. وكان تأثير وليم الفاتح عميقا فقد حول وستيمنستر إلى عاصمة ملكية وشيد البرج الأبيض الذى يعد من أبرز معالم لندن حتى العصر الحالى ، كما تمكن هو ونبلاؤه من فرض لغتهم الفرنسية على اللغة «الأنجلو سكسونية» الأصلية، فتكونت من هذا المزيج اللغة الإنجليزية التى تستعمل اليوم. ولم يحدث منذ عهد وليم الفاتح أن نجحت قوة خارجية فى غزو بريطانيا.

ومن الحوادث الجسام التى تعرضت لها مدينة لندن ذلك الحريق الغامض الذى دمر أكثر من ١٣ ألف منزل فى عام ١٦٦٦ والتهمت النيران الكنائس والأماكن العامة. لكن هذا الحادث أعطى الفرصة للمعمارى البريطانى الشهير (كريستوفر

رين) فصمم كاتدرائية «سانت بول» التى مازالت تحتفظ بروعتها وجمالها إلى الوقت الحاضر وامتدت عبقرية (رين) حتى شملت نحو ٥٠ كنيسة عظيمة تنتشر فى ضواحى لندن المختلفة بجانب مستشفيين ملكيين مازالا قائمين فى قلب لندن حتى الآن.

الطريف أن هتلر نازى ألمانيا شن غارات جوية مدمرة على العاصمة البريطانية لندن فى عام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ خلال الحرب العالمية الثانية. ودمرت هذه الغارات العديد من الأحياء الشعبية القذرة فى منطقة (إيست إند) بوسط لندن وهى الأماكن التى ذاعت شهرتها فى أعمال الأديب البريطانى العظيم «شارلز ديكنز» ، ويحتفظ الإنجليز بصور نادرة تصور قلعة الحرية وهى صامدة وقت الحرب ، وتبدو فيها قبة «سانت بول» البيضاء وحولها دخان كثيف ينبعث من الحرائق التى أشعلتها الغارات الألمانية. وربما كانت ثورة البناء التى حدثت فى لندن بعد الحرب جعلت المدينة تبدو أقل طرافة وعراقة ، لكن هذه الثورة المعمارية ـ كانت فاتحة عهد جديد للندن المليئة بالحيوية. وتتمتع لندن بشبكة ضخمة ومتميزة من المواصلات الداخلية المنتظمة تبدأ بمترو الأنفاق الذى يعد أقدم مترو فى العالم وتنتهى بأتوبيس لندن الأحمر ذى الطابقين الشهير، الطريف أن سكان لندن استخدموا أنفاق المترو للاختباء من الغارات الجوية أثناء الحرب العالمية الثانية.

كما تعتبر لندن أكثر العواصم العالمية ازدحاماً بأندية القمار وملاهى الاستعراضات العارية نظراً لمساحة الحرية المسموح بها فى المجتمع الإنجليزى حتى عُرفت لندن طوال تاريخها على أنها مدينة متوحشة وشريرة كما صورها الأديب البريطانى المعروف وليم شكسبير.

لقد حاول الإنجليز بعد انتصارهم فى الحربين العالميتين وانهيار إمبراطوريتهم أن يعيدو اكتشاف لذة الحياة التى تميز بها أسلافهم بعيداً عن الصرامة التى فرضتها عليهم الظروف التى قضوها من ١٨٣٠ حتى ١٩٥٠ ويرجع السبب فى ذلك إلى شخصية الملكة فيكتوريا القوية التى تركت ظلالها على مختلف أنحاء الحياة البريطانية طوال فترة حكمها.

ويمثل قصر «باكنجهام» أشهر معالم لندن باعتباره أعرق وأقدم القصور الملكية ليس فقط فى بريطانيا بل فى العديد من الدول الأوربية. ويمتد هذا القصر من ميدان «ترافالجار» وسط لندن حيث يوجد طريق (مول رود) الذى ينتهى بمبنى تنبعث فى جوانبه مظاهر الشموخ وتفوح نواحيه برائحة التاريخ والعراقة باعتباره المقر الرسمى للملكة الذى يسهل معرفة ما إذا كانت الملكة موجودة بداخله أم لا من خلال العلم الملكى المميز ، فإذا كان مرفوعاً يرفرف على السارية فإن الملكة تكون بالقصر. وقد شُيد القصر ليكون منزلاً ريفياً وفى عام ١٧٦٢ اشتراه الملك «جورج الثالث» بعد أن احتاج إلى مكان يتسع لأبنائه البالغ عددهم ١٥ طفلاً .

وقد تعرض قصر باكنجهام للقصف بالقنابل خلال الحربين العالميتين لكن مبانيه لم تتأثر ، ويحتوى القصر على نحو ٦٠٠ غرفة لإقامة بعض أفراد الأسرة المالكة وملحق به حديقة مساحتها ٤٠ فداناً ، بينما تصل ارتفاعات مبانيه إلى ٣٦٠ قدماً ، ويتولى حراسة القصر فرق من الحرس الملكى بملابسها التقليدية المكونة من جلد الدب الأسود وعليه سترة قرمزية ، ولكل فصيل علامة تميزه عن غيره. وتتم عمليات تغيير الحراسة يومياً فى تمام الساعة ١١,٣٠ صباحاً فى شكل مهرجانى بديع حيث تأتى القوات من أماكن تمركزها حول القصور فى خطوات عسكرية منتظمة تصحبها فرقة موسيقية ، وهذه التقاليد ليست وليدة العصر الحديث إذ يرجع بدء تأسيس الحرس الملكى البريطانى إلى عام ١٦٤٢م وقد شارك جنوده فى معظم الحروب التى خاضتها الإمبراطورية طوال تاريخها وتوجد منشأتان فى لندن مازالتا تتمتعان بحراسة القوات الملكية حتى الآن هما برج لندن الذى بناه وليم الفاتح عام ١٠٧٨م وظل مقراً لإقامة الأسرة الملكية ثم معتقلاً للأسرى ونشطاء السياسة المعارضين للحكم الملكى . وتدور حول هذا البرج العديد من القصص التى تصل إلى درجة الخيال فضلا عن الأهوال والفظائع التى تشهد عليها حوائط هذا المبنى العريقة كما تتولى القوات الملكية أيضا حراسة بنك انجلترا الذى يعد أكبر وأقدم البنوك على مستوى العالم.

كما يعتبر قصر الشمع من أكثر المعالم الشهيرة اللافتة لأنظار الزائرين الأجانب

خاصة أن صاحبة هذا القصر ومؤسسته السيدة «توسو» فرنسية الأصل ، أنشأت متحفها الأصلى فى باريس عام ١٧٧٠ ثم انتقل إلى انجلترا عام ١٨٠٢، ويضم المتحف حشداً من المجسمات الشمعية لشخصيات مشهورة على مستوى العالم ، سواء كانت أسباب شهرتها سوء السمعة أو القدرات الخارقة ، فقد نجحت هذه السيدة فى الاحتفاظ بقالبين لرأس كل من الملك الفرنسى لويس الرابع عشر وزوجته مارى أنطوانيت بعد إعدامهما خلال الثورة الفرنسية بالإضافة إلى تماثيل لـ جورج واشنطن ، جون كيندى والأميرة ديانا.

كما توجد فى العاصمة لندن ثروة من الأماكن التاريخية ذات القيمة الكبيرة على مستوى العطاء الإنسانى ، وهذه الثروة عبارة عن مكتبات وقصور وأبراج وقلاع ومعاهد علمية وجامعات . إنها واحدة من أكبر مخازن الفكر والعمارة على مستوى العالم بالإضافة إلى الكنائس ذات المكانة التاريخية والدينية التى تنتشر فى لندن القديمة أقدمها كنيسة «وستمنستر أبى» التى تعد واحدة من أبرع ما تبقى من الفن القوطى فهى مقبرة للجندى المجهول ولمعظم عظماء بريطانيا فضلاً عن أنها المكان الذى يتوج فيه الملوك ليكتسبوا شرعيتهم للحكم وهذه الكنيسة يعود تاريخ إنشائها إلى عهد الملك إدوارد فى عام ١٠٩٥م.

أثناء تجولى فى قلب لندن جذبنى مبنى شديد العظمة له طابع أسطورى تحوطه التماثيل وتعلوه الأعلام التى تعانق الصليب المثبت بعناية على قمته المصنوعة من النحاس الخالص، تنعكس عليه أشعة شمس الظهيرة فتبدو من بعيد كأنها مطلية بالذهب. وشاهدت طابوراً من الأجانب يقف بالقرب من أحد مداخل المبنى ، فقررت الانضمام إليه بعد أن عرفت أنه مسموح بزيارته كل يوم من بعد الرابعة مساءً.

وبعد انتظار حوالى ٣٠ دقيقة جاء ضابط يرتدى زى الشرطة الملكية أنيق المظهر مهذب السلوك وسمح بدخولنا إلى بهو المبنى بعد المرور من بوابات الكشف عن المتفجرات والمعادن ، مجرد لحظات كنت أجلس فى صالة طولها ٥٠ متراً مجهزة بالتدفئة غير المرئية حتى يخرج الزائرون ، لأنه مسموح بعدد محدد للزيارة حفاظاً

على سلامة المبنى ومنع الازدحام ومنح كل زائر أجنبى الفرصة الكافية للتعرف على مختلف أجزاء المبنى، إنه ثانى أقدم برلمان حقيقى عرفه العالم - بعد برلمان أيسلند - عمره يزيد على ٦٠٠ عام ، زيارته غير مكلفة فهو مجانى للأجانب وأيضا للمواطنين البريطانيين وجلسنا حوالى ٢٥ دقيقة فى هذا البهو قبل أن يشير إلينا الضابط بالدخول.

وخلال هذه الفترة وقعت عيناى على لوحات تزين البهو رسمها فنانون إنجليز عاصروا فترة إنشاء المبنى ، تضم اللوحات مناظر لبعض المعارك التى خاضتها الجيوش الإنجليزية فى الخارج وتظهر فى اللوحات التى يصل عددها إلى حوالى عشرة مناظر، صور لمعارك الإنجليز مع البلاد العربية خاصة مصر، ويظهر ذلك بوضوح من خلال وجوه وملابس الشخصيات التى رسمها الفنان الإنجليزى بدقة حيث يبدو فى المنظر صورة المماليك وتحوطهم الجوارى المرتديات للزى الإسلامى بينما يقف الجندى الإنجليزى شامخا يسلم المملوك الرسائل .

تركت هذه المناظر التى شعرت معها بالضيق ودخلت مباشرة إلى غرفة الاستقبال حيث يقف ثلاثة موظفين مهمتهم مساعدة الزائرين وإرشادهم إلى الأماكن المسموح بالتجول بها، وأشاروا إلى طاولة عليها تلخيص لمعلومات عامة عن المبنى وتاريخ إنشائه وبعض المعماريين والفنانين الذين شاركوا فى تطويره ، ولفت نظرى أن هذه المعلومات متوافرة بمعظم اللغات العالمية من بينها الإسبانية والإيطالية والألمانية واليابانية والصينية وظللت أبحث عن اللغة العربية ففشلت فى العثور عليها بين هذه اللغات .

اضطرنى فضولى إلى سؤال الموظف عن السبب فى عدم إدراج العربية ضمن اللغات المكتوبة عن المبنى فابتسم وقال: لأنك عربى؟ فهززت رأسى بالإيجاب، فقال أنت أول عربى تأتى إلى هنا وتسأل هذا السؤال : واعتذر لى الموظف مع وعد بنقل ملاحظتى للمسئولين.. صعدت إلى إحدى القاعات التابعة لمجلس العموم البريطانى حيث كانت تجرى مناقشة تطوير بعض الشوارع الرئيسية التى بدأت

تتصاعد شكوى المواطنين من تعذر المرور بها ، وحرصت على التدقيق فى طريقة مناقشة القضايا حيث تقدم أحد الأعضاء باقتراح لربط الأتوبيسات العامة بشبكة الإنترنت عن طريق القمر الصناعى، بحيث يستطيع كل مواطن تتبع تحركات الأتوبيس الذى يحتاجه منذ خروجه من المحطة المركزية حتى النقطة التى يسكن فيها للتغلب على شكاوى المواطنين من طول فترة الانتظار على المحطات مما يضيع أوقاتهم .

والطريف فى تلك المناقشات أن العضو فى بريطانيا يتمتع بالحصانة الكاملة داخل المجلس ، حيث إن من حقه استخدام أية لغة للإعلان عن رأيه مهما كانت تتعارض مع القانون البريطانى ، وعرفت أن معظم الجلسات تشهد اشتباكات بالأيدى ويتقاذف الأعضاء الأوراق والملفات ، ويكون مشهداً مثيراً خاصة أن الهدف من وراء كل هذا هو تقديم المنافع لعامة المواطنين وتحقيق أكبر قدر من الرفاهية للإنسان، ويعتبر مجلس العموم من بين المبانى الأحدث فى مجمع ويستمنيستر فقد جرى تشييده فى عام ١٨٤٠ ، ومازال على شكله المعمارى المميز فى الوقت الحالى ولم يتأثر هذا المبنى بالقنابل التى ألقتها الطائرات الألمانية عليه فى الحرب العالمية الثانية ، باستثناء بعض القاعات التى تهدمت أجزاء كبيرة منها ثم أعيد بناؤها مرة أخرى ، ووسط هذا الجمع يقف البرج الشهير الذى يحمل ساعة «بج بن» المميزة ذات الرنين المعروف.

واكتشفت أننى لست وحدى الذى لفتت نظرى تلك المشاهد وشاركتنى الممرضة الإيطالية «كريستين» فى الاهتمام بما نتابعه من شرفة مستقلة مخصصة لكل من يرغب من المواطنين أو الزائرين فى متابعة المناقشات التى تتم داخل مبنى مجلس العموم البريطانى ، وضحكنا معاً كأننا نتابع مشهداً تليفزيونياً . وقالت: هل فى بلادكم مبنى مثل هذا ؟ فنظرت فى عينيها الزرقاوين الجميلتين وابتسمت بدون تعليق ، ثم اتجهنا إلى المكتبة فهى تضم مراجع وكتباً ومعلومات عن كل شىء فى بريطانيا وخارجها، ويستطيع أى عضو الاستعانة بأية معلومة يحتاج إليها أثناء مناقشاته أو عندما يرغب فى إعداد أية دراسة ،كما بإمكان الموظفات تلخيص بعض

الكتب وطبعها عن طريق الكمبيوتر لخدمة الأعضاء ، فكل شخص فى هذا المبنى له وظيفة محددة يؤديها بنشاط ودقة متناهية .

وفى داخل المبنى تجولت فى معظم أجنحته المسموح بدخولها ، فهناك أماكن ممنوع للزائرين الاطلاع عليها وغالبا تضم الصالات الخاصة بالملفات المتعلقة بالقضايا التى تجرى مناقشتها بالمجلس ، لم أشعر بمرور الوقت وسمعت صوتاً هامساً يطلب من الزائرين الاستعداد للخروج لأن الوقت المسموح به قد أوشك على الانتهاء فالتفت إلى «كريستين» وبدأنا نبحث عن بوابة الخروج.

«كريستين» فتاة إيطالية عمرها ٢٢ عاماً ممتلئة الجسم تعمل ممرضة فى واحد من أكبر مستشفيات العاصمة روما ، تزور لندن للمرة الأولى، إنها صاحبة شخصية رائعة على الرغم من أن لغتها الإنجليزية أضعف من لغتى حتى أنها كانت تحمل فى يدها قاموس الجيب ، وعندما تحاول أن تشرح لى قضية تستعين به من وقت لآخر، خاصة أنها عرضت أن نقضى بعض الوقت معاً ، لأنها ترغب فى التعرف على مصر والمنطقة العربية التى لا تعرف عنها أى شىء سوى الأخبار السيئة التى تشاهدها فى البرامج الإخبارية التليفزيونية ، وبالفعل توجهنا إلى أقرب «بار» وهو مثل المقهى فى مصر، فأى شخص يرغب فى قضاء بعض الوقت مع شخص آخر ليس أمامه سوى «البارات» المتعددة المستويات والمنتشرة فى جميع الشوارع بلندن وخارجها، فهى جزء من فلسفة الإنسان الغربى والإنجليزى على وجه التحديد.

الإضاءة فى البار كانت ضعيفة ، ولأننا فى نهاية اليوم كان البار مزدحماً وجلسنا متقاربين على مقاعد مرتفعة بالقرب من مكان التدفئة ، والتقاليد الإنجليزية تمنع العاملين فى البار أن يسألوك عن شىء ، ويتركونك فترة من الوقت عند دخولك ثم تشير إلى العامل بطلباتك ، ولأننى وكريستين أجنبيان فى لندن جلسنا نتحدث عن أشياء كثيرة كأننا أصدقاء منذ فترة ، فالإيطاليون لديهم تقارب مع الشرق أوسطيين حتى إن لغتهم تحتوى على بعض الألفاظ القريبة من اللغة العربية كما أنهم بسطاء ويقيمون الصداقات بسهولة ، وبعد أن استغرقنا الحديث طلبت هى بعض البيرة

وطلبت «شاى إنجليزى» وكان هذا لافتا للأنظار لأن جميع الرواد لم يأتوا إلى هذا المكان لاحتساء الشاى ، لكننى تظاهرت بعدم الاكتراث ومضيت فى الحديث مع كريستين التى كانت تحكى لى عن صديقها المغنى الإيطالى الذى كان يكبرها بأكثر من عشرين عاما وأخرجت من حقيبتها ألبوم صور وبعض الأسطوانات الشهيرة لصديقها الذى تحبه لأنه من وجهة نظرها مخزون من الرومانسية ، ثم غادرنا البار وتوجهنا إلى مترو الأنفاق وكانت كريستين سوف تغادر لندن إلى روما فى صباح اليوم التالى وداخل المحطة ودعتنى بحرارة وتواعدنا على اللقاء مرة أخرى.

مدينة المهاجرين

أما برمنجهام ، وهى المدينة الوحيدة التى زرتها خارج لندن حيث تبعد نحو ٢٠٠ كيلومتر عن لندن ، ويربطهما طريق دولى يعد نموذجا للطرق الحديثة ، إذ يضم ثلاث حارات فى كل اتجاه : الأولى مخصصة لسير سيارات النقل الثقيل والشاحنات والثانية للسيارات التى يرغب أصحابها السير بسرعة متوسطة أما الثالثة فتم تخصيصها لهواة القيادة السريعة. وكل شخص يعرف الطريق الذى يخصه ولذلك تجد حالة من الانسياب المرورى بحيث لا يشعر الإنسان بأى ملل كما أن جانبى الطريق عبارة عن أشجار من الأنواع المورقة كثيفة الخضرة تتخللها شجيرات صغيرة مزهرة بألوان جذابة ، تعطى للطريق روعة وجمالاً توحى للمسافر بأنه يسير داخل حديقة.

المسافة تستغرق بالسيارة حوالى ساعتين ونصف ، والطريق تتخلله كبارى بسيطة جميلة ، نادراً ما تجدها مطلية بأى لون ، ومع ذلك شكلها مريح وغير قبيح ، أما على طول الطريق فتستمتع بمظاهر الحياة الريفية التى تميز البريطانيين ، فعلى البعد تجد منزلاً ريفياً جميلاً يقيم فيه مزارع بسيط يستخدم أحدث وسائل الترفيه ، أولاده يتعلمون فى أقرب مدارس لمنزله ، حيث يستيقظ مبكراً ويقوم بتوصيلهم إلى

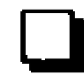
مدارسهم ثم يعود إلى المزرعة مباشرة ويظل يباشر عمله بها حتى الرابعة ـ موعد عودة أبنائه ـ فيتوقف عن العمل ويتناول معهم وجبة الغداء ثم يستأنف عمله الذى يؤديه بنوع من المتعة والبساطة ، فالتكنولوجيا الحديثة جعلت شخصا واحدا بإمكانه تدبير شئون مزرعة مساحتها ١٠٠ فدان وقطيع من الأغنام والأبقار قوامه ٥ آلاف رأس.. إنها حياة جميلة وسهلة يعيشها المزارع البريطانى ويقيم حفلات نهاية الأسبوع يدعو إليها جيرانه وأقاربه ، وتكون فرصة لتعارف الشباب والمراهقين حيث يتعلمون خلالها الحب والرومانسية مع الأصوات المصاحبة لنزع غطاء زجاجات البيرة والشامبانيا على عكس الريف فى بلادنا فهو يعنى فى خيالى الحياة الصعبة الخالية من أية متعة ، وطلبت أن أزور أحد المنازل الريفية المتناثرة على جانبى الطريق السريع «هاى واى».

وهناك استقبلنا جون ـ ٤٥ سنة ـ صاحب المزرعة أمام بوابة حديدية جميلة وبسيطة يتم تأمينها بطريقة إلكترونية بحيث يمكنه اكتشاف أية محاولة لاختراقها أو السطو ، وهو داخل المنزل عن طريق شبكة من الكاميرات وآلات التنبيه التى عن طريقها يتم استدعاء الشرطة على الفور ، بطريقة أوتوماتيكية .. قال لنا جون : إن زوجته تعمل مدرسة وهى الآن فى عملها حيث تتولى مسئولية توصيل ابنته وابنه يوميا ، بينما يتفرغ هو للعمل فى المزرعة التى ورثها عن والده الذى علمه منذ صغره ، مساعدته فى إدارة شئون المزرعة التى يتركز العمل بها على تربية قطعان الماشية والأغنام بالإضافة إلى عشرات الخيول التى تعد إحدى الهوايات الموروثة لدى عائلته منذ سنوات طويلة.

وأعد لنا جون الشاى الإنجليزى برائحته العطرية المميزة وقطع كيك صنعتها زوجته فى وقت فراغها ، فهو يعيش حياة سعيدة وتبدو عليه علامات الشباب ، ولديه مكتبة ضخمة تضم مئات الكتب فى مختلف مناحى الحياة ، خاصة التى تتعلق بتربية الحيوانات والأساليب الحديثة للاستفادة الاقتصادية من كل ما يتعلق بها ، ورغم أن جون توقف فى التعليم عند المرحلة الثانوية «هاى اسكول» إلا أنه حريص

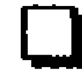
على التعلم واكتساب الثقافات المختلفة ، وفى الطابق الأعلى من منزله الجميل توجد غرفة خاصة بالألعاب الموسيقية فهو عازف جيد لآلة البيانو ويتنافس مع ابنته المراهقة جوليان فى العزف على هذه الآلات.

وقد غادرنا المزرعة بعد أن ودعنا «جون» بحرارة ومشاعر الريفيين البسطاء حتى وصلنا مرة أخرى إلى الطريق السريع وقبل أن نصل إلى مدينة برمنجهام فوجئت بحالة غير عادية فى الطريق حيث انحرف سائق سيارة نصف نقل وانقلب على الجانب الآخر من الطريق وفى لحظات كانت سيارات الشرطة والإسعاف والمطافىء وونش صغير تتجه إلى موقع الحادث لإنقاذ السيارة ، فعلى طول الطريق ينتشر عدد من الشبكات والمحطات المخصصة لتوفير الحماية والأمان للمسافرين ، ويتم تصوير الطريق عن طريق كاميرات مثبتة على الجانبين ، كما أن هناك أرقام تليفونات مجانية يمكن لأى شخص الاتصال عن طريقها بالشرطة وإبلاغهم عن الحوادث بدون أى التزام وبذلك تتحرك فرق الإنقاذ بسرعة وبنظام إلى أى حادث فى وقت قصير، وإذا كان الحادث بوسط الطريق فأول شىء يتم هو فتح الطريق مباشرة بعد نقل المصابين إلى المستشفيات . ولذلك فالسفر بالطرق السريعة يعتبر نوعاً من المتعة وآمنا بدرجة كبيرة لأنهم منذ البداية حرصوا على وضع كافة الاحتمالات فى الحسبان عندما شرعوا فى إنشاء الطريق .



مدينة برمنجهام تعد من المدن الكبيرة المساحة والكثافة السكانية وتتميز بوجود أعداد ضخمة من المصانع الإلكترونية ، معظم من يعمل فيها أجانب غادروا دولهم الفقيرة بحثاً عن فرص عمل وأغلبهم من الباكستانيين والهنود الذين استقروا فى بريطانيا منذ عشرات السنين ومازالوا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم حتى زيهم الشعبى المميز يتمسك العديد منهم بالالتزام به حتى يظل يؤكد لنفسه أنه غير بريطانى وينتمى إلى الشعوب الآسيوية الشرقية.

وعندما أصبحت برمنجهام قلعة صناعية ضخمة تم إنشاء معرض دولى دائم عند مدخلها الرئيسى تعرض فيه جميع الشركات منتجاتها ، ويكون فرصة لرجال الأعمال ليتعرفوا على أحدث المنتجات والسلع بهدف عقد الصفقات التجارية ، ولا يقتصر المعرض على إتاحة الفرصة للشركات البريطانية فقط بل من حق أية شركة عالمية أن تستأجر جناحاً لعرض منتجاتها على رواد المعرض ، والطريف إن إدارة المعرض تخصص طاقماً من الموظفات صغيرات السن يقفن فى استقبال رجال الأعمال بالورود والخرائط والمعلومات المجانية ، فضلاً عن أن قاعات العرض مزودة بأحدث وسائل الاتصال والانتقال الداخلى ، فأمام الزائر على الأقل يوم كامل كى يستطيع زيارة أجنحة المعرض.. والمدهش حقاً أننى أثناء التجول لاحظت لوحة مكتوبا عليها «هذا الباب يؤدى إلى مطار المدينة» وباب آخر بمجرد عبوره تجد نفسك داخل محطة مترو الأنفاق.



ففى مدينة برمنجهام لا تشعر بالاختلاف بينها وبين لندن أو باقى المدن البريطانية ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الإنجليز كانوا أول من توصل إلى نظام موحد لإدارة حياتهم . فقانون المبانى المطبق فى لندن هو نفسه الذى يتم تطبيقه فى برمنجهام وباقى المدن وحتى القرى . كذلك الحال بالنسبة لقوانين المرور وقواعد التعليم وغيرها من الخدمات، فالنظام والقانون الذى يحكم الجميع واحد ، لذلك يوجد نوع من الهارمونى أو التوافق الفكرى والفنى للمجتمع .. فالفوارق محدودة مهما انتقلت من مكان لآخر.. وهذا أهم ما يميز الحياة الإنجليزية وأعتقد أنه من أهم الدوافع التى جعلت منهم إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس فى حقبة متقدمة من الزمن ، خاصة عندما أطلقوا العنان لقواتهم البحرية فى الاتجاه نحو الشرق وسيطروا على معظم دوله واستنزفوا خيراته اعتقادا منهم أنهم مميزون عن باقى أمم الأرض وهذا يمنحهم الحق فى الاحتلال والسيطرة على الغير !.

أبواب لندن الخلفية

الحرية أوكسجين الشعوب ورأس مال الأمم ، واللون الأخضر الذى يزين رمال صحراء الحياة . . إنها ظل الشجرة التى يستريح تحتها الإنسان فى رحلته الشاقة!

فى الغرب تحولت الحرية إلى مصباح علاء الدين الذى انتشلهم من ظلمات العصور الوسطى ، وأصبحت الحرية هى السيف البتار الذى قاومت به أوروبا مثلث الجهل والفقر والمرض وصنعوا منها قارب النجاة للهروب من استعباد الطغاة وانحراف بعض رجال الدين.

وحتى الآن مازال العالم منقسماً إلى شقين ، الأول فى الشمال حيث الديمقراطية والأمان والعدل ، والثانى فى الجنوب حيث القمع والخوف والظلم. . وشعوب الشمال نضجت وانطلقت إلى حال سبيلها تبدع وتنتج للبشرية وسائل تكنولوجية تقرب المسافات وتدخر الجهود وتساعد الإنسان على الراحة والرقى، فى نفس الوقت ظلت شعوب الجنوب تواجه مصيراً غامضاً وتناضل من أجل كسرة خبز وتخوض الحروب الوهمية والصراعات المدبرة ، بينما نجح الشمال فى ترويض الجنوب وتحويله إلى منبع لموارده وسوق لمنتجاته !

وبريطانيا تأتى فى مقدمة الأمم التى عرفت الديمقراطية وحصلت عليها بعد حروب ومعارك أغرقت شوارع مدنها بالدماء وتعهدت من قديم الزمان أن تظل واحة للمضطهدين ومقراً للمظلومين وبيتاً للاجئين على الرغم من أن تمسكها بهذا المبدأ يجر عليها العديد من المشكلات السياسية ويكبدها خسائر ضخمة بسبب تمسكها بمبادئ راسخة تجاه المشردين ، ويكفى أن فى بريطانيا حالياً لاجئين من كل الدول العربية ابتداءً من مصر وانتهاء بالصومال مروراً بالسعودية ، ودخلت الحكومة فى صراعات مع البرلمان لطرد بعض اللاجئين بناءً على طلب مباشر من الحكومات العربية ومقابل صفقات تجارية تعود بالمنافع على المملكة المتحدة ولكن بريطانيا تمسكت بمبادئها الراسخة تجاه حقوق الإنسان.

وفى السنوات الأخيرة كانت بريطانيا محطة لعدد من العناصر المتهمة بالإرهاب فى قضايا سياسية صدرت ضد البعض منهم أحكام قضائية من محاكم استثنائية ، وطلبت مصر بطريقة مباشرة وغير مباشرة تسليم هؤلاء المتهمين ، وكان الأمر مرشحا للدخول فى أزمة سياسية ، ولكن الحقيقة أن هناك خلفيات تاريخية تفرض على بريطانيا الاستمرار فى الدفاع عن مبادئها ، ففى القرن التاسع عشر توترت علاقاتها مع الدول الأوروبية بسبب إيوائها الثوريين والفوضويين واتهمتها النمسا وروسيا بأنها لا تفعل ذلك من منطلق احترام حرية الفكر وإنما لتدبير المؤامرات ضدهما والضغط عليهما.

ويتباهى البريطانيون بأن بلادهم ظلت ملاذا آمناً لمختلف الأجناس ، وحسب الصحف الإنجليزية اعتاد المفكرون الأوروبيون الذين لم تنعم بلادهم بمثل هذه الحريات بعد ، على اللجوء إلى بريطانيا.

أشهرهم فى ذلك «فولتير» الذى لجأ إلى لندن عام ١٧٢٦ ومكث فيها ثلاث سنوات حظى خلالها بحفاوة سائر الأوساط العامة بما فيها البلاط ، وقد عبر عن امتنانه وإعجابه بالملكية الدستورية البريطانية بإهداء كتاب «هنريار» للملكة البريطانية كارولاين، وبعد العفو عنه وعودته إلى باريس نشر «رسائل فرنسية عن الإنجليز» أشاد فيها بالحياة الديمقراطية البريطانية وخلال الثورة الفرنسية وعهد الإرهاب الذى صاحب الثورة ، أصبحت بريطانيا ملاذا للملكيين الفرنسيين ، وانعكس ذلك فى صورة رواية الأديب البريطانى شارلز دكنز الشهيرة «قصة مدينتين» وبالطبع زاد ذلك من تأزم العلاقات بين فرنسا وبريطانيا.

وبانطلاق الحركات الثورية فى القارة الأوروبية تحولت لندن إلى ملاذ لقادتها وعلى رأسهم طبعاً « كارل ماركس » الذى كتب كتابه الشهير « رأس المال » فى مكتبة المتحف البريطانى ، وقد عاش ومات ماركس فى لندن ودفن فى مقبرة «هايجيت» حيث مازال يقف تمثاله الضخم الآن ومن حوله قبور اليساريين الذين حذوا حذوه، فى نفس طريق الفكر الشيوعى ، ومن بعده جاء الزعيم السوفيتى

«لينين» الذى قضى جزءاً، من حياته فى لندن وذات يوم وقف على جسر «وستمنستر» يراقب الجمهور البريطانى وهو يمر أمامه فقال كلمته الشهيرة «شعبان» يقصد الشعب البريطانى!

انعكس النشاط الثورى الأجنبى ببريطانيا فى كثير من الأعمال الأدبية وعلى رأسها رواية جوزيف كونراد الشهيرة «الوكيل السرى» التى صورت هذا النشاط عام ١٩٠٧ بالتخطيط لنسف مرصد جرينتش ، على أساس أنه سيكون حدثاً عالمياً حقا!

دخلت هذه الظاهرة طوراً جديداً بعد الحرب العالمية الثانية وانطلاق النضال من أجل استقلال المستعمرات حيث تحولت لندن باعتبارها عاصمة لأكبر الإمبراطوريات الكولونيالية، إلى مركز لسائر هذه الحركات التى وجدت طبعاً الإمكانية المناسبة لها فى التقاليد البريطانية التى تحترم الفكر ، عندئذ ظهرت حركة الحرية الكولونيالية التى حولت اسمها فيما بعد إلى «التحرر» تولت أعمالها السيدة «حق» وهى امرأة إنجليزية متزوجة من مسلم باكستانى ، ونشط فيها عدد غير قليل من النواب واللوردات وعلى رأسهم اللورد بروكوى وأصبحت مظلة لتوجيه المنظمات الأفرو آسيوية المختلفة التى كانت تناضل من أجل استقلال بلادها ، وتعمل فى نفس الوقت لضمان حقوق مناضليها بالبقاء فى بريطانيا ومواصلة نشاطهم وفى عنفوان الحرب الباردة عندما كانت الماركسية تعصف بالولايات المتحدة وتزج فى السجون بـ شتى اليساريين من المواطنين الأمريكيين لمجرد الاشتباه بقيامهم «بالنشاط اللا أمريكى».

فى هذا الوقت فتحت بريطانيا ذراعيها للشيوعيين واليساريين من أمريكا وسائر البلدان ليواصلوا نشاطهم ضد النظام الرأسمالى وبعبارة أخرى ضد النظام البريطانى وكثيراً ما أدى ذلك إلى تأزم العلاقات بين بريطانيا والدول الأجنبية ؛ ومنها العراق ففى العهد الملكى وأيام حلف بغداد ، تحولت «جمعية الطلبة العراقيين» فى لندن إلى بؤرة للنشاط الشيوعى ضد النظام الملكى فى العراق وعندها ضغط العراق على الحكومة البريطانية لطرد قادة هذا النشاط من بريطانيا،

تحول الموضوع إلى شجار طويل داخل البرلمان وخارجه ، ولكن الغريب أن بريطانيا استجابت فعلا لضغط حليفتها، فطردت عدداً منهم وعلى رأسهم نورى عبدالرازق ، سكرتير منظمة التضامن الأفروآسيوى فيما بعد.

ولكن ذلك وقع فى الخمسينيات عندما لم تكن بريطانيا قد دخلت بكل هذه الالتزامات الدولية المتعلقة بحقوق اللجوء السياسى ، حدث فى عام ١٩٥١ أن صدرت اتفاقية الأمم المتحدة عن وضع اللاجئين. تعزز ذلك فى بروتوكول ١٩٦٧ الذى قيد حق الحكومات فى إعادة اللاجئين السياسيين إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا إرهابيين. ثم صدرت الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان التى منعت الحكومات الأوروبية «المادة الثالثة» من إعادة الإرهابى حيث يمكن أن يعامل معاملة «قاسية أو مشينة».

وكما قال مايكل ستريتر، الخبير القضائى لصحيفة «ذى صن» البريطانية إن القانون البريطانى«يسمح بمقاضاة من يقوم بالتآمر فى بريطانيا على القيام بأعمال إرهابية فى بلد آخر، ولكن نادراً ما يستخدم الادعاء العام هذا الحق» مما أدى إلى وقوع بريطانيا فى مشاكل مع الدول الأخرى ، وفرض على الحكومة إعادة النظر فى أنظمتها المتعلقة باللجوء السياسى فعهدت إلى اللورد (لويد) بالموضوع فأصدر تقريره الذى أشار إلى وجود فجوة فى القوانين البريطانية يستغلها من يتآمر على القيام بأعمال إرهابية فى بلدان أخرى حيث يقوم المسئولون بإعداد لوائح جديدة تعالج هذه الفجوة فى ضوء هذا التقرير.

فالإنجليز والغرب سيواجهون بدون شك هذه المشكلة البدهية وهى كيف تفرق بين الإرهابى والمناضل ، نحن كعرب أدرى من غيرنا بها.

فالفدائيون الفلسطينيون عندنا أبطال مناضلون وعند الغربيين إرهابيون مجرمون.

ولبريطانيا خبرة أليمة فى هذا الموضوع فكم مَن السياسيين الذين صنفتهم كإرهابيين بل وحكمت عليهم بالإعدام «كمناحم بيجن» رئيس وزراء إسرائيل الأسبق ، فرشت لهم فيما بعد السجادة الحمراء واستقبلتهم كرؤساء دول وحلفاء.

غير أن الجو العالمى ضد الإرهاب والعنف السائد حاليا لابد أن يساعد المشرع البريطانى فى سن ما يلزم من النصوص لتخطى هذه الفجوة والضرب على الأيدى الإرهابية . ولا ندرى أى تعريف أو مواصفات سيستطيع أن يضعه بالنسبة لتحديد من هو الإرهابى ، وحتى يتم ذلك ستظل الحكومة البريطانية معتمدة على حصافة وخبرة أجهزتها الأمنية فى تحاشى المشاكل مع العديد من الدول العربية التى تطالب بريطانيا بتسليم أو إبعاد اللاجئين فى أراضيها.

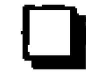
وهناك سؤال يطرح نفسه بين الجاليات العربية فى بريطانيا : هل فى صالح شعوب العالم العربى والعالم الثالث ، وأيضاً المناضلين من أجل حقوق الإنسان ، والحريات العامة إعطاء الغرب حق اللجوء السياسى لأبناء دولهم؟ وفى نفس الوقت عندما ينظر الإنسان الآن إلى عشرات الألوف من المهندسين والأطباء والعلماء والأدباء والمفكرين العرب الذين يعيشون كلاجئين فى العواصم الغربية ، لا يستطيع غير أن يأسف لهذه الظاهرة ، لقد كان اللجوء السياسى يمنح سابقاً لمفكرين عظام فى وزن فولتير وماركس وانجلز ممن استثمروا لجوءهم فى تغيير وجه البشرية بنشاطهم وإنتاجهم الأدبى والسياسى.

الآن قد تغير الوضع أصبح على الدولة المضيفة أن تعطى اللاجئ بيتاً وراتباً سخياً وكل ما يلزمه من خدمات. اكتشف ذلك كل من هب ودب فى عالمنا العربى. بدأت المسيرة الكبرى للمهنيين والمثقفين نحو الغرب خاصة الذين لم يتحملوا كل هذا العناء والبطالة والضيق والكبت الجنسى والفكرى والحكم الدكتاتورى فوجد اللاجئون أمامهم هذا النعيم وهذه الحريات فى عدد من العواصم الغربية.

والنتيجة هى تجريد الشعوب العربية من هذه الشريحة الأساسية من المهنيين الذين تكلف تعليمهم وإعدادهم ملايين الدولارات ثم خرجوا ليخدموا الدول الغربية الغنية بدلاً من بلدانهم الفقيرة ، وبهروبهم حرموا بلادهم من القوة التى تستطيع الإصلاح والتغيير ، لأنهم الفئة القادرة والواعية والتى يفترض فيها أن تصمد وتناضل من أجل التغيير والإصلاح . وبعد خروج المؤمنين به والقادرين عليه

ـ الإصلاح ـ من ساحة المعركـة، لا عجب أن نـرى بعض الأنظمة تتـعمد إخراج هذه الفئة من البلاد العربية وتسهل لهم الرحيل .

والنتيجة هى أنهم بـاعتمادهم على إعاشة الدولة المضيفة ، تحول الـكثير منهم إلى حشرات طفيلية تـنحصر حياتها فى التسكع والمهـاترات والجرى وراء النساء والخمر والمخدرات أحياناً ، وتحول اللجوء السياسى إلـى مهرب اجتماعى وإجرامى لمن يريد أن يهـرب من زوجته ومـسئوليـاته العائـلية. المرأة الـتى تريد الـهروب من خطـبة لا ترغبـها. المدين الـذى يريد أن يهرب مـن دائنيه ، الأديب الـذى يريد أن يهـرب مـن فشـله ، المجرم الذى يـريد أن يهرب بـثمار جرائـمه ، الإرهابـى الذى يلقـى القنبـلة ويبحث عن مخبـأ ، كل هؤلاء وجدوا اللجوء إلى الغرب خير مـهرب لهم ، وظهر الوكلاء والخبراء والجمعيات الـتى ترشدهم وتـعلمهم كـيفية الحصول عـلى ذلك ، حتى أصبـح اللجوء السياسـى رذيلة ومصيدة ومكـيدة ، وليس فضيلـة أو مكرمة أو نضالاً.



مع ذلك يظل طريق الغـربة شاقاً مليئاً بالمحطات الصعبة التـى تحتفظ بها الذاكرة ويصعب هـروبها إلى دائرة النسـيان ، تترك فى حياة الغـريب جروحاً يطول التـئامها ودروس لايمكن تكرارها ، إنها خليط من الضحك والبكاء والسعادة والحزن والفرح والألم والسعة والضيق والانفراج والانغلاق لـها قواعد صارمة وشروط قاسية . إنها بنك من التـجارب يغترف منه الغريـب بلا قيود ، يمكن أن يصبح عـميلا بلاً شروط على أن يبدأ التعاقد فى الطائرة وينتهى أيـضا فى الطائرة ، مرارة الغربة لا يستشعرها إلا من تذوقها وتألم من لوعتها فهى تفرض على الإنسان أن يتخلى عن عواطفه وأن يضع أحاسيسه فى الديب فـريزر ويتحول إلى كائـن بلا قلب ومع ذلك تـوقظه دبة النملة ، ومهما كانت قوته ينهار باكياً عندما يتذكر أمه .

كل هذه الأشـياء تجسدت بوضـوح فى مشوار الغـربة للشاب المـصرى (زهران) عندما كـان طالبا فى السـنة الرابعة كلـية التجارة ، فقـد ظل يحلم بشـىء واحد هو السفر والنجاح وأن يـكون صاحب قصة مثل باقى قصص جيـرانه الذين سافروا إلى

الخارج وتركوا كـل شيء وعادوا بعد أن حققوا المـعجزات ، جمع ملابسـه ووضعها داخل حقيبة «هانـد باج» واتجه إلى المطار حصل على تذاكر السـفر وتأشيرة الدخول إلى فرنسا... وما أن هبطـت الطائرة وظهـرت المفاجأة وأصبح الخيـال واقعاً ملموساً يعيشه ، فهو لايـعرف اللغة الفرنسية باستثـناء بعض الجمل البسيطة التـى تعلمها فى المرحلة الـثانوية ، كانت السـاعة تشير إلى الثـانية عشرة ليلاً وأنـهى رجال الجوازات إجراءات دخوله إلى فرنسا ، وتـوجه إلى سير الحقائب فلم يعثر علـى حقيبته ، غادر جميـع ركاب الطائرة وبقـى هو وشاب مصرى آخـر. وحاول أن يسأل شرطيـاً لكن الشاب المصرى ظل يتحدث إليه بلهجة فرنـسية سريعة لم يفهم منها أى شيء ، وهز رأسـه فى يأس وسار بـجواره ثم سألـه زهران: هل أنـت مصرى؟ فأجـابه بلهـجة ساخرة : «عاوز إيـه » ، ثم مضى دون توقف وبعـد عدة خطوات التفـت إليه ونادى عليه وسأله عـن مشكلته وعرف أن حقيبته مفقـودة ، واتضـح أن السائل ليس أفضل من المسئول ، وكان هو الآخر يبحث عن حقائبه لكن الفرق بينهما أنه يجيد الفرنسية بطلاقة ، وبالفعل ساعده حتى حصل الاثـنان على الحقائب وغادرا المطار ، وهما فى الطريق سأله الشـاب المصرى عن العنوان الذى سيتوجه إليه ، فـتبين أنه لايعرف إلى أين هو ذاهب. واقترح عليه أن يرافقه بدون أى تعليق نظراً لخبرته السابقة فى باريس وزياراته المتـكررة إلى فرنسا مع أنـه لم يكن مريحـاً لزهران ، وظل يثور علـيه لأتفه الأسباب إلا أنه لم يكن أمامه سوى الاستسلام لسخافته .

اتجهـا معاً عـبر متـرو الأنفاق إلـى وسط باريـس حيث يـوجد بنـسيون رخـيص يستوعب الشباب البائس وقضيا ليلتهما. وفى اليوم التالى قرر زهران مغادرة الفندق دون أن يبلغ زمـيله بمكان وجهتـه الجديد وسار فى الطـريق حتى وجد لافتة مـكتوباً عليـها « بيت الشـباب المغربـى » ، وصعد السلالـم واصطدم بسيـدة مسنة تـتحدث العربية بصعوبة ، فـسألها عن عمل فنصحته بالصعود إلى الطـابق الأعلى حيث يقيم عدد من الطلاب المـصريين ، وعندما طرق باب الـشقة فوجئ بثلاثة شـباب فى حالة مرح ويستمعون إلى أغانى أم كلثوم ، لحظتهـا استرد ثقته المفقودة وشعر بالأمان بعد ابتسامـهم فى وجهه وترحـيبهم به علـى الرغم من عدم وجود سـابق معرفة بيـنهم ، وكانوا طلبة يدرسون فى جامعات باريس ويعملون بعد انتهاء الدراسة وتبادل معهم

الحديث فى تلك الليلة ، بعدها عرض أحدهم عليه وظيفة فى أحد محال الطعام بالقرب من مترو باريس وكان عليه أن يتولى إعداد المشروبات الساخنة وتجهيزها لفتاة مغربية تقوم بدورها بتقديمها للزبائن بعد تناولهم الوجبات الجاهزة.

وعن طريق هذه الوظيفة البسيطة وجدها فرصة لتناول الوجبات المجانية بالإضافة إلى عائد محدود يكفى لتسديد إيجار السكن المشترك ، وتدريجياً بدأ يتعلم بعض الجمل الفرنسية المتداولة يومياً وارتبط بعلاقات قوية مع الشباب العربى القادم من دول شمال أفريقيا حتى حصل على فرصة عمل فى مصنع لتصنيع السيارات تدر عليه عائداً ضخماً وكانت تشترط الخبرة المسبقة التى يفتقدها ، ومع ذلك تقدم لشغلها بجانب ثلاثة جزائريين تصادف تقديم أوراقهم لنفس الوظيفة وكان لديهم خبرة مسبقة لهذا العمل ، لكنهم قرروا مساعدته وتدريبه على التعامل مع المعدات الأتوماتيكية لتجميع السيارات ، وأدى استعداده السريع إلى اكتساب الخبرة ودخل فى تجربة عن طريق المدير المباشر الذى اتضح أنه من المهاجرين المغاربة ، وسأله عن خبرته السابقة للعمل بمصانع السيارات فكان صريحاً معه وأبلغه بالحقيقة وتعاطف معه وطمأنه بمساعدته لشغل الوظيفة وبعدها أثبت كفاءة متميزة واستطاع تجميع مبالغ مالية ضخمة.

ومن خلال هذه الوظيفة تعرف على أسرة ألمانية كانت تقيم فى باريس وعرضوا عليه زيارة ألمانيا فوافق رغم صعوبة الحصول على تأشيرة للدخول إلا أن هذه الأسرة تعهدت بأن تكون مسئولة عن كل نفقات إقامته هناك وقدمت له التسهيلات اللازمة ، وبالفعل هبط فى مطار برلين وكانت الأسرة الألمانية فى انتظاره ، وظل فى ضيافتها ثلاثة أشهر بعدها قرر دراسة اللغة الألمانية فى مدرسة ليلية ، وساعدته هذه الأسرة أيضا فى تدبير تكاليف الدراسة كما ساعدوه فى الحصول على عمل . وبدأ ينبهر بالحياة فى ألمانيا ونسى تدريجياً آلامه فى فرنسا خاصة بعد أن قرر الدراسة فى الجامعات الألمانية حيث وجد هناك فرصة أكبر للعمل من خلال مكاتب تشغيل الطلاب وكسب آلاف الماركات وتعرف على زميلة يابانية والدها صاحب مصنع

سيارات أرسلها لدراسة البزنس فى ألمانيا ونشأت بينهما قصة حب واتفقا على أن تتم عملية الزواج بعد انتهاء الدراسة ويسافرا معا إلى طوكيو .

لكن بعد الدراسة تهرب زهران من حبيبته التى عادت إلى بلادها وقلبها مملوء بالحب والحزن على حبيبها المصرى ، وبدأ يعرف طريق الكسب بعد أن أتقن اللغة الألمانية وتعرف على عدد من المصريين الذين سافروا إلى ألمانيا لدراسة الدكتوراه وأفزعه نموذج الأستاذ الذى تزوج ألمانية وأنجبت له طفلين وحدثت له بعض المشكلات الطبية وأظهرت نتائج التحاليل أنه يعانى من العقم فأصيب بحالة نفسية سيئة وتحول إلى هيكل إنسان بعد أن تأكدت خديعة زوجته.

أما النموذج الثانى فهو عبارة عن شاب كان شديد الطموح والنجاح ، وبالفعل حقق طوال سنوات دراسته تفوقا غير عادى وحصل على الدكتوراه بجدارة لكنه قبل أن يبدأ فى جنى ثمار مشواره العلمى أصيب بخلل نفسى من تعارض حياته الريفية المحافظة مع الحياة العصرية والتحرر وكانت النتيجة أن أصيب عقله بلوثة ومسه الجنون.

وخاف زهران من هذه التجارب التى كان فيها الجنون هو محصلة الرحلة إلى بلاد الغربة ، وبدأ يكره ألمانيا وقرر فجأة التوجه إلى لندن بحثا عن الحياة المثالية التى يسعى إليها خلال ثمانى سنوات كاملة قضاها بين باريس وبرلين ، ولم يكن أمامه سوى بريطانيا التى قرر أن تكون ملاذه الأخير والمحطة التى اختار الهروب إليها من شبح الجنون الذى طارده فى برلين وباريس .

عندما وصل إلى لندن لم يكن خائفاً من الغربة لأنه أصبح مدرباً على مثل هذه المحطات رغم الفوارق الكبيرة بين العواصم الثلاثة ، لكن فى لندن وجد الحياة قاسية، الناس مشغولون بمشاكلهم ، الإيقاع سريع ومتتابع فاتجه إلى مقاطعة «ويلز» حيث الهدوء وأيضا الريف البريطانى الكلاسيكى ، وهناك تعرف على صاحب مزرعة عجوز ليس لديه سوى فتاة واحدة جميلة عيناها مملوءتان بالأنوثة والجاذبية ،

انبهر بجمالها. إنها امرأة مختلفة عن كل النساء اللاتى قابلهن فى مشواره من القاهرة حتى وصل إنجلترا .

شعر بأن ويلز محطته الأخيرة التى سوف يستقر فيها ويعيش حياته بعد أن عرض عليه العجوز أن يساعده فى مزرعته وأن يتولى إدارة شئونها المالية خاصة أن ابنته مازالت فى المرحلة الجامعية وبالمصادفة كانت تدرس إدارة الأعمال ، ونشأت علاقة رومانسية بينهما تحولت إلى حب جارف ، دار فى داخله إحساس الرغبة فى الزواج والاستقرار والإنجاب ، لأنه قد أتم عامه السابع والثلاثين وأراد أيضا أن يضع نهاية لهذه الحياة المليئة بالمتناقضات والصراعات التى شغلته عن أموره العائلية حتى نسى والدته التى توفيت وهو فى الغربة ووالده الذى تزوج بأخرى وإخوته الخمسة الذين بدأوا ينسون أن لهم شقيقاً اسمه «زهران» ، إنه ضحى بكل شىء من أجل تحقيق أحلام كانت تسيطر على حياته منذ صغره ، بدأها وهو شاب ولأنه أصبح فى منتصف العمر ولم يحقق الكثير سوى مغامرات ومطاردات لأشباح وهمية تخيفه من الجنون ونماذج لشياطين لعبت بعقول أصدقائه فى برلين .

لكنه توقع أن يكون نصيبه مع « روزان » ابنة صاحب المزرعة التى يديرها ، إنها حبيبته التى ستعوضه عن كل ماضاع منه فى مشوار الغربة ، حكى لها قصته مع الحياة فتأثرت بها ووعدته بالإخلاص بلاحدود والعطاء دون مقابل. وكانت هذه الوعود هى العقد الذى تزوجها على أساسه وبالفعل عاش زهران شهور الزواج الأولى فى سعادة وحب وكأنه يحلم ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الحلم وتحول إلى كابوس يطارده أينما حل وبدأ يشك فى سلوك «روزان» ، وظل يبعد عن نفسه هذا الشك ويهرب من الإحساس اللعين الذى يسيطر على كيانه وبدأ يدمن الخمر ليهرب من مخاوفه ويقبل كل ليلة على النوم مخموراً فاقد العقل والمشاعر حتى يتخلص من شبح الخيانة .

ولم يستمر زهران طويلاً فى هذه الصراعات المخيفة واستيقظ فى إحدى الليالى على أصوات غريبة تأتى من البيت الجانبى الملحق بالمنزل المقيم به ، فالمعتاد أن هذا البيت لايصدر منه أى صوت و هو مظلم طوال الوقت ، لكنه فى تلك الليلة كان

مضاء بطريقة غير عادية ، وقررالتوجه إلـيه لاكتشاف الأمر فكانت المفاجأة والصدمة حين شاهد زوجته تخونه وكاد أن يسقط من هول الموقف ، ولعب الشيطان فى رأسه بأن يقـتلها مع عـشيقها ويـهرب لكنه تغـلب على مشـاعره وعاد إلى المنـزل ، حمل حقيبة مليئة بالأوراق والمستندات التى كان يـحصل عليها عن طريق الإقامة الشرعية فى كل مـن فرنسا وألمانـيا ووجد يده تقبـض على جواز السـفر المصرى بقـوة وكأنه قارب النجـاة فى وسط بحر متـلاطم الأمواج يغرق فيـه كل غريـب ما دام لـم يـتعلم العوم فى بحورالنـسيان ، وترك المزرعة وسط تأوهات زوجته الخائـنة وهو موقن بأن الطفل الـذى بداخل أحشائها لن يـكون ابنه وجلس علـى مقعد الطائرة المتـجهة إلى القاهرة وسالت دموعه على خديه حتى تبللت ملابسه بينما عيناه تراقبان أضواء لندن وليلـها الذى شهد آخـــر محطة فـى حياتـه الـصاخبة ومال عـنقه وانهمـرت دموعه بغزارة ، وشـحب وجهه الذى تحول إلـى وجه عجوز تخـطى الستين...فقـد ترك فى «ويلز» مجهولا واتجه إلى مجهول آخر ينتظره فى وطنه....!

صحافتنا.. وصحافتهم

هى المرآة الـتى يرى فيهـا المجتمع وجهـه قبل أن يتوجـه أفراده إلى أعمالـهم كل صباح ، هى المهنـة التى يخشاها الحكام ويعـشقها النجوم والأبطال ، تفـضح الفساد والمتـستريـن عليـه وتقوم بـتشريـح المجتـمع وتتـولى محـاصرة عيـوبه ، إنهـا قرون للاستشعـار عن بعد تحذر من كل خطر يهـدد الأمم ، تلعب مع السلطة عـلى طريقة القط والفأر.

عند الشعوب المتـحضرة أصبحت الترمومتر الذى يحدد درجـة نظافة الحكومات وتحولت إلى صحيفة للحالة الجنائية لكل مسئول من الخفير إلى الوزير ، إنها الكتاب المقدس الذى تلتزم بنصوصه النظم المتقـدمة وتسير على هداه أنظمة الحكم الحديثة ، إنها صـاحبة الجلالة الـصحافة التـى يستخدمهـا الدكتاتوريـون فى تجميل وجـوههم القبيحة ومن خلالها يتم تخدير شـعوبهم والضحك على ذقونهم ، ووصل الأمر فى

أنظمة الحكم المستبدة بأن جعلوا منها أداة للتضليل والنصب بعد استئناس العاملين بها واستبعاد المشاغبين وتشريد المناضلين وتحويل المفكرين إلى خبازين وتقليم أظافر المشاكسين ووضع نوتة موسيقية يحفظها الصحفيون لمدح الحكام والمسئولين وذبح القطة لتخويف المثقفين. إنها السلطة الرابعة التى تساهم فى إصلاح المجتمع ومطاردة كتائب المجرمين واللصوص الذين يتغذون بمص دماء الشعوب البائسة.

إن الصحفيين فى بريطانيا لا يعرفون طريق مباحث أمن الدولة ، ولا يوجد بينهم محترف كتابة تقارير عن العلاقات النسائية لزملائه ، ولا توجد وصاية من الحكومة على الصحافة ووسائل الإعلام بكل أنواعها كما هى الحال بالنسبة لبلادنا العربية. إن الوصى الوحيد هو القانون الذى تنحنى له كل الرؤوس . المجتمع يعرف قيمة الصحافة ويقدر خطورة دورها فى نقل نبض الشارع إلى المسئولين ونقل انحرافات الكبار للشعب بلا خوف ولا رعب .

الصحفيون فى بريطانيا يكتبون وأقلامهم ثابتة بين أصابعهم.. إنها شعوب بلغت سن الرشد وتذوقت طعم الحرية وتعلمت كيف تحافظ على مكاسبها مهما كانت التضحيات ، فتراجع الحكام عن تسلطهم وتنازلوا عن جبروتهم واعترفوا بأن الصحافة هى ملك للشعب وحق من حقوقه الثابتة فى نقل كل ما يجرى داخل الغرف المغلقة ، لهذا أسقطت الصحافة العديد من الدكتاتوريات وأقالت الرؤساء وقدمت كبار المسئولين للمحاكمة ، وكل ذلك فى بلاد أخرى غير بلادنا التى مازالت تنظر للصحافة على أنها أدوات التجميل لتقديم الحكام إلى شعوبهم كأنهم مبعوثون من السماء ومندوبون من عند الله ، قراراتهم تنزيل وأقوالهم حكم تحفظها الشعوب وأخطاؤهم صواب .. وجهلهم علم وغباؤهم ذكاء وهزائمهم انتصارات. وتبعيتهم وطنية وسيئاتهم حسنات وانحرافهم استقامة وظلمهم عدل .. إن الصحافة أصبحت فى أغلب دول العالم الثالث أداة للنصب والاحتيال وانحرفت برسالتها المقدسة من الإصلاح إلى تبرير الأخطاء ومن نقل أوجاع المجتمع للحكام إلى ساعى بريد شيك يوصل الرسائل بين الحاكم والمحكومين.

لقد تصادف وجودى فى لندن بعد مرور شهور على أشهر حادث سير عرفه

العالم فى القرن العشرين الذى راح ضحيته الشاب المصرى عماد الفايد وصديقته الأميرة ديانا داخل أحد أنفاق العاصمة الفرنسية باريس.. وعلى الرغم من أن صدمة الملياردير المصرى محمد الفايد كانت هائلة لأنه فقد ابنه الأكبر ، بعد أن كانت الآمال معقودة عليه لتحقيق أمنيات الفايد فى الانتقام من السلطة البريطانية التى تحدته ورفضت منحه الجنسية رغم أحقيته فى الحصول عليها بالقانون. المهم أن الأمور كانت تسير بشكل طبيعى وصحف التابلويد ظلت منذ وقوع الحادث تتابع يوميا كل جديد عنه وتتلقف أى خبر يمكن أن يسىء إلى عماد الفايد ، فى الوقت الذى كانت التحقيقات لا تزال مستمرة لكشف لغز هذا الحادث الغامض.

لكن فجأة استيقظ البريطانيون على قنبلة فجرها الملياردير المصرى الغاضب حيث اتهم القصر الملكى والسلطات البريطانية بتدبير حادث مقتل ابنه عماد وخطيبته الأميرة ديانا. فى اليوم التالى نفدت أعداد الصحف وكان الفايد حديث الشارع البريطانى وعلى المقاهى وفى محطات المترو ولا حديث إلا عن اللهجة التى تحدث بها الفايد حيث توعد مدبرى الحادث بأنه لن ينام وتستقر عيناه قبل القصاص منهم وفضحهم وتقديمهم للمحاكمة ، وعلى الرغم من أن الفايد مواطن مصرى ومغضوب عليه من بعض الجهات فى السلطة البريطانية إلا أن الصحف تعاملت مع حديثه بطريقة صحفية ونقلت إحساسه بصدق إلى الرأى العام ، ولكن لايمكن أن تصل شفافية القائمين على هذه الصحف إلى حد الكمال بدليل أنه فى اليوم التالى خرجت نفس الصحف تحمل فى صفحاتها الأولى عناوين رئيسية تقول : القصر يرد على أكاذيب الفايد ، ثم عناوين عشرات المقالات لكبار الكتاب اتهموا الفايد بأنه يؤمن بنظرية المؤامرة التى يؤمن بها كل القادمين من الشرق الأوسط، ومقالات أخرى عديدة كلها تدخل تحت بند السب والقذف فى حق رجل فقد ابنه الوحيد فى حادث مأساوى غير منطقى سيظل علامة سوداء فى ثوب الحرية والديمقراطية البريطانية.

وفى نفس الوقت كانت قصة الفتاة التى ادعت أنها إحدى عشيقات عماد الفايد السابقات وأنجبت منه طفلة نشرت الصحف صورها بجوار صورة لعماد وهو طفل،

وفى الصورتين تقارب كبير فى الملامح ، وهذه القصة تراجعت إلى الصفحات الداخلية فى الوقت الذى فتح فيه الفايد النار على السلطات البريطانية وبعد عدة أيام ألقى البوليس القبض على هذه الفتاة بتهمة الترويج لمعلومات خاطئة على الرغم من أن صورها وكلامها نقلته جميع الصحف على مدى عشرة أيام متواصلة.

وأعود مرة أخرى إلى الصحافة عندنا وعندهم ، فقد شعرت بأننا مازلنا نحتاج الكثير حتى نضع أقدامنا على بداية الطريق الصحيح لإنشاء صحافة حديثة تساهم فى حل مشاكل مجتمعنا. وهذا يتطلب من المسئولين أن يكونوا أكثر مرونة وتفاهما وأن يسمحوا لأنفسهم بأن يتدربوا على تحمل تضحيات الحرية التى تكشف العيوب وتبحث فى مساوئ الحكام وتنقلها للرأى العام كما تنقل فتوحاتهم وإنجازاتهم . ومع ذلك من الصعب أن يحدث ذلك بالنسبة للصحافة وحدها لأن تلك الدول أصبح لديها نظام متكامل من الديمقراطية التى تعتبر الصحافة جزءاً مهماً ورئيسياً فيها ، بجانب وجود دستور نابع من قلب هذه الشعوب يعبر بصدق عن توجهاتهم ويحقق العدالة وينظم إيقاع المجتمع بطريقة سلسة وعادلة . بينما واقع الحال لدينا يختلف حيث معظم الدساتير القائمة فى بلادنا العربية ، إما وضعها عسكريون فى مراحل المراهقة الثورية أو وضعها ملوك متسلطون حرصوا على تحقيق مصالحهم وبقائهم على مقاعد الحكم أكثر من حرصهم على مستقبل ومصير شعوبهم.

لهذا شعرت باليأس لأن المجتمع البريطانى عبارة عن مجموعة حلقات متصلة تسير بإيقاع منتظم سواء كان بالنسبة للصحافة أو لأدوات الحكم الأخرى مما يؤدى فى النهاية إلى هدف شامل ومحسوب لجميع جوانب المجتمع بطريقة تحقق العدالة والرفاهية وتحترم آدمية الإنسان وتضع حريته فى أولوياتها. أما بالنسبة لوضعنا فقد تصورت ظروفنا فى العالم العربى كالسيارة القديمة التى تتعطل كل يوم وتؤدى إلى تكدس المرور بالشارع العام ، وإذا حاول صاحبها إصلاحها اكتشف فى اليوم التالى عطلاً جديداً ، وهكذا فإن مجتمعنا يحتاج إلى «عَمرة» شاملة وصيانة تعيد تأسيس وإصلاح كل شىء بشكل جماعى بحيث تضع الشعوب على الطريق الصحيح للانطلاق إلى المستقبل دون معوقات .

إن الشعوب المتقدمة ليست أكثر منا تحضرا وليست أكثر منا غنى وثراء لكنهم أكثر تنظيما وأقل منا ظلماً لبعضهم البعض ، فهم يؤمنون بالمغامرة وحق الشباب فى التجربة وإثبات نفسه بينما نحن لا نعترف إلا بالعجائز ولا نحترم إلا شباب ما بعد الستين ونعطى الفرص دائماً للأشخاص وهم فى سن اليأس فيكون الماضى أهم من الحاضر والهدوء أفضل من المغامرة.

لهذا تحول مفهوم العلاقة بين الصحافة والسلطة فى بلادنا حيث فرضت الحكومات الوصاية على العاملين بها وحولتهم من مبدعين إلى موظفين وتحولت الصحف إلى نشرات تقدم للرأى العام المعلومات التى ترغب الحكومة فى إرسالها إليه ، وأصبح بعض الصحفيين يعمل ناقلا لأفكار الحكام بعد أن يقوم بتعديلها وتنقيحها حتى إن بعض الحكام فى عالمنا العربى يتعامل مع الصحفى كما يتعامل مع الحلاق ، فالأول يهذب أسلوبه ويحوله إلى حكيم لا ينطق إلا الحق بينما الثانى يتولى تجميل صورته ليطل بها على الشعب ، وانحرف العاملون فى الصحافة من إطلاق صفارات الإنذار عندما ترى الفساد والاستعداد للانقضاض على الحاكم الظالم إلى أداة للسلطة تضلل بها الشعوب وتزور بها الحقائق . وأخشى أن أكون من هواة تعذيب النفس وجلد الذات لكنى أنقل شعورى عندما بدأت المقارنة . ومع ذلك فى بلادنا المخلصون بلا عدد والوطنيون لايمكن إحصاؤهم والصحفيون الشرفاء يملأون الصحف ، لكن المشكلة أن هؤلاء مفروض عليهم القيام بأدوار محددة والتسلق إلى أكبر المناصب على جثث زملائهم ، حتى إن بعضهم انحصرت مواهبه فى النفاق والمجاملة ليضمن أن يظل باقياً فى منصبه ، والسبب أن الحكومات نجحت فى تحويل الصحافة من مهنة إلى وظيفة ووضعوا لها قواعد غريبة لا تتناسب مع الدور المفترض لها فى أنظمة الحكم الحديثة .

وهذا يؤدى بنا إلى معرفة أسباب ظاهرة الصحف المهاجرة بعد أن أصبحت سوق الصحافة العربية فى لندن شديدة الازدحام حتى إن عدد الصحف التى تصدر هناك باللغة العربية يزيد على عدد الصحف التى تصدر فى الدول العربية ذاتها ويتضاعف يومياً عدد الصحفيين العرب الحاصلين على اللجوء السياسى أو المقيمين بشكل دائم

فى بريطانيا كمنفى اختيارى بعد أن ضاقت حكوماتهم بانتقاداتهم ولم تتحمل آراءهم. وتحولت العاصمة البريطانية إلى ساحة للمنافسة بين الحكومات العربية لامتلاك وتوظيف أكبر عدد ممكن من تلك الصحف للدفاع عن صورتها فى الخارج حتى وصل الأمر بأن خصصت الدول النفطية ميزانيات تقدر بالملايين لهذا الغرض.

ودخل على الخط بعض المغامرين والأثرياء العرب لدرجة أن هنا فى لندن بعض الصحف التى تصدر باللغة العربية لا يقرؤها سوى العاملين بها ويخصص لها بعض الأثرياء ميزانيات ضخمة بهدف أن يرى صورته الكريمة فى كل عدد يصدر منها لاستغلالها سياسياً والضغط على المسئولين فى بلاده من خلالها. والحقيقة أن معظم العاملين فى هذه الصحف من المصريين ولكن القيادة دائما لغيرهم الذين يجيدون فن العلاقات والتربيط ويحظون بثقة الشيوخ والأمراء ، بينما اكتفى المصريون بالعمل من أجل ملاليم بالمقارنة بالملايين التى يجنيها الآخرون من وراء هذا العمل ، والسبب فى ذلك يرجع إلى السمعة السيئة التى يروج لها البعض عن الصحفيين المصريين بأنهم صناعة حكومية ، وإن كانت هذه الشائعات تحمل جزءاً من الحقيقة لأن الدولة مازالت حتى الآن هى التى تحدد هوية من يعمل بالصحافة ومن يحصل على جواز ممارسة هذه المهنة بطريقة مضحكة ومبكية ، حيث من الممكن أن تقوم الحكومة بتعيين شخص ليست له صلة بمهنة الصحافة فى المناصب القيادية بالمؤسسات الصحفية ، وبالتالى يتولى مسئولية تحديد من يعمل بهذه المهنة ويكون من بين اختصاصاته مصير الصحفى ومستقبل المهنة . وبذلك ساهمت الحكومة بطريقة غير مباشرة فى وجود جيل مشوه صحفيا يحمل فى صدره غلا وكراهية وإحساساً بالظلم لأن مصيره يظل معلقا فى يد رئيسه الذى وضعته الحكومة على قلوب العاملين بالمؤسسات التى مازالت تابعة لإشراف الحكومة الكامل.

وليس الوضع بالصحف الحزبية أفضل حالا من الصحف الحكومية فالأحزاب السياسية هزيلة وضعيفة ويسيطر عليها عجائز تخطاهم الزمن وتجاوزتهم الأحداث وانعكس إحساسهم باليأس والهزيمة على الأوضاع داخل أحزابهم والصحف التى تعبر عنهم ، لدرجة أن الصحف الحزبية الكبيرة أصبحت تتولى الدفاع عن الحكومة

والنظام أكثر من الصحفيين فى الصحف الحكومية. ولهذا انتقلت أوجاع الصحافة المصرية من القاهرة إلى لندن ودفع الصحفيون المصريون ثمنا باهظا من سمعتهم بسبب أخطاء تراكمية ليس لهم أى ذنب فيها ، ومع ذلك مازال الوقت مبكراً لإزالتها وتصحيح الأوضاع على الرغم من أن الصحفيين المصريين الأكثر مهارة وحرفية بدليل أن معظم الصحف العربية قائمة على أكتافهم ، ولكنهم يعملون دائما فى الكواليس وهم صامتون من أجل الحفاظ على لقمة العيش فى الخارج .

أما فى الداخل فإن الأقلام ترتعش بين أصابعهم بسبب سيف السجن أو النقل أو حتى العقاب بالضرب والسحل والأمثلة عديدة ومعروفة لما واجهه الصحفيون من التعسف وسوء استخدام لـلقانون الـذى يحتمى به المفسدون والمرتشون، وأترك الكاتب الكبير محمود السعدنى الذى تخطى السبعين من عمره يتحدث بنفسه عن أزمة تعرض لها شخصياً نتج عنها التحقيق معه أمام النائب العام بتهمة السب والقذف فى حق أحد المحافظين المتهمين بالفساد ، انتقد السعدنى تجاوزاته وأخطاء ارتكبها من خلال وظيفته الرسمية.

يقول السعدنى «عبدالودود المطرى صحفى صايع من بلاد اليمن ، لجأ إلى بلاد الإنجليز، بعد الحرب الأهلية ، ولكنه شعر بالغربة فى بلاد الخواجات، فجاء إلى مصر المحروسة ويعيش فيها الآن مع أسرته، أصدر كتابه الأول عن دار النبلاء بلندن ضمنه تجربته فى المنفى بعنوان «تائه فى بلاد الإنجليز» والكتاب صرخة من صحفى صايع حاول أن يقول رأيه فى بلده فاكتشف أن الرأى ممنوع والزعل مرفوع ، فتصور لجهله أنه سيفلح فى إعلان رأيه فى بلاد الآخرين ، والغريب أننى نصحته بأن يلزم داره حتى لا يقل مقداره كما يقول المثل المصرى ، ولكنه لم يقتنع وتصور أن العبد لله صار عجوزا درديبسا، وأننى آثرت السلامة والمشى جنب الحيط ولكن الحمد لله أن التجربة أثبتت له صدق نظرية العبد لله ، وهى النظرية التى توصلت إليها ليس بسبب ذكائى الخارق ، ولكن بعد تجربة مريرة فى بلاد الأشقاء وفى بلاد الأعداء على حد سواء ، فلا كرامة لصحفى أو لكاتب إلا فى بلده وبين أهله ، حتى لو دخل السجن أو عانى الفصل والتشرد والجوع.

وحكمة الله أن بلادنا وحدها هى التى تضيق بالنقد ، وعندما أقول بلادنا، فالعبد لله يقصد بلادنا من الخليج للمحيط وإن كانت مصر تمتاز بسعة صدرها وشدة احتمالها مقارنة بالآخرين ، وهناك حالات نادرة يسمح فيها العبد لله للصحفى بالهروب من بلاده ، عندما يكون القتل هو العقوبة الوحيدة للصحفى طويل اللسان عديم التهذيب قليل الأصل.. وفى العالم العربى هناك بؤر تعتمد هذه السياسة. ولذلك هرب أغلب كتابها وأغلب رجال صحافتها وعاشوا فى المنفى آمنين ، ولكن اليمن ليست من بين هذه البؤر، وفى اليمن انتخابات حرة وفيها هامش لا بأس به من الحرية للصحفيين والسياسيين .

صحيح أن الصحفى فى اليمن قد يستدعى للمثول أمام النيابة ، ولكن ماذا يعنى المثول أمام النيابة وهى ضمانة للمتهم قبل أن تكون ضمانة للمجنى عليه ، والعبد لله تشرف خلال حياته الطويلة بالمثول أمام النيابة أكثر من عشر مرات ، وتولى التحقيق معى النائب العام بنفسه مرة فى حقبة الستينيات ومرة فى حقبة السبعينيات، وخرجت من تحقيقات النيابة بأصدقاء أتشرف بمعرفتهم. كان آخرهم المستشار صلاح نصار رئيس نيابة أمن الدولة ، ووقفت أمام محكمة الجنايات ثلاث مرات وكان الحكم فى كل مرة بالبراءة ، ووقفت أمام محكمة الجنح مائة مرة. ولم يحدث أن أصدر قاض مصرى حكما ضد العبد لله فى أى وقت. ولقد تصورت أن العبد لله قد تاب الله عليه من المثول أمام النيابة والتردد على دور المحاكم خصوصا بعد أن تجاوزت السبعين، ولكن يبدو أن الزمار يموت وصباعه بيلعب ، ولذلك سأذهب إلى مكتب النائب العام متهما بارتكاب جريمة السخرية ضد أحد الموظفين.

ولأن النيابة والمحاكم جزء من مهنة الصحافة والكتابة ، فقد نصحت الولد عبدالودود المطرى بالعودة إلى اليمن ، حتى لو كانت النتيجة ذهابه من المطار إلى السجن مباشرة خصوصا أن كتابه «تائه فى بلاد الإنجليز» هو تحفة من الأدب الساخر، والسخرية هى سلاح الموهوبين ضد غطرسة الإدارة وغباء المستوظفين ، وأعتقد أن مثل هذه السخرية يتسع لها صدر السلطة اليمنية وتغفرها أيضا ، ولكنى أحلم بيوم يقول فيه الكاتب كلمته ويمضى ، أقصد يمضى إلى بيته وليس يمضى

إلى سجن صنعاء أو سجن بغداد أو سجن أم درمان إنه مجرد حلم.. ولكن تحقيق الأحلام يحتاج أحيانا إلى عدة قرون» انتهى كلام السعدنى.

ولابد أن نعترف بأننا فى مصر قطعنا شوطا طويلاً كى يكون للصحافة دور مؤثر فى المجتمع ، خاصة إذا نظرنا إلى تجارب الدول العربية الأخرى فقد أتيحت لى زيارة عدد من الدول الشقيقة و كانت لى فرصة الاحتكاك المباشر ببعض الصحفيين ، فشعرت بأننا فعلا تخطينا المرحلة الصعبة التى كان يخشى فيها الصحفى البوح بأفكاره للآخرين فى الوقت الذى مازال فيه بعض الصحفيين العرب يخشون انتقاد حكامهم فى الجلسات الخاصة إلا فى حالة فقدانهم الوعى وهى الحالة التى لا يحاسب فيها على تصرفاته لكننا أصبحنا الآن بإمكاننا توجيه النقد إلى الوزراء وبعض كبار المسئولين وإن كنا مازلنا نضع لأنفسنا خطوطا حمراء عند تناول أداء الكبار، لكنها مرحلة معقولة يمكن أن تدفعنا لمراحل أخرى أكثر جرأة وتفتح الطريق لأجيال جديدة تستطيع السير فى الطرق المحرمة حاليا.

ولكن مصر يقع على عاتقها دائما أن تتحمل مسئولية النموذج بالنسبة للعالم العربى ، فإذا أدخلت مصر نظام الانتخاب انتقلت عدواه إلى الدول العربية والأحزاب أيضا تنتقل تدريجيا إلى دول عربية عديدة ، وكذلك الحرية والديمقراطية إذا عاشت مصر فى ظل ديمقراطية حقيقية نجد أن حكام وشعوب الدول العربية يسيرون خلفنا فى نفس الاتجاه ولذلك نتمنى أن نستمر فى كسب أرضية جديدة لحرية التعبير وديمقراطية الحكم حتى يمكن أن نرد على ادعاءات الغرب بأن إسرائيل واحة الديمقراطية وسط غابة من الدكتاتوريات العربية .

وأعتقد أن حرية الرأى تأتى فى مقدمة الخطوات نحو الديمقراطية والإصلاح خاصة فى ظل التقدم الهائل الذى ترتب على ثورة الاتصالات حتى أصبح بإمكان أى شخص اكتساب تجارب الشعوب المتقدمة وهو فى غرفة نومه والاطلاع المباشر على كل ما يجرى فى العالم بما فى ذلك الصحف الأمريكية عندما كانت تفتش فى حياة الرئيس الأمريكى العاطفية ، الأمر اللافت مثلاً أن تحول مغامرات كلينتون إلى نكات يتبادلها المواطنون المصريون فى القرى والنجوع .

إنها الصحافة التى كشفت كل هذه الفضائح ولم يستطع رئيس أكبر دولة فى العالم إغلاق صحيفة أو سجن صحفى بل كل ما قام به اللجوء إلى القضاء، والطريف أن بعض رجاله ومساعديه هم الذين ساعدوا ومرروا أسراره إلى الصحافة ليس بدافع الانتقام منه بل من منطلق إيمانهم بالدور الحيوى والمهم الذى تقوم به الصحافة فى توجيه حركة المجتمع ، فى نفس الوقت لم يؤد كشف فضائح الرئيس إلى انخفاض سعر الدولار عالميا ولم يتعرض الأمن القومى الأمريكى للخطر ولم تشهد الولايات المتحدة انتكاسة اقتصادية ولم تقاطعها الدول الصديقة ، على العكس فإن الحكام العرب يربطون مستقبلهم بمستقبل بلادهم ويعتبرون المساس بهم هو مساس بأمن البلاد ، وهذه حجج أثبتت فضائح الرئيس كلينتون كذبها.

ولكن نحن فى مصر أيضا بدأنا ندخل مرحلة جديدة فى تعامل أجهزة الأمن مع الصحافة ، فبدأت تتراجع تدريجيا عمليات المطاردة والمراقبة والتشكيك فى وطنية الصحفى ، كما كان يحدث فى السابق بالرغم من استمرار بعض القيود التى تعوق انطلاق الصحفى وتعطله عن ممارسة حياته بطريقة سهلة تسمح له بأن يقدم للرأى العام خلاصة جهوده فى الحصول على المعلومات وكشف بؤر الفساد واستغلال نفوذ المسئولين فى السلطة وخارجها ، وللتعرف على مدى التقدم الذى حدث حالياً مقارنة بأواخر الستينيات نقرأ تجربة الكاتب الصحفى محمد وجدى قنديل رئيس تحرير مجلة آخر ساعة السابق ، فى إحدى يومياته كتب قنديل: «لعل ما يثير الانزعاج لدى الصحفيين هو الإسراف فى أحكام القضاء بالسجن فى قضايا النشر ، وتعرض الصحفيين لتنفيذ أحكام الحبس ضدهم.. ولعل ما يبعث على الهواجس هو تزامن مشاكل خاصة بالصحافة الصفراء مع تنفيذ الأحكام القضائية وصار شبح الحبس اللذيذ يطارد صحفيين آخرين.. ولكنها ليست أزمة ثقة مع الحكم!

وفى وقت ما كان هناك من الإجراءات الاستثنائية تجاه الصحافة ما هو أشد وأقسى من الأحكام القضائية القابلة للاستئناف والطعن والنقض ، وكان الصحفيون يمثلون للتحقيق السرى أمام الأجهزة الأمنية ، مثل المخابرات والمباحث ، لمجرد

الاشتباه .. وكانوا يتعرضون للاحتجاز والاعتقال بدون أحكام قضائية ولا إجراءات قانونية.

وقد تبدو التجارب الشخصية التى أرويها من الذكريات ، ولكنها تعكس واقع الحال الذى كانت تعيشه الصحافة فى حقبة سابقة. تحت مظلة الرقابة والحذف ومنع النشر، وقد يكون لها ظروفها ومبرراتها ودواعيها.. ولم تكن هناك جهة محددة مسئولة عن الصحافة ـ مثل المجلس الأعلى ونقابة الصحفيين ـ وإنما كانت جهات أخرى سياسية وأمنية تتدخل فى المسئولية وتقوم بمساءلة ومحاسبة الصحفى.

مازلت أذكر ذلك الصباح جيدا عندما دق جرس التليفون فى بيتى مبكرا ، وجاءنى صوت يقول هنا مكتب السيد رئيس المخابرات العامة ـ وكان صلاح نصر وقتها ـ نريد حضورك عندنا فى القبة لكى تشرب فنجان قهوة ولأمر مهم! وحاولت الاستفسار ولكن سكرتير رئيس المخابرات لم يزد حرفا واحدا وتركنى فى حيرة وغموض . يا ترى ما ذلك الأمر المهم؟ ولماذا يتم استدعائى إلى المخابرات؟ حقيقة إننى أعرف صلاح نصر والتقيت به من قبل .. ولكن الأسلوب المتجهم «الرسمى» للمتحدث كان يثير القلق.

وحينما وصلت مبنى المخابرات وجدت مندوبا فى انتظارى واصطحبنى إلى غرفة استقبال عبر ممرات عديدة ـ فى الطابق الأسفل ـ وسألنى بتحفظ: هل تشرب قهوة ؟ وأغلق الباب وخيم الصمت. ومضى بعض الوقت وجاءت القهوة وبعدها أطل واحد برأسه ثم أغلق الباب.. ومضت ساعات على هذه الحال ولا أدرى ما الأمر؟ وحضر مندوب آخر واقتادنى إلى غرفة أخرى (بها مائدة ومقاعد وبلا تليفون» وانصرف قبل أن أفتح فمى! وأخيرا فتح الباب ودخل ثلاثة ضباط مخابرات! وكنت أعرف واحدا منهم ولكنه تجاهل ذلك وسألنى بجدية وهو يفتح الملف الذى يحمله فى يده : أنت فلان «الاسم الثلاثى» ومحل إقامتك فى الزمالك ومحل عملك فى أخبار اليوم .. مضبوط؟ وفهمت أننى رهن التحقيق، فسألته: ما المسألة بالضبط؟

قال الضابط المحقق : أنت تعمل مراسلا لمجلة «تايم» الأمريكية فى القاهرة .. وازداد ذهولى ودهشتى ، وحاولت أن أوضح له أننى أعمل فى «أخبار اليوم» ولا علاقة لى بأى جهة أجنبية. . ولكنه مضى فى قراءة الملف : لقد نشر باسمك «الثنائى» مقال فى المجلة الأمريكية «العدد الأخير» وتهاجم فيه النظام وتنتقد سياسة الرئيس عبدالناصر.. وأخذ يقرأ سطورا من المقال المنشور ثم قال كما أنك على اتصال بالأمريكان على حسب معلوماتنا وقد سافرت إلى أمريكا.. و.. وأدركت أننى أواجه اتهاما خطيرا ، لأنه كانت هناك أزمة حادة بين عبدالناصر وأمريكا فى ذلك الوقت. وكان هناك توتر فى العلاقات واستجمعت أفكارى وقلت مدافعا عن نفسى : أؤكد لكم أنه لا علاقة لى بالأمريكان ولم أكتب حرفا من مقال مجلة تايم ولا صلة لى بها! فسألنى ضابط آخر: ولكن اسمك منشور بالمقال؟ وحاولت أن أوضح اللبس.. وعاد يستجوبنى: ألست فلانا ؟ نعم ! ألست تقيم فى الزمالك؟ نعم! ألست متزوجا ؟ نعم! وإلى آخر المعلومات ما عدا شىء واحد هو أننى لست مراسلا لأية صحيفة أجنبية. وظهرت علامات الدهشة على وجوه الثلاثة وانصرفوا وتركونى حبيساً فى الغرفة مع الصمت والهواجس .. والقهوة !

وبعد ساعة انتظار عاد الضابط المحقق لاستجوابى مرة أخرى وقال بلهجة التهديد : أحسن لك أن تقول الحقيقة وتعترف بتفاصيل الاتصالات مع الأمريكان.. وأخذت أدافع عن نفسى بلا جدوى وشعرت بالإرهاق الشديد.. ودارت الخواطر فى رأسى بسرعة وتذكرت عندما سافرت إلى سوريا لأول مرة فى مهمة صحفية - قبل ذلك - وصعدت إلى الطائرة بعد انتهاء الإجراءات ولكنهم أنزلونى منها قبل الإقلاع لأن اسمى مدرج على قوائم الممنوعين من السفر . واتصل ضابط الجوازات بالمباحث الخاصة بالصحافة وجرت الموافقة الشفوية على سفرى مؤقتا بضمان عملى فى «أخبار اليوم »، وبعد عودتى حاولت أن أتقصى السبب واكتشفت أن هناك تشابها فى الأسماء مع زميل صحفى آخر يعمل فى الأهرام وله مشكلة ، ولكن لم يصحح الخطأ واللبس إلا بعد سنوات وبناء على تأشيرة وزير الداخلية وقتها ورفع اسمى من قوائم الممنوعين.

ومر ذلك الشريط فى رأسى وأخبرت المحقق بتشابه الاسم الثنائى مع الزميل الصحفى ولكن اللقب مختلف ، ونظر الضباط الثلاثة إلى بعضهم ودققوا فى بطاقتى.. وكانت ساعات النهار قد انقضت علىّ فى غرفة التحقيق بالمخابرات وأخبرنى المحقق أنه سوف يستوثق من احتمال الخطأ وسيراجع الجوازات والمعلومات والأرشيف ، وبدا أنه لم يكن مقتنعا بروايتى وطلبت منه أن يسأل السيد المدير صلاح نصر فهو يعرفنى شخصيا.. كانت المفاجأة عندما أخبرنى أن رئيس المخابرات هو الذى أمر بالتحقيق معى واحتجازى لحين تعليمات أخرى! وساعتها ضاقت الدنيا فى وجهى وأنا حبيس الجدران الأربعة ورهن التحقيق ولا أعرف مصيرى فى هذا المبنى!

ومرت الساعات إلى ما بعد منتصف الليل. وجاءنى الضابط المحقق وقال بالفعل.. هناك اسم صحفى آخر يتشابه مع اسمك وبياناتك وتوصلنا إلى ذلك بعد مجهود كبير ويبدو أنه الشخص المقصود ، ولكن الأمر يتطلب وقتا للتأكد من أقوالك لأن الموضوع يمس الأمن القومى! وتركنى وحدى وغلبنى النعاس .. وأفقت على صوت الباب فى الفجر واصطحبنى الضابط إلى مكتب آخر فى الطابق العلوى وأخبرنى أن المدير سيقابلنى.. وبعدها وجدت نفسى أمام صلاح نصر وبادرنى مداعباً : معلهش جت فيك.. لكن اعذرنا فهى إجراءات أمنية ولازم نتأكد من المعلومة. تقدر تروح دلوقت وما تقولش حاجة لحد!

ويواصل وجدى قنديل الإدلاء بشهادته الصحفية قائلاً: كنت قد سافرت إلى ليبيا . فى أواخر عهد الملك السنوسى وقبل تولى العقيد القذافى بشهور. وبدعوة من وزير الإعلام الليبى وقتها «الصالحين الهونى» لحضور حفلات أم كلثوم فى طرابلس وبنغازى والتى يخصص دخلها للمجهود الحربى وكانت مظاهرة وطنية لمصر بعد هزيمة يونيو ٦٧ .. وعدت إلى القاهرة مع الوفد الصحفى الذى رافق أم كلثوم وكان معى سعيد سنبل ورجاء النقاش خطوة بخطوة!!. وبعد عودتى بيوم تلقيت مكالمة تليفونية فى الصباح الباكر من مباحث أمن الدولة ، وكالعادة دعانى اللواء حسن طلعت رئيس الجهاز على فنجان قهوة فى مكتبه وقال : أنا فى انتظارك ، وكانت

تربطني به علاقة مودة لقرابته مع أحد الزملاء. وتوجهت إلى مبنى مباحث أمن الدولة فى لاظوغلى وأنا خالى الذهن تماما عن السبب.. ولكننى كنت أعتبره مصدرا موثوقا لمعلومات صحفية وكنت أتصل به بين الحين والآخر.. واستقبلنى الرجل كعادته بالترحيب وشربت القهوة ولكننى لاحظت أنه كان متغيرا وكأنما يريد أن يفتح موضوعا معينا..

وحاولت التخمين ولكن رئيس مباحث أمن الدولة فتح الملف أمامه وقال الحقيقة أنك مطلوب للتحقيق فى موضوع زيارتك لليبيا.. وقد كلفنى السيد شعراوى جمعة - وزير الداخلية فى ذلك الحين - بأن أتولى التحقيق بنفسى نظرا لوضعك الخاص «وكنت نائب رئيس تحرير آخر ساعة» ولأهمية الموضوع.. واستغربت الحديث وأوضحت أننى سافرت بموافقة رئيس التحرير يوسف السباعى وكذا رئيس مجلس الإدارة محمود العالم ولم يحدث أى خطأ من جانبى.. ودخل اللواء طلعت فى صلب الموضوع وقال نمى إلينا أنه أثناء وجودك فى ليبيا تكلمت ضد النظام ونسبت إليك أقوال عن الرئيس عبدالناصر. . وسألته غاضبا : واجهونى بالدليل وبالشهود.. وأين شرائط التسجيل ؟

ولكنه قال : إنها معلومات وصلت إلينا.. وأدركت أنها دسيسة وضيعة وكاذبة للطعن فى شخصى ولغرض ما. وللحق كان الرجل واسع الصدر وأخذ يهدئ ثائرتى وأبدى اقتناعه بدفاعى.. ولكنه مكلف بالتحقيق فى الأمر.. إذن ، ما العمل؟ وطلب منى أن أكتب بنفسى ما حدث أثناء زيارتى لليبيا وبالتفصيل ، من قابلت.. ومع من تكلمت؟ وأين ذهبت؟ وأخذنى مدير مكتبه إلى غرفة صغيرة مجاورة بها مكتب وبلا تليفون وأعطانى قلما وأوراقا وأغلق الباب . وتأكدت أنهم يحتجزوننى حتى ينتهى التحقيق ويتقرر مصيرى .. وأدركت أننى فى مأزق بلا ذنب.. فقد كان الموقف حساسا بعد هزيمة يونيو وكان عبدالناصر لا يثق فى النظام الليبى «الملكى» ، ولكننى كنت واثقا من براءتى لأننى دخلت فى مواجهة حادة أثناء حوار مع الهونى وزير الإعلام!

ومضت الساعات بطيئة متثاقلة حتى انتهيت من كتابة كل التفاصيل الصغيرة وجاءنى الضابط المسئول وأعاد قراءتها ثم انصرف وتركنى فى الغرفة المغلقة .. وعرفت فيما بعد أن اللواء طلعت اتصل بشعراوى جمعة وأبلغه بأنه لا توجد أدنى شبهة خصوصا أننى طلبت شهادة زملائى فى الرحلة وطلب شعراوى الاطلاع على التحقيق وأرسلوا إليه الأوراق المكتوبة بخط يدى .. وعرفت أيضا أن وزير الداخلية اتصل بالسيد على صبرى ـ الأمين العام للاتحاد الاشتراكى وقتها ـ باعتباره الجهة التى أبلغت المعلومة الكاذبة بغرض الإيقاع بى ، وأوضح أن التحقيق أثبت براءتى من الاتهام الظالم ، ولكنه لم يقتنع بتحقيق الداخلية وكان الأمر مدبرا للتخلص منى فى غياب يوسف السباعى الذى كان مسافرا إلى موسكو .. وصدر قرار من الاتحاد الاشتراكى بالعزل السياسى ضدى وكذا إيقافى عن العمل الصحفى ومنعى من الكتابة ، وذلك أثناء احتجازى فى مباحث أمن الدولة وبينما لم تنقطع القهوة والشاى! وبعد منتصف الليل جاء الضابط المختص لمناقشة أقوالى، وطلبت الاتصال بالتليفون مع أسرتى ولكنه اعتذر بأنه ممنوع حتى يتم استيفاء التحقيق. وبعد ساعات من القلق جاءنى اللواء طلعت وأبلغنى قرار الوزير بإخلاء سبيلى .. واصطحبنى إلى مكتب شعراوى جمعة وأبدى الرجل أسفه لما حدث وأنه اضطر لإجراء التحقيق لكى يظهر براءتى ، وقال: أرجو أن تقدر الظروف ولا تحمل شيئا فى نفسك!

هكذا كانت الإجراءات الاستثنائية تواجه الصحفيين بدلا من الأحكام القضائية فى تلك الحقبة وكانوا يتعرضون للاحتجاز والحبس اللذيذ فى أماكن التحقيق بالأجهزة الأمنية وأحيانا للاعتقال ولمدة غير محدودة فى القضايا المتصلة بالسياسة والنظام ، وبدون عرضهم على النيابة والقضاء وكان الحبس من نوع آخر! إذن للصحفيين عذرهم وجزعهم من الإفراط فى أحكام القضاء مؤخرا بحبس الصحفيين .. ويكفى معاناتهم فى عهود سابقة وتضحياتهم من أجل حرية الصحافة.. وإذا كان هناك تجاوز فى الممارسة وخروج على آداب المهنة وميثاق الشرف فإن الصحافة لديها الآلية القادرة على تصحيح الممارسة ومحاسبة الانحراف»!

وإذا كانت هذه التجربة تعبر عن طريقة الأجهزة المصرية فى التعامل مع الصحفيين فى السابق فإن القصة التالية تكشف أسلوب إحدى الدول الخليجية فى التعامل مع الصحفيين المزعجين. وقد تابعت أثناء وجودى فى لندن فصول هذه القصة التى كان بطلها شابا من أسرة متوسطة الثراء ، شاء حظه أن يولد فى إحدى دول الخليج وقرأ العديد من الكتب وهو صغير حتى أصبح ينتمى تدريجياً إلى أصحاب الفكر اليسارى ، وفى وقت تراجع فيه هذا التيار من كل بلاد العالم واختفى حتى من موطنه الأصلى ، نجح الشاب فى الالتحاق بوظيفة صحفى فى مؤسسة محلية ، وبدأ يمارس مهنته كما تعلمها وقرأ عنها ، فواجه صعوبات عديدة بسبب عدم اعترافه بأى خطوط حمراء أو صفراء تضعها حكومة بلاده أمام العاملين فى هذا المجال ، وتسبب فى جلب العديد من المتاعب إلى القائمين على الصحيفة ، وتوصل المسئولون فى جهاز الأمن المشرف على الصحافة إلى وسيلة ناجحة للتخلص من الصحفى المشاغب عن طريق إرساله إلى لندن فى رحلة طويلة يعمل خلالها مراسلاً للصحيفة ، وفى المقابل توفر له كافة المصاريف بدءا من فواتير الفندق وانتهاء بتكاليف الوقود لسيارته ، وظل الصحفى فى بداية وصوله إلى لندن يجتهد فى البحث عن قضايا تصلح للكتابة ويرسلها مباشرة إلى صحيفته .

وبالفعل نشرت له بعض المقالات بانتظام إلى أن بدأ يكتب سلسلة من مقالات تتناول الحياة السياسية لكبار المسئولين فى بريطانيا والمقارنة بينهم وبين أقرانهم فى بلاده . فتوقفت المقالات فجأة وتم تخفيض المبالغ المخصصة له شهرياً من صحيفته . كل ذلك وهو لا يعرف السر فى إرساله إلى لندن . فقد كان يعتقد أنها مكافأة له على تميزه المهنى كما أوحى له رئيس التحرير .. لكن بعد توقف نشر المقالات أو حتى الرسائل العادية تكشفت له بعض الحقائق وعاش فى ظروف قاسية قدمته إلى عالم النساء وفتيات الليل اللاتى يملأن الفنادق بحثاً عن صيد سمين قادم من الشرق الأوسط .. واتجه إلى الخمور التى وجد فيها سلواه عن النفى الظريف فى بلاد الغربة ، وبعد أن بدأ يكتب لكبار المسئولين فى بلده يحذرهم من منعه عن ممارسة حياته الصحفية وإبلاغهم بأنه منفى خارج وطنه ، حيث جرى إعداد خطة بشأنه

تتضمن اتفاقا يقضى بأن تستمر الصحيفة شبه الحكومية فى إرسال راتبه الذى يغطى تكاليف حياته الأساسية فى المقابل يتوقف هو عن الكتابة سواء الإيجابية أو السلبية .

وبالفعل قبل الصحفى الشاب العرض الذى أبلغه به مسئول من سفارة بلاده فى لندن وقدم له رقم تليفون يتصل به كلما احتاج إلى شيء وتركه غارقاً فى همومه وخيالاته فى فندق متوسط الحال بالقرب من حدائق الهايد بارك ، واتجه الصحفى الشاب إلى حياة العبث واللهو التى تجذب أى باحث عن هذا النوع من الحياة خاصة فى لندن التى تتوافر بها كل أنواع الفساد والانحراف . وعاش فترة من حياته مع الخمور يبحث فيها عن مخرج إذ وجد نفسه غير قادر على العودة إلى وطنه .. وكان يقضى يومه بين الغرفة وبهو الفندق الذى يوفر له متعة تغيير الوجوه .

وفى إحدى الليالى قرر أن يعيش حياة اللهو فسقط ضحية فتاة ليل تمتهن الدعارة وتتخذها وسيلة كسب سهلة ومضمونة طبقاً لقواعد وقوانين تنظمها السلطات البريطانية ، وتسمح لهؤلاء بالإعلان عن بضاعتهن فى بعض الصحف ، والتى لا تملك ثمن إعلانات الصحف تلجأ إلى (بوستر) تتولى توزيعه على كبائن التليفونات المنتشرة فى شوارع لندن . المهم أن الصحفى العربى الشاب سقط فى غرامها واقترب منها وتعرف عليها وبعد حديث قصير طلبت منه مرافقته إلى غرفته وبالفعل قضى وقتاً سعيداً معها بدون أن يعرف أنها تتقاضى أجرها بالساعة ، وفى نهاية الليلة ارتدت ملابسها وطالبته بفاتورة باهظة الثمن .. واختلف معها وحاول طردها من الغرفة لكنها بعد دقائق عادت وبرفقتها ضابط بوليس وعرض عليه إما الدفع أو السجن بعد أن أطلعت الضابط على التصاريح التى تعمل وتمارس نشاطها بموجبها.. فلم يجد الشاب أمامه سوى الدفع تحت التهديدات والفضائح.

وتكررت هذه الواقعة مع فتاة أخرى لكنها لم تستدع له البوليس بل استدعت ثلاثة من البلطجية الذين يعملون لحسابها ، وتلقى الصحفى درساً دفع ثمنه فى المستشفى المجاور للفندق ، وتعرضت محتويات غرفته للنهب بعد أن غاب هو عن الوعى. وبعدها تم تعديل الاتفاق مع سلطات بلاده بأن توفر له عملا آخر غير

الصحافة مقابل أن تأتى زوجته لتعيش معه فى لندن داخل شقة بسيطة وتم إلحاقه فى وظيفة إدارية بسفارة دولته .

وفى المجتمع البريطانى آلاف القصص لمغتربين ، بعضها تخطى مرحلة الخيال . والطريف أنه مجتمع قديم لديه القدرة على دمج الغرباء واستيعابهم بكل مشاكلهم ومعاناتهم حتى تشابكت القضايا بين الأجانب وأصحاب البلد الأصليين .

لندن.. ترتدى الحجاب!

الإسلام فى الغرب رمز للرعب ودليل الرجعية ومثال للتخلف ونموذج للجهل .. يظنون أنه عقيدة الضعفاء ، و يتخيلون أنه ضد الحرية ويقدس القمع ويدعو إلى الظلم ولايعترف بالعدل ، أصبح الإسلام كالمتهم البرىء غير القادر على الدفاع عن نفسه وتحول إلى فيلسوف فشل فى توضيح رسالته .

أما نظرتهم إلى المسلمين فهى أكثر بشاعة ، فالإنسان المسلم من وجهة نظر معظم الغربيين مريض يحتاج لعلاج عاجل فى المصحات النفسية .. وصاحب فكر إرهابى بسبب ضيق الأفق ، ويؤمن بأشياء خرافية تتعارض مع العقل، وصورة المسلم عبارة عن رجل يحتقر العلم ويعشق الماضى ويرفض النور ويسعى إلى الظلام ، يستلذ باستعباد المرأة ويعاملها بطريقة حيوانية ، فضلا عن أن المسلم دائما مادة للسخرية فى سهرات السكر والعربدة ، فلذلك المسلم الذى يعيش فى الغرب مطالب بتصحيح هذه الأفكار المسبقة وتقديم إثبات يومى على أنه متحضر .. كما أنه محاصر بالشهوات وتطارده الملذات فى كل مكان . وحياته فى الغرب صعبة إما أن يساير الغربيين فى تفاصيل حياتهم التى يتعارض معظمها مع المعتقدات الإسلامية خاصة الجوانب الأخلاقية والاجتماعية ، وإما أن يتحول إلى شخص منبوذ ومصدر للسخرية والاستهزاء ، وحتى نكون أكثر مصداقية فالحياة الغربية تسمح بحرية

الاعتقـاد لكافة الأديـان وهناك قطاعـات كبيرة فـى المجتمع البـريطانى لاتـؤمن بأى عقيدة. وإذا آمنـت فهى مجرد شكليـات لا تمارس شعائرها ولايعرف عـن طقوسها الكثيـر، لكن الإسلام بالذات ينـظرون إليه بعين قلـقة حذرة يملؤها الخـوف والتوتر ويعتبرونه وحشا سوف يغتصب منهم حريتهم التى هى أعز ما يملكون .

فالإنسـان الغربى عادة يـقسم حياته إلـى ثلاثة أجزاء متـساوية الأول يقضيه فى العمل والثـانى فى العلاقات الجنسية والـثالث للشرب والسكر ، ويـعرفون جيدا أن الإسلام يقف حائلا لتحقيق تلك المطالب الحيـوية على الأقل بالطريقة العلنية ، على الرغم من أن المبلـمين لايلتزم العديد منهـم بتطبيق كل المبادئ السامـية التى أرساها الدين الإسلامى الحنيف . ومع ذلك أعتقد مـن خلال لقاءاتى وتحركاتى فى العاصمة البريطانية لندن أن النظم والقوانين فيهـا تمنح المسلمين حرية الحركة وتسمح بممارسة الأنشـطة للمـسلميـن المقيمـين بها أكـثر مما تسـمح به العـديد من الأنظـمة العربـية الإسلامية لمواطنيها خاصة فيما يتعلق بالمسائل التنظيمية والمشاركة السياسية.

وفى دراسة أجرتها جامـعة (دربى) البريطانية تبين وجود ١٤٠٠ مـنظمة إسلامية تعمل بشكل شرعى فى بريطانيا تمثل معـظم التوجهات والفصائل الإسلامية المختلفة بدءا مـن جمـاعات الإسلام الـسياسـى وانتـهاء بالمـنظـمات الشـيعيـة والأصولـية، والطريف أيضـاً فى هذه الدراسة أنه تم حصر نحـو ألف مسجد فى المدن البـريطانية مابيـن مراكز إسلاميـة ضخمة إلى زوايـا ومساجد صـغيرة لايتردد عـليها مسـلمون بأعداد كبيرة ويخضع إشراف هذه المساجد إلى الجمعيات والمنظمات الإسلامية التى تكونت مـنذ عشرات السنين مـع وجود كثافة من المهاجـرين المسلمين القـادمين من الهند وباكستان ودول شرق آسيا.

وفى السنوات الأخيرة بدأ أثرياء النفط يـدخلون فى مجال الدعوة وبـدأ بعضهم ينشئ المسـاجد والمدارس الإسلامية ويمولهـا من ماله الخاص ويحولها تـدريجياً إلى مصـدر لنشر الإسلام وسـط الأمـة البريطانـيـة حتـى إن المركز الإسـلامى المصــرى ـ الرئيسـى ـ فى قلب العاصمة لـندن بدأ يستقبـل يومياً عشرات الشبـاب والشابات

الإنجليز الراغبين فى إشهار إسلامهم ، وأثناء وجودى مع الشيخ أحمد حسين الداعية المصرى الذى أوفده الأزهر لإمامة المسلمين فى المركز دخل علينا شاب هندى مسلم لا يتجاوز عمره ١٦ عاماً وبصحبته صديق له فى نفس المدرسة ، ومال الشاب الهندى على الشيخ بخجل وهمس فى أذنه بأن زميله يرغب فى إشهار إسلامه وبهدوء لم يبد الشيخ سعادته ورحب بالمراهق الإنجليزى ودخل معه فى حوار باللغة الإنجليزية البسيطة ، وتركز النقاش حول السبب الذى اضطر (مايكل) للمجىء إلى المركز وإشهار إسلامه على الرغم من عدم إلمامه بأية معلومات عن الإسلام باستثناء بعض الأفكار المشوهة التى يستمدها من وسائل الإعلام . لكن (مايكل) كان محددا واختصر على الشيخ الطريق وفاجأه بأنه لايعرف من يكون والده واعترفت له والدته بأنها كانت ترتبط بعلاقة صداقة مع شخص أيرلندى تعرفت عليه بالصدفة وأقاما علاقة عابرة كان هو ثمرتها وذهب كل إلى حال سبيله .

وعندما كان يتحدث إلى صديقه محمد الهندى بدأت الصداقة تتوثق بينهما ويتزاوران ولاحظ أن والده ووالدته ينظران إلى الكيان الأسرى بقدسية واحترام وبدأت رحلة المقارنة والبحث الذى وصل به إلى الرغبة فى إشهار إسلامه ، وهنا اقتنع الشيخ أنه أمام حالة خاصة غير كل الحالات التى تناقشه وتطلب منه الدخول فى الإسلام وبدأ الشيخ أحمد يشرح لمايكل أن الإسلام ليس فى حاجة إلى مزيد من الأفراد وأنه إذا ظل على دينه لن يحدث شىء فى الكون ولن يتعرض الإسلام إلى هزة عنيفة ، وأخذ يشرح له بعض الخطوط العامة التى تحكم المسلم .

ولاحظت أن الشيخ تعمد أن يضاعف من الصعوبات أمام الشاب الإنجليزى ومن حين لآخر يطلب منه أن يعيد التفكير مرة أخرى فى رغبته ، خاصة أن من يشهر إسلامه من الصعب أن يعود إلى دينه مرة أخرى حيث يتطلب ذلك إجراءات وعقوبات تصل إلى تطبيق حد الردة وهو القتل ، وشرح الشيخ السبب فى ذلك بعد أن لخص للشاب علاقة الدين الإسلامى بالأديان السماوية الأخرى ومكانة الأنبياء والرسل المبعوثين برسالات سماوية من عند الله لليهود والمسيحيين ، وأكد

له أن اكتمال العقيدة عند المسلم يتوقف على اعترافه واحترامه للأديان السماوية الأخرى .

وبعد أن استغرق الشيخ فى الشرح والتوضيح بلغة سهلة وميسرة فتح أحد الأدراج بمكتبه وأخرج عددا من المطبوعات التى تتحدث عن القواعد العامة للإسلام وأركانه والأساليب الواجب أن يتبعها كل مسلم وطلب من مايكل أن يقرأها ويعيد التفكير فى كل ما سمعه من شرح ثم يعطى نفسه الفرصة المناسبة بعدها إذا أحس برغبة فى الانضمام للإسلام دون أية ضغوط عليه أن يأتى إلى مكتبه الملحق بالمسجد فى المركز الإسلامى حتى يبدأ الخطوات الفعلية لإجراءات إشهار إسلامه .

وجلست مشدوها أراقب نظرات المراهق ووقع كلمات الشيخ على وجهه وردود أفعاله وأنا مشفق عليه خاصة أن الشيخ كان حريصا على عدم الاندفاع فى تبسيط الأمور ، وبعد أن خرج الشاب مايكل سألت الشيخ عن السبب فى وضع كل هذه المعوقات أمام الشاب ما يكل فرد قائلا: معظم البريطانيين لايعرفون الكثير عن الإسلام والبعض الآخر يرغب فى التجريب لأن الأديان والعقائد لدى البريطانيين لا تشغل حيزا كبيرا من حياتهم ، كما أننا لانفرح بأن يدخل الإسلام العشرات يوميا ثم يفاجأون بأنه دين يضع القيود على كل تصرفاتهم ، وبعد ذلك تكون النتيجة النهائية سلبية وتسىء إلى الإسلام ، لكن إذا أخذ الشخص الراغب فى إشهار إسلامه الفرصة الكافية والمعلومات الكاملة عن الإسلام وقواعده ونبذة عن تاريخه وحاضره يكون ملماً بالخطوط العريضة أولا ثم يأتى بعد ذلك موقفه إذا استمر على رغبته وأصر على المضى قدما ، بذلك نضمن أن هذا المنضم حديثا للإسلام سوف يضيف إليه ولن يسىء إلى الإسلام فى المستقبل لأنه سيكون دخل الإسلام عن قناعة عقلية كاملة وليس مجرد عاطفة أو نزوة عابرة .

ثم بدأ الشيخ يتلقى بعض الشكاوى الشفهية من المواطنين المسلمين المقيمين فى بريطانيا ومعظمها تتعلق بقضايا الميراث والطلاق والزواج والإنجاب وأيضا بعضها يدور حول مشاكل اجتماعية تنشأ بسبب إصرار بعض الأبناء على الاندماج الكامل

فى الحياة الغربية بما فيها من عادات تتعارض مع التقاليد والشرع الإسلامى .. وكان الشيخ يجيب عن كل التساؤلات بهدوء ووجهه ممتلئ بابتسامة رقيقة مشجعة وحانية.

والمركز الإسلامى الذى يقع فى وسط مدينة لندن يعد أقدم وأكبر المراكز الإسلامية فى أوروبا والعالم وترجع بداية إقامته إلى بداية حكم الملك فاروق عندما قرر محمود حسن باشا أول سفراء مصر لدى بريطانيا التنازل عن قصر كان يمتلكه فى مكان المركز الحالى وتبرع بالأرض لإقامة مسجد كبير عليها فى بداية الخمسينيات من القرن العشرين ، لكن السلطات البريطانية رفضت السماح له بتحقيق رغبته واشترطت موافقة الحكومة المصرية على إقامة كنيسة لإحدى الطوائف المسيحية التى كان يتبعها أعضاء الجالية الإنجليزية فى مصر خلال فترات الاحتلال واختارت منطقة التحرير فى وسط القاهرة . وبالفعل صدرت موافقة مصر على الطلب الإنجليزى وفى نفس الوقت بدأت عملية إنشاء المركز الإسلامى فى لندن وظل الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف يشرفان على شئون المركز وتزويده بالكتب والدعاة إلى أن جاء عصر الرئيس السادات ووقع على اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل وتعرضت مصر لمقاطعة شاملة من معظم الدول العربية والإسلامية وبدأت الدول الخليجية فى السعى إلى إقامة مراكز دينية منافسة فى لندن لسحب الريادة الدينية من مصر.

كانت الدول العربية والإسلامية تساهم فى دعم أنشطة وبرامج المركز وبعد كامب ديفيد أوقفت هذا الدعم وحولته إلى مراكز أخرى ، إلى أن شهدت فترة الثمانينيات انفراجا فى العلاقات المصرية الإسلامية وعاد التنسيق تدريجيا وتقدمت إحدى الدول النفطية بتبرع مالى ضخم لإعادة بناء وتطوير المركز بشرط أن تحظى بالإشراف على المركز بالمشاركة مع مصر، ونظرا لدعمها المالى المستمر أصبحت لها السيطرة الكاملة على المركز وتراجع الدور المصرى من الناحية النظرية ، فى الوقت نفسه مازال يتولى إلقاء خطبة الجمعة وإمامة المصلين دعاة مصريون يوفدهم الأزهر بالتعاون مع وزارة الأوقاف التى تتولى تسديد رواتبهم بالعملة الصعبة ، على الرغم

من أن المركز أصبح حاليا فى وضع مالى ممتاز حيث بلغت قيمة مدخرات المركز فى البنوك البريطانية أكثر من مليونى جنيه استرلينى . ويشهد العديد من أنواع الفساد الإدارى نتيجة بذخ المشرفين على إدارته فى ظل غياب الرقابة الكافية حيث كان السفير المصرى السابق فى بريطانيا محمد شاكر رئيسا لمجلس إدارته الذى يضم سفراء جميع الدول العربية والإسلامية الممثلين فى بريطانيا طبقا للائحة المنظمة لعمل المركز وتتطلب ضرورة انعقاد مجلس الإدارة مرة كل عام لمناقشة الميزانية وضبطها على اعتبار أن جميع الدول الإسلامية أصبحت تساهم باشتراك سنوى ثابت لدعم أنشطة المركز المتعددة . كما يقدم خدمات مجانية عديدة منها مدارس لتعليم اللغة العربية وفصول لتعليم أصول الدين والشريعة ، بالإضافة إلى تنظيم ندوات ومحاضرات لكبار العلماء والمقرئين وأنشطة أخرى تتكثف فى شهر رمضان .

والمركز عبارة عن طابقين الأول يضم المسجد الذى يؤدى فيه الرجال الصلاة والثانى مخصص للنساء بالإضافة إلى ملحقات «ميضة» حديثة ودورات مياه مزودة بالمياه الساخنة والباردة وداخل الحمامات تفاجأ بتوافر ورق كلينكس كما أن هناك مبانى فرعية عبارة عن مكاتب للدعاة ومقر لإقامتهم فضلا عن وجود مدرسة ملحقة بالمبنى الرئيسى للمركز تخصص لتدريس العلوم الإسلامية لأبناء وأفراد الجالية المقيمة فى لندن. ويعد مشهد صلاة الجمعة فى المركز من أبرز المشاهد المؤثرة على أى مسلم حيث تقف جموع المسلمين من أصول وجنسيات مختلفة تتباين لغاتهم وألوانهم وعاداتهم الجميع يقف صفا واحدا خلف الداعية المصرى بعد أن يلقى خطبة الجمعة مرتين الأولى باللغة العربية والمرة الثانية يعيدها باللغة الإنجليزية .

ويحاول الدعاة دائما الابتعاد عن القضايا السياسية والتركيز على الهموم الإسلامية والأمور الفقهية والشرعية وعلى الرغم من رهبة الجو فى المركز خاصة يوم الجمعة من كل أسبوع إلا أن الدعاة تنقصهم المرونة والشجاعة فى تناول القضايا فضلا عن إمكانية تقديم ترجمة فورية لموضوع الخطبة مباشرة حتى لايصاب المصلون بالملل خاصة أن الترجمة التى يقدمها الخطيب غالبا ما تكون بلغة إنجليزية

ركيكة بالنسبة للمواطنين الذين تعد الإنجليزية لغتهم الأم ، والمؤثر أيضا فى هذا المشهد الذى يتكرر أسبوعياً أن فى الصف الواحد تجد بجوارك من اليمين مسلما هنديا ومن الشمال مسلما بريطانيا وخلفك آخر سودانيا أو باكستانيا ، إنها تركيبة رائعة تعطى انطباعا متميزا عن الإسلام ومدى إمكانية أن يصبح عقيدة عالمية فى سهولة ويسر وبدون أية تعقيدات عرقية أو عنصرية .. حيث تذوب فى صحن الجامع كل الألوان والدماء وتتحول إلى نسيج إسلامى واحد.

والطريف أننى شاهدت قبل بداية صلاة الجمعة فتيات أجنبيات يرتدين الجينز يهرولن مسرعات إلى الطابق الثانى المخصص للنساء وهن يغطين رؤوسهن وشعورهن الذهبية بغطاء خفيف.. ثم يقفن بجوار بعض النسوة المنقبات القادمات من الخليج وباكستان ، وعرفت بعد ذلك أن هؤلاء الفتيات من البوسنة وإقليم كوسوفا المسلم بوسط أوروبا.. وتتحول صلاة الجمعة إلى مناسبة للتعارف وأيضا لعقد الصفقات وإقامة علاقات تجارية معروفة فى عالم البيزنس بين بعض المسلمين من مختلف الاتجاهات حيث يقف جميع المصلين بعد انتهاء الصلاة فى ساحة المركز الفسيحة لبعض الوقت ، وخلال هذه الدقائق يتم فيها حل العديد من المشكلات التى تواجه بعض المسلمين العاطلين عن العمل أو الذين يواجهون مشكلة فى الإقامة كما تتم فيها عمليات تعارف تكون مقدمة لعلاقات زواج ومصاهرة .. ومما يحسب للسلطات البريطانية أنها لا تتدخل من قريب أو بعيد فى شئون هذا الصرح ، كما أن الشرطة تتولى تأمين وحراسة المركز كل يوم جمعة أو فى أية مناسبة دينية تشهد اجتماعا للمسلمين لحمايتهم من التعرض لخطر المتطرفين إما من اليهود أو المتطرفين الإنجليز بالرغم من أن بريطانيا بلد يعتبر من أكثر الدول باعًا فى مجال التسامح الدينى.

ويعتبر المركز الإسلامى هو الممثل الرسمى لكافة المسلمين فى بريطانيا ولا تعترف السلطات الإنجليزية بأى مركز آخر سواه ، وبذلك عندما ترغب فى توجيه أية رسالة إلى الجالية المسلمة تكون من خلال هذا المركز ودائما يرسل كبار المسئولين وإدارة القصر الملكى برقيات تهنئة للمسلمين فى الأعياد والمناسبات الدينية على عنوان

المركز وتكلف الحكومة مندوبا لتقديم التهانى ومشاركة الجالية فى مناسباتها الرسمية والدينية فى المركز وأيضا توجه الدعوات للحفلات أو المناسبات الوطنية إلى العاملين والمشرفين عليه ، ويكفى أن (تونى بلير) زعيم حزب العمال ورئيس الوزراء البريطانى أصر على كسب أصوات الجالية الإسلامية فى بريطانيا أثناء ترشيحه فى الانتخابات التشريعية ، وقام بأكثر من زيارة إلى المركز الإسلامى . لكن المفاجأة أنه وجد فى انتظاره عددا من اللاجئين الإسلاميين فى بريطانيا يرفعون لافتات تطالبه بوقف أية مساعدات أو علاقات رسمية مع بلادهم التى لا تحترم الحريات وتتنكر لمبادئ حقوق الإنسان وتمارس الاضطهاد والمطاردة لكل المعارضين السياسيين. ومع ذلك كان بلير لطيفا ووعدهم بأن يستمر فى دعمهم وتوفير الضمانات الكفيلة بحمايتهم فى بريطانيا.. وبعد انتهاء صلاة الجمعة من كل أسبوع يبدأ نشاط جماعات الإسلام السياسى المقيمة فى لندن وتكون كل جماعة جاهزة بآلاف المنشورات المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التى تتضمن أساليب التعذيب والاضطهاد التى تمارسها سلطات بلادهم ضد أعضاء التنظيمات الدينية ، وأكثر المنظمات التى تتولى توزيع هذه المنشورات شباب تابع لجمعيات إسلامية جزائرية وتونسية ومصرية وسعودية وإيرانية وبحرينية وعراقية وأيضا مغربية . ويقف شباب يمثل هذه التنظيمات يصرخ فى المصلين وهو يمد يده بالمنشورات ويحثهم على التحرك لإنقاذ إخوانهم فى الإسلام من ظلم المعتقلات ووحشية الاضطهاد داخل بلادهم ، وهذا المشهد يتكرر أسبوعيا خارج أسوار المركز الإسلامى ، ولا يستطيع الشباب توزيع هذه المنشورات داخل المركز لأن المسئولين يرفضون ممارسة أى نشاط سياسى لأعضاء هذه الجماعات داخل أسوار المركز على الرغم من خوف هؤلاء الشباب الذين يتولون مهمة توزيع المنشورات من بطش أجهزة الأمن فى بلادهم التى لا تتراجع عن ملاحقتهم حتى فى لندن .

لكن الشباب المقيم فى بريطانيا يدرك جيدا أن القانون البريطانى الصارم يوفر لهم الحماية الكاملة من أى اعتداء ، ويكتفى عملاء أجهزة الأمن بالتقاط الصور للتعرف على شخصياتهم من خلال أجهزة تصوير دقيقة غير مرئية. وبجوار هؤلاء الشباب

يجلس أطفال صغار السن ونساء وبعض الشيوخ القادمين من البوسنة والهرسك يمارسون التسول بطريقة مثيرة للشفقة حيث يصعب عليهم الحديث باللغة العربية فالبعض منهم يكتفى بترديد بعض الكلمات العربية البسيطة والبعض الآخر يرفع لوحة مكتوبة بالإنجليزية بما يعنى أنه مسلم بوسنى لايجد قوت يومه. إنها دراما مركبة تختلط فيها السياسة بالدين والفقر بالغنى والحرية بالقمع وتتمزق فيها المشاعر ما بين اليأس والأمل وتتقارب فيها المساحة الفاصلة بين الخير والشر.

وكان ضروريا أن نشير هنا إلى قصة اعتناق ابنة المليونير البريطانى الشهير جولد سميث للإسلام بعد أن شغلت حكايتها الرأى العام البريطانى ، وعندما قررت «جمايما» الفتاة البريطانية المترفة الزواج من لاعب الكريكيت الباكستانى المسلم السابق عمران خان ، لم تكن تنتقل إلى حياة جديدة بزواجها من أشهر لاعب كريكيت فى العالم ، فحسب بل إنها دخلت حياة جديدة باعتناقها للدين الإسلامى. ومن المهم أن نستعرض المحطات الرئيسية فى رحلة جمايما الإيمانية التى قادتها إلى اعتناق الدين الإسلامى ، حيث تروى جمايما بنفسها رحلة انتقالها من مجتمع لندن الفاتن الساحر إلى مجتمع لاهور الصارم البسيط للاستقرار مع زوجها فى موطنه ووسط عائلته .

وفى أول حديث صحفى لها بعد الزواج نشرته الصحف البريطانية وبعض الصحف العربية. قالت: إن وسائل الإعلام البريطانية عندما علمت باعتناقى الدين الإسلامى قدمتنى على أننى فتاة ساذجة فى الحادية والعشرين من عمرها تتخذ قرارا متهوراً طائشا دون تفكير عميق فى تداعياته ، ولم تعط أى اعتبار لنتائج قرارها هذا. وزعموا أننى بهذا القرار أردت أن أدين أسلوب حياتى المترف ، غير آبهة بحياة البؤس والشقاء والعزلة التى سأعيشها بعد إسلامى وزواجى من عمران خان وانتقالى للحياة فى لاهور بباكستان.

كان ذلك رداً على الوصف غير الدقيق الذى قدمتها به وسائل الإعلام ، فإنها كانت ترى حقائق لم تدركها هذه الجهات الإعلامية وكانت تعيش نفحات روحانية

تجهلها وسائل الإعلام البريطانية ، لذلك لم تأبه بنت العشرين ربيعا بكل هذه الضجة الإعلامية التى أثارها هذا التغيير الكبير الذى طرأ على حياتها .

وتقول جمايما : يجب الاعتراف أن هذا الاختيار الصعب كان اختيارى الداخلى، ولكننى أعترف أيضا أننى استمتعت بكل تفاصيله . وأن الحقيقة غير تلك التى تحدثت عنها وسائل الإعلام البريطانية . ولكن الواقع عكس ذلك فإن قرارى باعتناق الإسلام جاء بعد تفكير ودراسة واقتناع ، فهو اختيارى. ولم يفرض علىّ أو يكرهنى عليه أحد ، بل على العكس من ذلك ، فإننى بمحض إرادتى اتخذت هذا القرار ولجأت إلى الله بحثا عن الخلاص الروحى . ولم يكن قرارا متسرعا ، بل تأنيت كثيرا قبل اتخاذه وبعد اقتناعى بالإسلام اعتنقته دون تردد . كما وجدت أن الدخول فى الإسلام سهل وسريع ، إذ على المرء أن ينطق بالشهادة ثم يعمل بها . فالشهادة هى « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » ، فهكذا يصبح الإنسان مسلما ، وعليه أن يلتزم بتعاليم الإسلام . وأن التحضيرات ليكون الإنسان مسلما كاملا ليست بالضرورة أن يتم ذلك بسرعة ، بل يمكنه التدرج فى فهم تعاليم الإسلام وتطبيقها ما دام قد توصل إلى حقيقة أن الله واحد وأن محمدا رسول الله .

وتقول جمايما : عندما قررت الدخول فى الإسلام بدأت فى التحضير لذلك منذ شهر يوليو (تموز) عام ١٩٩٤ ، بينما انتقالى الحقيقى للإسلام واعتناقه تم فى شهر فبراير (شباط) ١٩٩٥ قبل ثلاثة أشهر فقط من عقد النكاح فى باريس خلال شهر مايو عام ١٩٩٥.

وتضيف : أثناء تلك الفترة درست بعمق القرآن الكريم وأعمال بعض العلماء والمفكرين المسلمين من أمثال الشيخ محمد أسد والرئيس البوسنى على عزت بيجوفيتش ، مما أعطانى متسعاً من الوقت للتفكير والمراجعة قبل اتخاذى للقرار النهائى باعتناق الإسلام ، وقد بدأ ذلك بفضول ثقافى ، ثم تحول رويدا رويدا إلى إدراك بجوهر وحقيقة الدين الإسلامى .

وتضيف جمايما : إننى فى بيان صحافى أصدرته بعد أسبوع من اعتناقى للإسلام،

وأعلنت فيه الخبر ، حرصت على التأكيد بأن قرار اعتناقى للإسلام هو قرار شخصى توصلت إليه من خلال قناعاتى الشخصية . ولكن أهمية هذا التأكيد تجاهلته الصحف البريطانية فى تغطيتها لهذا الموضوع ولم يكن اعتناقى للإسلام كما افترض العديد من الناس ، أنه جاء كشرط لإتمام زواجى من عمران خان ، بل هو قرار اتخذته بمحض إرادتى.

وأشارت جمايما إلى أنه من الناحية الدينية فليس هناك ما يلزمها لاعتناق الإسلام لإكمال مراسم زواجها من عمران خان ، لأن القرآن الكريم أوضح صراحة أنه من الجائز للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، بمعنى آخر أنه يحل للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية . وقد أوضحت السنة النبوية المطهرة التى شرحت حياة رسول الله ﷺ أنه تزوج من مسيحية ويهودية، وإننى أعتقد أن العداء تجاه زواجى من عمران واعتناقى للإسلام جاء من سوء فهم وسائل الإعلام البريطانية لثقافة الغريب أو الأجنبى ودينه ، كما أن هناك هوة واسعة بين وجهة نظر الغرب للإسلام وبين حقيقة الإسلام ، لكن فى بعض الحالات هناك أيضا تمييز مهم بين الإسلام المعتمد مباشرة على القرآن الكريم والسنة النبوية وبين ممارسات بعض المجتمعات الإسلامية.

وتكمل جمايما. وخلال عام ١٩٩٤ أتيحت لى الفرصة أن أزور باكستان فى ثلاث مناسبات متفرقة ولاحظت حياة الأسرة المسلمة على الطبيعة هناك . وشعرت أننى أصبحت مؤهلة للحكم بنفسى على الدور الحقيقى والوظيفى للمرأة فى الدين الإسلامى . ولا أود أن أبدو هنا مجرد مدافعة عن موقف الإسلام من المرأة بل أشير إلى أن الإسلام ليس الدين الذى يستعبد أو يضطهد النساء ، أو يرفع الرجال إلى وضع صغار الطغاة فى بلادهم .

كما استطعت أن ألاحظ هذا الأمر لأول مرة عندما التقيت بأخوات زوجى عمران خان ، فهن متعلمات تعليما عاليا وصاحبات مهن ، فأخته الكبرى (روبينا) خريجة معهد لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية التابع لجامعة لندن وهى موظفة كبيرة فى منظمة الأمم المتحدة فى نيويورك . وأخته الأخرى (عليمة) حاصلة على

درجة الماجستير فى إدارة الأعمال وتدير عملا ناجحا ، و(عظمى) طبيبة جراحة ، مؤهلة تأهيلا عاليا ، تعمل فى مستشفى لاهور ، بينما (رانى) خريجة جامعة ومنسقة للعمل الخيرى التطوعى . فهؤلاء لا يمكن اعتبارهن نساء مقيدات بالسلاسل ، يسيطر عليهن أزواجهن ، على العكس فهن نساء ذوات شخصيات قوية وهن نساء مستقلات ، وفى الوقت نفسه ملتزمات التزاما عميقا بواجباتهن تجاه أسرهن ودينهن. هذا ما شهدته بأم عينى وراقبته نظريا وعمليا ، كيف أن الإسلام يعزز الفكرة الأساسية فى وحدة الأسرة دون اضطهاد أعضاء الأسرة للإناث .

وترى جمايما أنها تدرك إدراكا كاملا أن النساء فى بعض الأوقات يتم استغلالهن واضطهادهن فى بعض المجتمعات الإسلامية ، كما هو حادث فى بعض أجزاء العالم ، وأن الحكم على حرية المرأة من بعض المقالات التى تنشر فى الصحافة البريطانية ، يظهر وكأن المرأة انتهكت حقوقها الأساسية . وأنه من المعلوم جيدا أن مثل هذه الأشياء الزائفة لا توفر للمرأة السعادة الحقيقية وإننى بحديثى هذا لم أقصد بأى حال من الأحوال أن أنتقص من ثقافة العالم الغربى حيث ولدت ونشأت ، ولكن أردت أن أقول الحقيقة المجردة من الغرض والهوى . وإننى بعد إسلامى كنت أكثر من راغبة فى الامتناع عن السعادة الزائلة الناشئة من الخمر والأندية الليلية. أما فيما يخص الملابس فبدأت ألبس الأزياء المحتشمة (بلوزة وبنطلون) وهى التى ترتديها معظم النساء الباكستانيات ، وهى أكثر أناقة وأنوثة من التى كانت فى دولاب ملابسى قبل اعتناقى الإسلام.

وحول توقعاتها عن المستقبل تقول فى النهاية يبدو أنه غير ذى جدوى أن أتحدث عن توقعات لفرص نجاح زواجى من عمران خان . فالزواج كما يقول والد عمران «مغامرة» ولكن عندما أرى حدوث زواج فى مجتمع يقوم على حياة الأسرة ووحدتها ونسبة الطلاق ضئيلة مقارنة بنسبة الطلاق فى المجتمعات الأوروبية أو الأمريكية ، فلا أحسب أن فرصة نجاح زواجى من عمران خان ستكون أقل فى حالة الزواج من رجل غربى، ففى النهاية زواجى من عمران حتى الآن يمكن أن أقول أنه مغامرة مضمونة . إننى كنت أدرك المهمة الصعبة الملقاة على عاتقى عندما تزوجت

من عمران خان والمتمثلة فى التكيف مع حياتى الجديدة فى ظل الاختلاف الثقافى الجذرى ؛ ولكن مع حب زوجي وتشجيع أسرته استطعت أن أواجه كل التحديات ، وشعرت بأن الجميع يتمنون لى التوفيق ، بينما أقدر مشاعر الذين كانوا يتخوفون من حدوث صدمة ثقافية لى تؤدى إلى اضطراب نفسى وعائلى ولكن بحمد الله وتوفيقه استطعت أن أتكيف مع حياتى دون اضطرابات نفسية أو عائلية وأحسست بعد اعتناق الدين الإسلامى معنى السعادة الحقيقية . وانتهى حديث جمايما الصحفى الذى أثار ضجة ضخمة فى الأوساط البريطانية . ومازالت هذه الفتاة تثير شهية العديد من الصحف حتى فى إسرائيل نفسها. ويحاول كل الحاقدين التشكيك فى إيمانها بالإسلام ووصل الأمر لدى البعض إلى حد وصفها بالعمالة لصالح الموساد الإسرائيلى بهدف اختراق المجتمع الباكستانى المسلم!

ظاهرة يوسف..!

فى عام ١٩٧٧ توجه المطرب البريطانى الشهير «كات ستيفن» إلى المركز الإسلامى فى «ريجنت بارك» ليعلن عن رغبته الأكيدة فى اعتناق الدين الإسلامى، وقد سبق ذهابه للمسجد رحلة طويلة ، بحث خلالها عن حقيقة الإيمان. قرأ فى الكتب السماوية التوراة والإنجيل وعرج إلى عدد من العقائد الأخرى ، ويوم حصوله على نسخة من القرآن الكريم ، كانت بداية رحلته مع الإسلام ونهاية رحلته فى عالم الغناء والشهرة والمال. بدأ «يوسف إسلام» وهو الاسم الذى اختاره بعد اعتناقه الإسلام السير بخطى سريعة وثابتة فى طريق الهداية وأصبح واحدا من أشهر الدعاة إلى الله فى بريطانيا. وعندما أنجب طفلته الأولى «حسنة» فكر فى أمر تعليمها القرآن فاختار التعليم هدفاً لحياته فأنشأ أول مدرسة إسلامية أسوة بمدارس أصحاب الديانات الأخرى ، وبعد صراع مع وزارة التعليم البريطانية حصل على دعم مالى، وتوسعت مدرسته وزاد طلابها ووصلوا إلى السن التى تسمح لهم بالترحال والتجول فى عالم الإيمان عن قناعة.

ويقول فـى أحد حواراته الصحـفية النادرة إن الـهدف من إقامة هذه المدرسة هو الحفاظ عـلى الهوية الإسـلامية فى بريـطانيا وتطويـر وسائل تعليم أبناء المسـلمين. وليس من الممكن الحفاظ على الهوية بإقامة المساجد فقط أو بتعليم أبنائنا القراءة هذا بالطبع لـيس كافياً ، إن هدف التعـليم يجب أن يكون أســاسه التعـاليم الإســلامية السليمـة وهذا هو الدور الذى ستؤديه المـدارس الإسلامية ، ولقد كانت لـنا تأثيرات إيجـابية عـلى المدارس غـير الإسلامـية لأن وجـودنا دفعـهم إلى تـقديم الأكثـر إلى التلامـيذ المسلمـين فى مدارسهـم ، وقد أقمنا دورات تـدريبية للـمدرسين المسـلمين بالـتعاون مع الحـكومة بعـد أن أعيد انتـخابى رئـيسا لرابـطة المدارس الإسلامـية . . ويضيف:

«مهمـتنا هى أن نتـمكن من مسـاعدة كل هؤلاء الـذين يريدون تأسـيس مدارس إسلامية وتقديم خبراتنا لهم ، والمشـاركة فى تدريب المدرسين وإعداد المنهج وإعداد نظـام العـمل وتقـديم أية مـشورة يمكـننا تـقديمـها.. وهذا هـو هدف اتحـاد المدارس الإسلامية وإذا زرت موقعنا عـلى شبكة الإنترنت ، يمكنك مشاهدة مـاذا نفعله، كما أننا سنعقـد سلسلة من المؤتمرات بمشاركة مـجموعة من العلماء الدولـيين من جميع أنحـاء العالم ودعـوتهم إلى بـريطانـيا للمـشاركة فـى المؤتمرات التـى نعقدهـا بمدن جلاسكـو ومانشسـتر ولندن ، وهذا هـو جزء من إظهار الـهدف الجديد لـلمدارس الإسلامية حول العالم بحيث يمكن للناس الاستفادة من رسالتها ، وتعلم الحكومة أن المسلـمين فى بريـطانيا أصبحوا واقعـاً ملموسـاً فى الحياة الـبريطانـية ويتزايـد عدد المسلمين باطراد فى هذا البلد».

ويخطط يوسف إسلام فى المستقبل لإنشاء كلية البنين ويقول عنها إنها واحدة من أفـضـل النماذج الـتى أعددناها . وأن المـزج بين المنهـج الأكاديمى والإسلامـى تجربة ممتـازة ، وروح المدرسـين والطـلبـة وأولياء الأمـور تميـز هذه المـدرسة عـن المدارس الأخرى ، لأننا تعلمنا من خبرات الآخرين واستفدنا من هذه الخبرات ، وإن مانتوقعه من هذه المدرسة سيكون عـظيماً بإذن الله ، ولا سيما فى مجال النـتائج حيث حصل بعض التلاميـذ على درجة الامتياز فى امتحان الـلغة العربية وحصل جميـع التلاميذ

الآخرين على درجة جيد جداً فى اللغة العربية وقد دخلوا الامتحان قبل موعده بسنتين ، أما فيما يتعلق بالتطور المحلى والدولى والتفاعل مع الأحداث العالمية فنحن نتولى تنظيم هذه الأمور.

وعن قضية تحريم الإسلام للموسيقى يرى يوسف إسلام أنها مازالت من الأمور الشائكة ، لأنه ليس من الواضح فى القرآن عما إذا كانت الموسيقى محرمة أو مسموحاً بها حيث يقول:

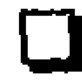
«من وجهة نظرى ومن واقع حياتى كموسيقى أن الأمر السيىء هو الهدف المقصود من استخدام الموسيقى، ولا يعنى ذلك أن الموسيقى سيئة لأنها ضرورية للمجتمع ، ولكن كيف تخدم الموسيقى العمل الإسلامى؟ هذا هو السؤال ، وبالفعل أسهم طلاب الكلية والمدرسة الإسلامية فى التسجيلات الجديدة بالغناء فى ألبوم «من أجل الله» وجاء أداؤهم ممتعاً للغاية.

ولدينا شركة إعلامية نطلق عليها اسم «ماونتين أوف لايت» ونصدر عبرها أقراصا مدمجة وكتباً وجدت صدى كبيراً لدى المسلمين وغير المسلمين والكثير من الأسر فى الولايات المتحدة وباقى دول العالم وهى «أدعية خاتم الأنبياء» و«المرشد إلى المسجد» و«مرحباً بكم فى ظلال القرآن» و«المنهج الدراسى» و«حياة آخر الأنبياء». وسنصدر قريبا عدة كتب للأطفال: عن «المسرح الإسلامى» كما سنقدم بعض الأعمال فى قالب مسرحى يعلم الأطفال التاريخ الإسلامى وسيقوم طلاب المدارس بتمثيل تلك الأعمال.

ومن المثير فى الأمر أن شركات التسجيل غير الإسلامية تعيد إصدار تسجيلاتى القديمة وهذا يدفع بالعديد من الصحافيين إلى طلب إجراء مقابلات صحافية معى، فهم يريدون معرفة : أين أنا ؟ وماذا فعلت؟ كما لو كنت قادماً من القمر ولكنهم يعرفون أننى على الأرض. أى شخص يريد معرفة معلومات عنى عليه أن يستمع لأغنياتى وأشعارى سيعرف بالضبط أننى فى مكان ما. وفى الواقع إذا استمعت إلى أعمال بعض الفنانين الآخرين فى السبعينيات فستجد نفس الفكرة بأن الأمور تتغير، وهو أمر لافت للنظر لأنه بعد السبعينيات أصبح الإسلام قوياً. وإذا استمع

شخص مسلـم لأغنياتى القديمة يـجب عليه أن يحمد الـله على أنه وجهنى لـلطريق السليم.

وفى أثنـاء اشتعال انتفـاضة الأقصى فى الأراضى المحـتلة فوجئت أجـهزة الأمن الإسرائيلية بالمـطرب البريطانى يوسف إسلام يصل إلى مـطار «بن جوريون» فى تل أبيب وتم اعتقـاله مباشرة ومنعه من الـدخول وزعمت السلطات الأمـنية أن المطرب المسلم كان ينوى تقديم المساعدات المالية والدعـم المعنوى للشعب الفلسطينى خلال مواجـهته للآلـة العسكـرية الظـالمة ، ولـم تهـدأ الصحـف الإسرائيلـية إلا بعد إبـعاد «يوسف إسلام» ، ورغم استجابته للقرار الإسرائيلى بالعودة إلى بريطانيا مرة أخرى لكن جهاز المخابرات الإسرائيلى «الموساد» وضع معظم تحركات واتصالات المطرب البريطانى تحت المراقبة الدقيقة!



وبعيـداً عن قصة المـطرب يوسف إسـلام فإن شوارع العـاصمة البـريطانيـة لندن تزدحم بـعدة ملايين من العـرب والمسلمين الذيـن أقاموا لأنفسـهم تجمعات مغـلقة تعيش فى شبه عزلـة عن باقى المجتمع البريطاني، حيث مازال بعـضهم ينظر بخوف للحـياة الغربيـة ، وأصبح الزعم بـالاضطهاد السيـاسى والدينى هـو البوابة الملـكية للإقامة الناعـمة والميسرة فى بريطانيا ، حتـى استغلتها بعض المنظمـات وحولتها إلى تجارة تجمع من خلالها ملايين الدولارات.

وتعيش فى بريطانيا جاليات إسلامية قوية يصل تعدادها إلى أكثر من ثلاثة ملايين مسلم ، بعضهم جاء إليها من الهنـد ودول شرق آسيا منذ عشرات السنين ، وعملوا فى التجارة وتمكنوا من تكوين ثروات ضخمة ، ويقـلقهم مستقبل أجيالهم بسبب ما توفره الحيـاة البريطانية مـن حريات شخصيـة. ولجأوا إلى تكوين روابط ومـنظمات هدفـها تـوفيـر الجو الأخـلاقى لأبـنائـهم ، وسـط مجـتمـع لا توجـد به أية حدود للأخلاقـيات ، ولـم تجد تلـك الجاليات التـى لا تتحدث اللـغة العربيـة.. ولا تعرف الكـثير من عـلوم الفقـه والشريعـة .. سوى المجموعـات القادمة مـن الدول العربـية الإسـلامـية . فأغدقـوا عليـها الأموال لسد الـفراغ الروحـى والدينى الـذى يواجه أجيالهم ، خاصة أن الصلاة تؤدى باللغة العربية التى لا يجيدون الحديث بها ، فضلا

عن كونها لغة القرآن.. وبذلك بدأت تنشأ علاقات تعاون واندماج بين فئة مسلمى آسيا الأثرياء والنازحين العرب الذين يبحثون عن دور فى المجتمع البريطاني، وبدأت عناصر ثرية من مسلمي بريطانيا الآسيويين والباكستانيين ينضمون إلى تنظيمات إسلامية بعضها يكتفى بالدعوة ، والبعض الآخر لا يفرق بين السياسة والدين.

وعلى سبيل المثال فإن حركة الإخوان المسلمين متواجده فى بريطانيا وتتولى عناصر من مسلمى آسيا الأثرياء توفير الدعم المالى اللازم لأنشطتها، لكن القوى الفاعلة والنشطة دائما من أبناء الجالية العربية المهاجرة ، وعلى الرغم من الخلافات المنهجية بين معظم أعضاء هذه التنظيمات إلا أنها تلتقى فى أهداف واحدة ، وهى العمل على جمع الأموال والتبرعات وإرسالها إلى منظمات تابعة لها تعمل داخل الدول الإسلامية المختلفة ، وجزء من هذه الأموال يصل بطريقة غير مباشرة إلى أيدى الجماعات الإرهابية التى تمارس العنف.

وقد حاول عدد من قادة الحركة الإسلامية فى بريطانيا دراسة إنشاء قناة تليفزيونية فضائية إسلامية ، وهى أول مرة يتجه فيها نشاط الجالية الإسلامية إلى استخدام الأقمار الصناعية فى البث التليفزيونى لنشر الفكر الإسلامى، إذ اتفق ٢٧ من كبار أثرياء الإخوان المسلمين المقيمين فى بريطانيا على إنشاء هذه القناة برأس مال يصل إلى ٥٠ مليون دولار ويشارك اثنان من المصريين كمؤسسين فى هذه الشركة بعد أن أعلن كل واحد منهما التبرع بمليون دولار، بجانب نحو خمسة أثرياء عرب والباقون من الآسيويين ، وتم تكليف رجل أعمال مصرى يحمل الجنسية البريطانية متخصص فى تأسيس الشركات التى تبث عبر قنوات فضائية بأن يتولى وضع دراسة الجدوى للمشروع ، خاصة أنه سبق أن شارك فى تأسيس عدد من القنوات الفضائية التى يمتلكها أثرياء عرب ، وتبث حالياً من لندن.

كما كلف أصحاب الفكرة رجل الأعمال المسئول عن التأسيس بفتح قنوات اتصال مع الحكومة البريطانية للسماح ببث القناة من لندن ، لكن المسئولين البريطانيين وضعوا شروطا مستحيلة للموافقة ، من بينها الاطلاع على مضمون

عمل القناة والمشاركة في رسم خطط تشغيلها، مما أزعج المؤسسين وقرروا فتح حوار مع دول أوروبية أخرى منها إيطاليا وفرنسا بهدف الوصول إلى عرض يسمح باستقلال عمل القناة الفضائية الإسلامية ، وعدم استغلالها من الحكومات الأجنبية.



ولم تعد بريطانيا مركزاً ووكراً للإرهابيين الصادرة ضدهم أحكام بالإعدام فقط بل فوجئ العاملون بالسفارة المصرية في أحد الأيام بالشرطة البريطانية تبلغهم بأن مجموعة من الأقباط المصريين المقيمين هنا يطلقون على أنفسهم ، «الهيئة القبطية البريطانية» ، تستعد لتنظيم مظاهرة أمام مبنى السفارة المصرية وكان وقع المفاجأة مؤلماً على الدبلوماسيين المصريين في لندن عندما تلقوا منشوراً مكتوباً باللغة الإنجليزية يدعي أن الحكومة المصرية أصدرت قرارات تقضي بتقييد بناء الكنائس الجديدة ، أو حتى ترميم وإصلاح الكنائس القديمة ، في نفس الوقت الذي كانت فيه الحكومة تعطي تسهيلات للأقباط في هذا المجال وتلغي بعض القوانين التي كانت في السابق تمنع ترميم وإصلاح الكنائس إلا بعد الحصول على موافقة رئيس الجمهورية.. ولم يكن أمام مسئولي السفارة سوى الاستعداد والالتزام بتعليمات أجهزة الأمن البريطانية ، خاصة أنها المرة الأولى التي يتم فيها تنظيم مظاهرة للأقباط المصريين أمام السفارة المصرية في لندن ، ويتزعم هذه المنظمة طبيب أطفال قبطي اسمه عماد سليم بولس، عمره ٥٥ عاما يقيم حاليا في مدينة تبعد عن لندن حوالي ١٠٠ كيلومتر ، غادر مصر في بداية السبعينيات ، وعمل فترة طويلة في جنوب السودان ، وحصل على الجنسية البريطانية قبل عدة أعوام وهو لا يجيد الحديث باللغة العربية.

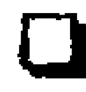
ولم ينجح عماد بولس في تجميع سوى خمسة أقباط يقيمون معه في نفس المنطقة ، وبذلك طلب من السلطات البريطانية تأجيل المظاهرة إلى موعد آخر وفشل مرة أخرى في تجميع المتظاهرين ، ثم أبلغ الأمن البريطاني بإلغاء المظاهرة نهائياً.

وتعد منظمة عماد بولس القبطية هي الأولى من نوعها في بريطانيا على الرغم

من التـواجد القبطي المـكثف في بريطـانيا ؛ إلا أن معظمـهم من الأطباء والمهـندسين الذين لا يملكون الوقت للقيام بمثل هذه الأعمـال كما أنهم من المعتدلين دينياً وفكريا على غرار جراح القلب العـالمي المقيم في بريطانيا د. مجدي يـعقوب. وكما قال لي الأب بشاي ممثل البابا شـنودة ، وراعي الكـنائس القبـطية في لنـدن التي يوجـد بها وحدها ثلاث كنائس كبرى تشرف عليها الكاتـدرائية القبطية بالعبـاسية.. بالإضافة إلى معهد لدراسة اللاهوت يـوفر الدراسة المسيحية لأبناء الجالية القبـطية المقيمين في بريطانيا.

وأبلغنـي الأب بشاي أنـه فوجـئ مـثل باقـي الأقبــاط في مصـر وبريطانـيا بهذا التنظيم ، ولم يسبق أي تعارف ، أو اتصال مع زعيم هذا التنظيم من قبل، وبناء على ذلك أصدرت الكنيسة القبـطية في بريطانيا بياناً باللغتين العـربية والإنجليزية أنكرت فيه صـلة هذا التنظـيم بالكنيسـة ، ورفضها لهـذا الأسلوب في حل القـضايا ، لأن علاقة الدولة بقيـادة الكنيسة جيدة ، وهناك حوار مفتـوح وصريح بين الطرفين ، وتم توزيع البيان على الصحف ووسائل الإعلام في لندن.

وأضاف لقد حاولت الاتصال مباشرة بزعيم التنظيم المزعوم ، ولكنه غير موجود طوال الوقت ، وتركـت له أكثر من رسالة علـى «الأنسر ماشين» حتى أتبـين منه أية معلومات عن نشاطه أو حتى للتعرف عليه ، لكني لم أتلق أي رد على رسالتي .



نعود لفئة المتطرفين الإسلاميين الذين نجحوا فـي إقناع السلطات البريطانية بأنهم مطاردون فكريـاً وسياسياً من حكومـاتهم ، ويرجع الفضل فـي ذلك أولاً إلى الدول العربية الـتي صنعت منهم زعامات وهـمية، وأصدرت ضدهم أحكاما متسرعة في محاكمات استثنائية لا يعترف بها القانون البريطاني، هؤلاء الشباب المتهم بالإرهاب والتطرف بمجرد دخوله لندن وفي المطار يتـقدم بطلب حق اللجوء ، بعد أن يكون قد أجرى اتصالات مسبـقاً مع أحد المحامين .. وعن طريق بعض الجمـعيات الإسلامية يتم الاتفاق مـع أعضاء في جمعية حقوق الإنـسان البريطانية ويمدهم طـالب اللجوء بكل ما نشر عنه في صحف بلاده . بـالإضافة إلى الأحكام الصادرة ضده ، ووثائق

أخرى تثبت براءته من تلك التهم ، وعن طريق ضغوط المحامى وعضو جمعية حقوق الإنسان توافق السلطات على دخوله بعد التحفظ عليه لمدة تصل إلى أربعة أشهر لإجراء تحقيق روتينى حول ظروفه ، بهدف التأكد من شخصيته عن طريق السفارة البريطانية فى بلد طالب اللجوء ، وإذا تم التأكد من أنه بالفعل صدرت ضده أحكام استثنائية فى قضايا تتعلق بالمعارضة السياسية أو الفكرية أو الدينية يتم منحه حق اللجوء طبقا للقانون البريطانى، حيث لدى إنجلترا تقاليد عريقة تحاول الحفاظ عليها باعتبارها من أولى الدول التى وضعت أسس حرية الرأى والفكر منذ بداية القرن السابع عشر.

وبناء على حق اللجوء تقوم الحكومة البريطانية بتوفير مسكن مناسب مع مراعاة الوضع الأسرى والاجتماعى لكل لاجئ كما تتولى دفع راتب أسبوعى يتراوح ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ جنيه استرلينى فضلا عن دفع مبلغ مماثل لزوجته ومبالغ لكل ابن حسب عمره ، بالإضافة إلى تسديد كافة مصاريف تعليم أبناء اللاجئين بالإضافة إلى توفير العلاج المجانى.

وعندما وجدت الحكومة البريطانية نفسها فى مأزق بعد تزايد أعداد اللاجئين من مختلف أنحاء العالم اضطرت إلى إقامة عقارات ضخمة اختارت مواقعها فى أحياء متميزة بوسط لندن وخصصتها لإقامة اللاجئين من مختلف الجنسيات حتى تضمن اختلاط مجتمع اللاجئين الذين يأتى معظمهم من دول العالم الثالث بالاندماج مع المجتمعات الراقية لتوفر لهم فرصة اكتساب التقاليد الإنجليزية فى الحياة اليومية وتحول دون إنشاء مجتمعات مغلقة تصبح مصدراً للجريمة والإزعاج.

هذه الخطوات قام بها ياسر السرى المتهم بمحاولة اغتيال الدكتور عاطف صدقى رئيس الوزراء الأسبق ، والذى صدر ضده حكم بالإعدام ، لكنه نجح فى الهروب عبر منفذ نويبع البحرى ، واتجه إلى اليمن وعمل أخصائيا اجتماعيا، وبعد أن بدأت السلطات اليمنية فى مطاردة الإرهابيين انتقل إلى السودان وظل بها فترة القطيعة السياسية بين مصر والسودان بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك فى أديس أبابا، ولكن السرى استطاع الحصول على تأشيرة دخول إلى بريطانيا بطريقة عادية. وأثبت

على جواز سفره أنه ينوى السفر بهدف السياحة ، وأكد لمسئولى السفارة البريطانية فى الخرطوم امتلاكه أكثر من عشرة آلاف دولار.

وبمجرد وصوله لمطار هيثرو تقدم بطلب حق اللجوء السياسى ، وكان قد نجح فى إعداد الاتصالات الكافية مع بعض الإسلاميين المقيمين فى لندن حيث اتفقوا مع أحد المحامين وجمعية لحقوق الإنسان ، وتم اتخاذ الإجراءات القانونية معه.

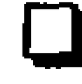
وأدت مطالبة مصر بتسليمه إلى تأخر حصوله على حق اللجوء لفترات طويلة ، على الرغم من تحمل السلطات البريطانية مسئولية تدبير مسكنه الذى يقيم به حالياً مع أطفاله الخمسة وزوجته ، وقام السرى بتدبير مبلغ مالى لإنشاء مكتب صغير يجرى من خلاله إرسال البيانات اليومية لوسائل الإعلام العربية فى لندن والخارج أيضا.

ولم تكتف لندن بإيواء المتهمين فى قضايا إرهابية ، حيث كانت مفاجأة عندما شاهدت بعد صلاة الجمعة كلا من أشرف السعد صاحب شركة السعد للاستثمارات الهارب من تنفيذ عشرات الأحكام القضائية ، حيث وقف فى ساحة المركز الإسلامى بلندن بجوار ياسر السرى ، ودار بينهما حديث ودى شارك فيه بعض المصريين الحاصلين على حق اللجوء ، وأيضا شباب من جنسيات عربية مختلفة.

ووقفت عن بعد أرقب ما يجرى فى هذا اللقاء الغريب ، خاصة أن وجود السعد فى بريطانيا أمر مثير ووقوفه مع السرى أكثر إثارة ، واقتربت منه ، وقابلنى بابتساماته الباهتة ، بينما انصرف السرى مسرعاً من المكان وكأنه وقع فى مأزق ، وتصرف السعد معى بهستيرية وقدم لى «بيزنيس كارد» مكتوبا عليه «السعد للاستثمار» وكتب بخط يده رقم تليفونه الخاص فى لندن ، ثم تبين أنه تليفون وهمى، وأبلغنى أنه سيتوجه إلى باريس فى زيارة عمل سريعة لمدة يوم ونلتقى فى اليوم التالى ، واعتقدت أن هناك خطأ غير مقصود .

الطريف أن أشرف السعد أبرز نجوم شركات توظيف الأموال الذى استولى على أموال المودعين وهرب للخارج يقيم فى قصر بأحد أحياء لندن ويدير أعمالا تقدر

قيمتها بأكثر من ٥٠ مليون جنيه استرليني بالإضافة إلى أعماله وقصره في باريس ، والتطور اللافت للنظر الآن أن أشرف السعد يحمل حاليا جواز سفر تابعاً لإحدى دول الخليج ، وتقدم بطلب للسلطات البريطانية للحصول على حق اللجوء السياسي مدعياً أن الحكومة المصرية أوقفت نشاطه لأسباب سياسية.



في لندن من الصعب الكشف عن الأنشطة السرية لعمل الجماعات الإسلامية المتطرفة ، لأن الجو العام الذي توفره القوانين السبريطانية يسمح بكل شيء ما عدا اللجوء إلى استخدام العنف أو السلاح ، لأن الشرطة البريطانية نفسها غير مصرح لها بحمل الأسلحة ، على الرغم من توافرها في مخازن أقسام الشرطة ، لكنها لا تخرج إلا عند الضرورة القصوى ولا يستغرق وصول السلاح إلى مسرح أية جريمة سوى سبع دقائق من وقوعها أو الإبلاغ عنها.

ولذلك يعرف الحاصلون على حق اللجوء القوانين المنظمة ويلتزمون بها ، لأن ارتكاب أي خطأ بسيط يعني خروجهم من جنة اللجوء ، وتسليمهم لحكومات بلادهم.

ومن حين لآخر تظهر أشكال مختلفة للصراع بين المجموعات السياسية والدينية المقيمة في لندن ، وتتخذ صورة بيانات ضد بعضها البعض ويتهمون الآخرين بالفساد في بعض الأحيان.. ودخل على خط الصراع بعض مشايخ النفط الذين يحرص معظمهم على امتلاك شقق وفيللات في لندن محاولين استقطاب هؤلاء الحاصلين على اللجوء السياسي بهدف استغلالهم للضغط على بعض الحكومات العربية الأخرى من باب الابتزاز السياسي.

من جانبها تحرص السفارة المصرية على الابتعاد عن كل ما يدور على الساحة السياسية التي يصنعها اللاجئون السياسيون في لندن حرصاً على عدم إساءة فهم السلطات البريطانية خاصة بعد أن ادعى بعض اللاجئين في رسالة إلى المكتب المسئول عن اللاجئين أن السفارة المصرية أحضرت عددا من التوابيت الخشبية تمهيدا للقبض عليهم وترحيلهم إلى مصر.

لكن عادل الجزار سفير مصر فى لندن ضحك ساخراً من ادعاءاتهم وأبلغنى فى حوار جرى بمكتبه أن هناك اتصالات مباشرة مستمرة بين أجهزة الأمن المصرية والبريطانية على أعلى المستويات ، لكن بالنسبة للسفارة فإن لها عملا رسمياً شرعياً لايمكن أن تنحرف عنه على الإطلاق ، ونحن علينا أن نقدم للسلطات البريطانية الأدلة والأحكام الصادرة ضد العناصر الإرهابية ، ونترك لهم تقدير المواقف ، خاصة أن القوانين البريطانية الحالية قديمة ، ويجرى العمل على تعديلها حتى يمكن تقنين عمليات منح حق اللجوء ، فضلا عن إمكانية تسليم من يثبت أنه قام بعمليات إرهابية أو خطط لها أو جمع الأموال لتنفيذها خارج بريطانيا.

وأضاف السفير إن مصر تحترم القوانين البريطانية وتحاول عن طريق المفاوضات المستمرة بين الجانبين التوصل إلى حل لهذه القضية ، حيث أدى اختلاف القوانين المصرية مع القوانين البريطانية إلى عدم حسم هذه المشكلة ، خاصة أن فى لندن قوانين لا تعترف بها القوانين المصرية ، وتتعارض معها ، منها قوانين إباحة الشذوذ الجنسى، فالقانون المصرى يحرمها ويحدد لها عقوبات ، وهكذا فالمجتمعات الأوروبية تنظر للحريات على أنها قضية مطلقة بينما معظم دول العالم الثالث تضع لها ضوابط لتنظيمها، وهذه الخلافات يجرى التفاوض بشأنها بين أجهزة الأمن فى البلدين بعيداً عن عمل السفارة الدبلوماسى الذى يلتزم بالخط الذى تسير عليه الحكومة فى عدم فتح أى مجال للحوار أو المناقشة مع المتهمين بالقتل والإرهاب.

انتهى حديث السفير المصرى فى لندن.

وقبل وصولى إلى بريطانيا كانت لا تزال آثار مذبحة وادى الملوك فى الأقصر تدوى فى الغرب خاصة أنها المرة الأولى التى يتعرض فيها أكثر من ٦٠ سائحا أجنبيا للقتل الجماعى على أيدى مجموعة مسلحة مجهولة لاتعرف أجهزة الأمن هويتها الدينية أو السياسية. وكانت مصر قد وجهت الاتهامات إلى بعض العناصر الإرهابية المقيمة فى الخارج بأنها وراء التخطيط والتمويل لتنفيذ هذه المذبحة التى أصابت قطاع السياحة المصرية فى مقتل.

وانتشرت شائعات فى لندن تفيد بأن المخابرات المصرية أعدت العدة لصيد كافة

العناصر بطريقة سرية وشحنها إلى مصر بعد إخفائها داخل صناديق خشبية تابعة للسفارة وعلى الرغم من سذاجة هذه الشائعات إلا أن بعض العناصر المتهمة بالإرهاب تعاملت معها بجدية ، ولذلك عندما اتصلت من شارع اكسفورد فى وسط لندن مع ياسر السرى المحكوم عليه بالإعدام من محكمة عسكرية بسبب تورطه فى محاولة اغتيال د. عاطف صدقى رئيس الوزراء الأسبق كان رده أن نتحاور تليفونياً، واستمرت محاولاتى لإقناعه أكثر من ساعة كاملة ، وكان صريحاً عندما أعلن عن تخوفه من أن أكون ضابطاً فى المخابرات المصرية ومتستراً تحت اسم صحفى فى روزاليوسف.

لكنى أثبت له عدم صدق هذه الأحاسيس ونجحت فى إقناعه بعقد اللقاء الذى اقترح أن يكون بعد صلاة الجمعة فى المركز الإسلامى حتى يضمن علانية اللقاء ، ودارت بيننا مناقشات طويلة حول دور الجماعات الإسلامية خلال المرحلة الحالية ومدى إمكانية وصولها إلى السلطة فى بعض الدول العربية ووسائل تحقيق هذه الأهداف ، وكيفية التعامل مع مؤسسات الدولة فى حالة تطبيق الشريعة الإسلامية خاصة فى دولة عريقة حضارياً مثل مصر. وتوصلت إلى العديد من الحقائق حول ضيق أفق هؤلاء الشباب وعدم قدرتهم على استيعاب الحضارة الغربية التى يستمتعون بها فى لندن ، خاصة لو عرفنا أن ياسر السرى شاب عمره لا يزيد على ٣٨ عاما ومتزوج وله خمسة أطفال وكان يعمل (بائع سمك) فى مدينة السويس حتى تعرف على بعض قيادات الإخوان ، وهو مثل باقى الشباب الطموح كان يحمل شهادة متوسطة ثم درس ونجح فى الحصول على ليسانس الخدمة الاجتماعية وخبرته ورصيده السياسى والثقافى محدود ، أما بالنسبة للدور الذى يحاول أن يمارسه فى لندن ، فقد ظل يسعى إلى إنشاء مدرسة لتعليم أبناء الجالية المسلمة اللغة العربية والفقه والشريعة ، كما أسس مكتبا أطلق عليه «المرصد الإعلامى» يعاونه فيه عدد من الشباب المغاربة والتونسيين ، ويتولى المرصد إجراء الاتصالات بالصحف ووسائل الإعلام العربية والأجنبية للتعليق على الأحداث وإصدار بيانات حول أى اعتقال أو اغتيال للعناصر النشطة من الجماعات الإسلامية فى معظم الدول العربية والإسلامية وقبل وقوع حادث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة

بعدة أيام. توجه اثنان من الصحفيين العاملين فى المرصد لإجراء حوار مع القائد الأفغانى «أحمد شاه مسعود» وبمجرد بدء اللقاء فجأة انفجرت الكاميرات والمعدات فلقى الصحفيان مصرعهما فى الحال ثم توفى مسعود بعد ذلك متأثراً بجراحه ، وتبين أن الحادث انتحارى جرى تنفيذه لصالح حركة طالبان . ومن غير المعروف هل تورط السرى فى التدبير لاغتيال أحمد شاه مسعود أم أن الحادث أكبر من قدراته المحدودة. وقد ألقت الشرطة البريطانية القبض على «ياسر السرى» فى أعقاب حادث الهجوم على مدينتى نيويورك وواشنطن بالولايات المتحدة.

وكان ياسر السرى مشغولا أثناء اللقاء ـ الذى جرى بينى وبينه ـ بعدة قضايا شخصية منها الدعوى القضائية التى أقامها ضد الصحفى عمرو عبدالسميع مدير مكتب صحيفة الأهرام فى لندن ـ فى ذلك الوقت ـ بعد أن اتهمه بالإرهاب فى الطبعة الدولية للأهرام التى تصدر من لندن واستغل السرى ثغرات فى القانون البريطانى وتقدم بدعوى تعويض ضد الأهرام ، وكان دائم الاتصال بالمحامى الإنجليزى الذى كان يتولى الدفاع فى هذه القضية. كما أن السرى كان يواجه صعوبات فى الحصول على حق اللجوء السياسى الدائم خاصة أن السلطات البريطانية منحته حق اللجوء المؤقت للنظر فى ظروفه ، وكان يخشى أن تستجيب بريطانيا للضغوط المصرية وتقوم بتسليمه إلى مصر ، فضلاً عن أن ياسر لا يتحدث الإنجليزية رغم إقامته لفترة طويلة مما جعله يشعر دائماً بالضيق ويعيش فى شبه عزلة عن المجتمع البريطانى ويبدو عليه أنه مازال مرتبطاً بالأحداث الخارجية أكثر من درايته بما يجرى من حوله.

التقيت مع ياسر السرى عدة مرات خلال تواجدى فى بريطانيا ، الأولى على التليفون لمدة تزيد على الساعة الكاملة، والثانية فى ساحة مسجد المركز الإسلامى مع أشرف السعد صاحب شركة السعد للاستثمار الهارب من تنفيذ أحكام قضائية، والمرة الثالثة كانت مرتبة ومتفقا عليها واستمرت من بعد صلاة الجمعة حتى بعد صلاة المغرب تخللتها لقاءات جانبية مع بعض الجزائريين والإيرانيين اللاجئين فى بريطانيا.. ومن خلال اللقاءات الثلاثة شعرت بأن ياسر يفتقر إلى اللباقة فى

الحديث وثقافته العامة محدودة. أما ثقافته الدينية فهى قاصرة على بعض الكتب التى تحمل الفكر الأصولى. لذلك يحرص على أن يحصل من أى صحفى على أسئلة مكتوبة ثم يعيد إليه الردود مكتوبة وحرصاً على أمانة العمل أنقل فى هذه السطور الأسئلة وإجابته عليها بدون أى تدخل باستثناء حذف جملة تحمل سبا وقذفا لرئيس عربى لم نجد مبرراً لنشرها.

السيد ياسر السرى رجاء الرد على هذه الأسئلة حتى نستوضح أمر الشبهات التى تثار حولكم :

١ـ من هو ياسر سرى ومن هو من بين هؤلاء: سيد قطب ، صالح سرية ، يحيى هاشم ، حسين عباس ، عطا طايل ، عبدالحميد عبدالسلام ومحمد عبدالسلام ، خالد الاسلامبولى ، وإبراهيم سلامة، ومحمد كاظم وخميس مسلم، وغيرهم من الذين تدعون أنهم ضحايا أجهزة الأمن؟

٢ـ ما هى قضيتك أو جريمتك التى جعلت القضاء يحكم عليك بأقصى عقوبة قضائية؟

٣ـ الأمن المصرى يعتبرك خطرا على المجتمع المسلم وإرهابيا خطيرا ومحكوما عليك بالإعدام ، فكيف تسللت إلى بريطانيا ومن الذى ساعدك على الهروب من مصر؟

٤ـ كيف استقبلك رجال المطار فى إنجلترا ؟ وماذا قلت لهم..؟ وهل تعتقد أن بريطانيا ستظل تحميك رغم الضغوط المصرية؟

٥ ـ أنت لم تحصل على حق اللجوء السياسى بعد وقضيتك مازالت تنظر.. فماذا حدث فى آخر لقاء بينك وبين المسئولين عن منحك حق اللجوء السياسى وهل تشعر أن بريطانيا ستستجيب لضغوط الحكومة المصرية؟

٦ـ تدعى أنك متهم فى إحدى القضايا داخل مصر. ولكن لماذا جرى اعتقالك أيضا فى بريطانيا ؟ وما هى ملابسات الاعتقال؟ وهل لديك ما يوثق كلامك؟

٧ـ واضح من خلال المقابلة التى أجريت لك مؤخرا مع قناة فضائية عربية أنك لا

تجيد التعبير عن أهدافك فكيف تدعى الزعامة وتتحدث عن أمة أو حتى جماعة ولم يظهر لك فكر واضح ولم تنجح فى إقناع الناس ، أكثر ما أقنعتهم به بأن الحكومة المصرية على صواب؟

٨ ـ وهل أنت مؤهل فقهيا وسياسيا للزعامة أو على الأقل المشاركة فيها ؟ فما هى مؤهلاتك القيادية والفقهية؟

٩ـ أنت وزملاؤك تطالبون بالحكم الإسلامى أى تطبيق الشريعة الإسلامية، وتستشهدون بقوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وتقولون إن للمحاكم الشرعية مراجع ومستندات ترجع كلها للكتاب والسنة أما المحاكم المصرية فمرجعها القانون الوضعى المأخوذ من شرائع شتى وقوانين كثيرة كالفرنسى والبريطانى والأمريكى وهذا هو الكفر.

مع أن هذه الآية «من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» أو أولئك هم الظالمون أو الفاسقون جميعها من الآيات ٤٤ إلى ٤٧ من سورة المائدة وهذه الآيات نزلت فى اليهود وقيل إن «الفاسقون» نزلت فى الكفار وعليه أجمع المفسرون. إذن نزلت الآيات فى اليهود والكفار .

وقد قاتل الرسول ـ ﷺ ـ الكفار أكثر من نصف زمن الرسالة على كلمة التوحيد ، فهل أنتم وجدتم الحكومة تطالب الناس بالشرك بالله؟ وهل وجدتم صنما يعبد فى مصر؟ أو هل منعكم أحد من الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو حج البيت؟

ثانيا: هل أنت أو غيرك مؤهل لإقامة دولة إسلامية حقيقية؟ وأليس هذا العصر يستلزم تقديم المصلحة فى ضوء المتغيرات وهو أيضا مبدأ فقهى أصولى؟

١٠ـ كيف تنصبون أنفسكم أولياء على المسلمين وتطالبون بالتغيير، فالتغيير أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يكون لمن لك عليه ولاية. فهل بايعك أو نصبك أحد؟

١١ـ ما هو مشروعك المستقبلي؟ وهل ترى أملا في تحقيق هدفكم ؟ ومن الذي سيساندكم بعد اتهامكم بالتطرف والإرهاب؟

وقد سلمني ياسر السري رده وتعليقه على أسئلتي مكتوبا وتجنب الدخول معي في مناقشات وكان يعلق على كل تساؤلاتي بأن كل شيء مكتوب في الرد على الأسئلة التي جاءت كالتالي: ـ

إجابة السؤال الأول: من واقع البطاقة الشخصية اسمي ياسر توفيق على السري (مواطن مصري) مسلم يشارك الشعب المصري من أجل إقامة شرع الله في بلده، حاصل على بكالوريوس خدمة اجتماعية، هؤلاء المجاهدون هم في الحقيقة ضحايا للظلم الذي يعانون منه في مصر وأنا ابن وأخ وتلميذ لهؤلاء الشيوخ الأفاضل الشهداء «نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدا» وغيرهم من الشهداء الذين هم طليعة الحركة الإسلامية، وأنا جندي من جنود هذه الحركة سائر على الدرب.

إجابة السؤال الثاني: قضيتي أنني أقول ربي الله وأطالب بتحكيم شرع الله، أنا لست متهما ولا الشباب المسلم في مصر متهم أو مجرم وإنما المتهم والمجرم هم الآخرون، ولا أبالي بتهم باطلة توجه إلي، أو أحكام جائرة تصدر بالإعدام أو غيره وكذلك عموم أبناء الحركة الإسلامية التي تعمل من أجل تحكيم شرع الله في الأرض، ونحن أبرياء وهم المدانون. نحن نريد تطبيق شريعة الله وهم خارجون عليها وإذا كنت تقصد القضية التي صدر ضدي حكم بالإعدام فيها وهي قضية محاولة اغتيال رئيس الوزراء المصري الأسبق، فهذا الحكم صدر غيابيا من محكمة عسكرية وهذه المحاكم العسكرية جائرة وغير عادلة، ثبت أنها تجاهلت كون الاعترافات المنسوبة إلى المتهمين جاءت وليدة الإكراه والتعذيب، فضلا عن أن هذه المحاكم تتسم بالظلم الفادح، إذ إنه لا يحق للمتهمين استئناف الأحكام أو العقوبات التي تقضي بها المحاكم العسكرية أو الطعن فيها أمام محكمة أعلى، ولا يجوز اللجوء إلى الاستئناف القضائي أو المراجعة بالنقض، وتعد هذه الإجراءات قاصرة عن الوفاء بالمعايير الدولية للمحاكمة العادلة، بما في ذلك المادة ١٤٤ من «العهد الدولي

الخاص بالحقوق المدنية والسياسية» وكثيرون يقبعون داخل السجون والمعتقلات ، دون أدنى ذنب أو تهمة إلا أنهم يريدون تطبيق شرع الله.

إجابة السؤال الثالث: الخطر على المجتمع المصرى هو من الأجهزة القمعية التى تسميها أجهزة أمنية ومافيا الفساد وعملاء الصهيونية العالمية ، أنا خرجت من مصر عام ١٩٨٨ بمساعدة المتعاطفين وأحد الضباط من قواعد وأنصار الحركة الإسلامية فى مصر عن طريق ميناء نويبع البحرى ، ومنذ ذلك التاريخ لم أعد لمصر وعملت إخصائيا اجتماعيا باليمن ، ودخلت إلى بريطانيا فى ٢٩ أبريل ١٩٩٤ وبمجرد وصولى المطار تقدمت بطلب اللجوء السياسى حسب الأصول المتبعة.

المشكلة هى قانون الطوارئ الذى يجرى العمل به منذ اغتيال الرئيس السادات حتى الآن ويعطى الفرصة لقتل الأبرياء خارج نطاق القانون إما داخل المعتقلات نتيجة التعذيب أو بالتصفية الجسدية للبعض خارج السجون والأمثلة كثيرة فضلا عن عشرات الإعدامات الجائرة الصادرة ضد مدنيين من محاكم عسكرية أو من محاكم أمن الدولة.

وقانون الطوارئ يتعارض مع أبسط قواعد حقوق الإنسان وهناك قوانين مشبوهة يتم تطبيقها حاليا فى مصر ، قانون إحالة المدنيين إلى محاكم عسكرية، قانون الصحافة ، قانون النقابات.. إلخ، والإجراءات التعسفية «أعمال قتل خارج نطاق القانون ، الاعتقال المتكرر ، اعتقال أقارب المطلوبين كرهائن وخاصة النساء ، التعذيب الوحشى، منع الزيارات عن المعتقلين ، والحد من حرية التعبير والنشر، والمنع من السفر.. إلخ.

إجابة السؤال الرابع: لا توجد مراسيم استقبال ، مثلى مثل أى طالب لجوء ، بريطانيا بلد عريق فى الديمقراطيات تؤمن وتعمل بمبدأ التداول السلمى للسلطة على عكس بلادنا العربية التى لا تقبل بهذا المبدأ ، بريطانيا بلد به سيادة القانون وتحترمه ، ولا يوجد تداخل بين السلطات ، أما فى النظم الدكتاتورية فالحكومة هى الخصم والحكم ؛ تمثل كل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية بما يخالف أبسط

القوانين والأعراف المحلية والدولية، إن النظم العربية تعيش فى حالة وهم وسراب وتقوم بين الحين والآخر بافتعال ضجة إعلامية حول وجود المعارضين السياسيين فى بريطانيا وأوروبا.

إجابة السؤال الخامس: الإجراءات القانونية مازالت مستمرة حسب الأصول والقواعد الروتينية. أما بالنسبة لما تسميه بالضغوط المصرية على الحكومة البريطانية فحسب معلوماتى مصر قدمت عدة طلبات بتسليمي أو إبعادى من بريطانيا فطلبت الجهات المختصة هنا ما يثبت الاتهامات . وأستبعد أن يخفى عن الحكومة البريطانية ما تمارسه الحكومات العربية من أساليب قمع وكبت للحريات ضد المعارضين وتعذيب السجناء حتى الموت.

فلم تتح الفرصة للشعب المصرى ولو لمرة واحدة أن ينتخب من يمثله انتخابا حرا، وكما تعلم أن طالبى اللجوء فى بريطانيا وغيرها فروا بأنفسهم من الظلم والبطش.

إجابة السؤال السادس: وأنا فى بريطانيا تم تلفيق تهمة لى فى القضية رقم ١٣ لسنة ٩٥ جنايات عسكرية ولقد صدر بيان وزارة الداخلية المصرية فى ٣٠ أكتوبر ٩٥ يتهم المهندس عبدالوهاب شرف الدين نقيب المهندسين بالسويس بأنه أجرى لقاءات معى فى لندن وتسلم منى أموالا وتكليفات ، وأنه قام بذلك فى منتصف عام ١٩٩٤م ، والحقيقة أننى كنت محتجزا لدى سلطات الهجرة البريطانية فى تلك الفترة من نهاية أبريل ١٩٩٤م حتى نهاية ديسمبر ١٩٩٤، بدعوى التأكد من شخصيتى ومن هذا يتبين أن هذا اللقاء مستحيل ولم يقع مطلقا. مع العلم أن المهندس عبدالوهاب بعد كل هذه الاتهامات صدرت الأحكام بتاريخ ٣٠ سبتمبر ٩٥ وتضمنت براءة عبدالوهاب شرف الدين بينما صدر ضدى حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة وضد السيد حلمى عيسى عزازى فأعيدت محاكمة المهندس أمام محكمة عسكرية أخرى وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات.

إجابة السؤال السابع: نحن منهيون شرعيا بالحديث عن النفس وتزكيتها، وما حدث فى قناة الجزيرة ليس مقياسا ولا هو الوقت الكافى لتوضيح القضية من كافة

جوانبها. والقضية فوق الذات والأشخاص وعلى العكس أنا اعتبرتها تجربة لكسر حاجز التعتيم الإعلامي على وجهة نظر أبناء الحركة الإسلامية. و أنا لمست تعاطفا كبيرا للقضية وذلك من خلال ردود أفعال أبناء الجالية العربية ومنهم من لا أعرفه . وللعلم فإن المقابلة حذف منها حوالى ١٥ دقيقة تم قطعها من كلامى لاعتبارات سياسية ، وقد شارك فيها غيرى ممن يمثل وجهة نظر الحكومة ومنهم من يعمل حاليا مدير تحرير صحيفة عربية مشهورة وكان كاتبا فى الأهرام لسان الحكومة المصرية، وتهجم على شخصى عدة مرات وحرصا منى على الموضوعية والتزام الأدب احتراما للمشاهدين فلم أحاول التهجم عليه ، وقد تقاضوا مقابلا ماديا نظير المشاركة فى هذه الندوة بينما ذهبت لعرض وجهة نظرى دون مقابل. وكان من الممكن أن أسأله: أين يعمل؟ ومن أين يحصل على راتبه كما سألنى هو عن دخلى؟ وأين تعمل زوجته؟

إجابة السؤال الثامن: هدفى الذى أسعى من أجله هو تطبيق شرع الله ، وهى رغبة كافة أبناء المسلمين وتحقيق الأهداف المنشودة حسب تعاليم ديننا الحنيف ألا وهى تعبيد العباد لرب العباد وإقامة دولة الخلافة الإسلامية التى أجمع المسلمون على فرضية إقامتها وتحرير أراضى المسلمين وأولها القدس ، وتحرير الأمة الإسلامية من التبعية للشرق أو الغرب ، نشر الفضيلة والأخلاق الإسلامية ، إرساء قواعد العدالة الاجتماعية وتحقيق التكافل الاجتماعى ، التقسيم العادل للثروة ورفع الظلم عن الطبقات المحرومة ، صيانة الحريات الأساسية للناس وفق أحكام الشريعة ومنع العدوان على تلك الحريات.

بالنسبة للمؤهلات القيادية والفقهية أسألك ما هى مؤهلات غالبية حكام العرب عموما ؟ هل يملك أحدهم أية كفاءات شرعية أو سياسية أو إدارية؟

إجابة السؤال التاسع: أولا عليك أن تراجع أمهات كتب التفسير ، وأفضل رد على قولك إن الآيات نزلت فى اليهود والكفار ، وعلى من يزعم ويحاول قصرها على أهل الكتاب فقط ، أقول ما قاله أبو الأعلى المودودى رحمه الله ، «كلام الله لا يقبل مثل هذا التأويل، وأفضل رد على زعمهم ما قاله سيدنا حذيفة رضى الله عنه حين

قيل له إن هذه الآيات تخص بنى إسرائيل وحدهم بمعنى أنه من لم يحكم من اليهود بما أنزل الله فهو كافر وظالم وفاسق ، فرد عليه حذيفة رضى الله عنه «نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كانت لهم كل مُرة ولكم كل حلوة ، كلا والله إن المبدأ الأساسى للحاكمية الإلهية الذى ردد القرآن ذكره فى كل موضع أن من ترضاه حاكما مطلقا غير الله هو طاغوت كما اصطلح القرآن على تسميته وهذا ضد العبودية لله» والحق الذى لا مراء فيه أن هذه الآيات عامة فى أهل الكتاب وغيرهم شاملة اليهود والنصارى والمسلمين وأن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

إن الله هو المشرع وشريعة الله لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد والله هو رب العالمين والكل لديه سواء يرعى مصالحهم وحاجاتهم دون تفريط أو إفراط ، فإذا شرع غير الله للناس فمعنى ذلك أنهم عبيد لمن يشرع لهم كائنا من كان ، وأنت تسأل هل وجدتم الحكومة تطالب الناس بالشرك فى الله وهل وجدتم صنما يعبد من دون الله؟ من يسأل هذه الأسئلة كأنه يجهل دين الله . إن الزنى الذى تبيحه الدولة وتعد له المؤسسات وتفتح له معاهد الرقص والموسيقى وتشرف الدولة على الملاهى الليلية وتعد شرطة خاصة لحماية الفسوق والعاهرات.. ألا يعنى هذا شركا؟ لأنه رفض حاكمية أحكم الحاكمين . وماذا يعنى فتح مصانع للخمور ومحلات للإتجار بها ألا يعنى هذا رفض حاكمية أحكم الحاكمين؟ إن الربا الذى يقوم عليه اقتصاد البلاد ويلوث به كل مال حلال ألا يعنى هذا رفض حاكمية أحكم الحاكمين؟ تعطيل حدود الله وشرعه وتبديل القوانين الإلهية بقوانين من صنع البشر ألا يعنى ذلك رفض حاكمية أحكم الحاكمين؟ ألا يعد ذلك شركا؟ الخلاصة أن الشرك ليس فقط هو عبادة الأصنام؟ إن من يدعى أن له حق التشريع مع الله فقد أشرك ، إن من يرفع تشريعه إلى مرتبة شرع الله فى الانقياد والطاعة هو بالتأكيد مشرك بالله عز وجل فما بالنا بمن شرع للبشر من دون الله ونحى شرع الله لينفذ شرع البشر ألا يجعل نفسه شريكا لله فى التشريع والأمر والحكم فكيف بمن جعل تشريعه فوق تشريع الله؟ وعليك أن تراجع نواقض الشهادتين . والخلاصة أن

التحاكم إلى الشريعة أصل من أصول التوحيد وأكتفى بذلك فالمجال لا يتسع ويمكن نشر أبحاث فى ذلك إذا كان عندكم الاستعداد.

ثانيا: سبق أن قلت إن الحركة الإسلامية غنية بالكوادر والكفاءات فى شتى المجالات وبالطبع مؤهلة لإقامة دولة العدل ، فإن المصلحة والخير كله فى تطبيق دين الله ، هل نفهم من قولك: «أليس هذا العصر يستلزم تقديم المصلحة فى ضوء المتغيرات» أن هناك مصالح حقيقية لا يشملها شرع الله أو تتناقض مع الإسلام؟ هذا مستحيل عقلا وشرعا فمعنى هذا أن الإسلام ليس من عند الله فلماذا لا تصرح أنت وأمثالك بذلك صراحة أو أن ما سميته مصلحة ليس مصلحة فى الحقيقة بل هو مفسدة فلا يجوز اعتباره ولا مراعاته وهذا الذى نؤمن به.

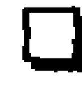
انتهت ردود ياسر السرى ونشرتها كما سلمها لى على الرغم من اختلافى معه فى معظم ما طرحه من أفكار والهجوم غير المبرر بشكل مباشر على بعض الحكام بطريقة تفتقد إلى الموضوعية لدرجة أننى حذفت بعض الفقرات التى لا يجب نشرها لأسباب عديدة.

والطريف أن ياسر السرى يعيش ويحتمى بمجتمع كافر من وجهة نظره كما أنه يتقاضى راتبا أسبوعيا يحصل عليه عن طريق البنوك التى يصفها بالربا.. مما يؤكد أنه يعيش حالة من الازدواجية.. كما أنه كان يحرص فى ردوده على أن يتحدث نيابة عن الشعب المصرى رغم عدم وجود أية فئة أو تجمع سياسى أو أى كيان أعطى له التفويض بالدفاع عنه أو الحديث نيابة عنه.. فضلا عن أن أفكاره نظرية ويستحيل تحقيقها على أرض الواقع!

الشعراوى وإعلان الخلافة فى لندن

الأنظمة العربية ضعيفة البنيان هشة التماسك يهزها مؤتمر يعقده عدة مئات من اللاجئين . ويخشى الحكام بيانات حفنة من المعارضين .. ومازالت الحكومات

العربية تعاني من عقد النقص التي تعري عوراتها للعالم المتقدم وتفضح ضعفها أمام شعوبها . إن نظم الحكم القوية التي تقوم على أساس من الديمقراطية لا يزعجها أن تعطي للمعارضين مهما كانت أساليبهم فرصة للتعبير عن آرائهم . ولا تخشى من أي تيار سياسي ما دام يعمل في إطار القانون والنظام ، ولكن الواقع العربي المؤلم يكشف عن افتقار الحكومات الحالية لمزيد من الشجاعة في مواجهة متطلبات الحكم الحديث الذي أصبحت خلاله الشعوب العربية عاجزة عن المشاركة في الحكم ، ومازالت تتألم شعوب بعض الدول في عالمنا العربي من استمرار اغتصاب إرادتها ومصادرة حقها في اختيار حكامها على الرغم من التطورات السريعة والمتلاحقة التي تجري من حولنا .



في نهاية صيف عام ١٩٩٦ تحركت الحكومات العربية بهدف الضغط على السلطات البريطانية لمنع عقد مؤتمر يضم كافة قيادات الجماعات الإسلامية الهاربة في بريطانيا وأوروبا حيث كان مقرراً أن يشارك في المؤتمر نحو ١٤ ألف عضو من مختلف الاتجاهات الإسلامية في العالم وتولى أعضاء حركة (المهاجرون) تنظيمه وهم مجموعة من أصحاب الأفكار الإسلامية المتحررة نجحوا في تأسيس حركتهم في إحدى دول النفط عام ١٩٨٣ وانتقلوا إلى العاصمة البريطانية وعملوا تحت مظلة حزب التحرير الذي يتزعمه القيادي عمر بكري ، وهو منشق سوري يحمل في رأسه أفكارا يسعى لتحقيقها من بينها إعلان الخلافة الإسلامية ، وأصبح حزب التحرير له أتباع في كل من مصر واليمن والهند وباكستان بالإضافة إلى عدد من الدول الأوروبية والولايات المتحدة ، ويركز زعماء هذا الحزب على مبدأ التثقيف والرقي الفكري عند المسلمين على أساس أن العبادة هي اتباع أمر الله وأن الصلاة عبادة والجهاد أيضاً عبادة .

وأعلن بكري المسئول عن المؤتمر أنه حاول الحديث عن فساد الأنظمة الحاكمة سواء كانت ملكية أو جمهورية، ديموقراطية أو اشتراكية وطرح بدلاً منها الخلافة كبديل مناسب لهذه الأنظمة ، هذا فيما يتعلق بالجانب المدني، أما الشق العسكري

فيرى قادة حزب التحرير أن كل المشاريع التى يطرحها الحكام ماهى إلا مشاريع استسلامية ويجب الاستعداد للمواجهة العسكرية ضد كل من يحتل الأراضى العربية والإسلامية . واعتبر قائد المؤتمر أن الجزيرة العربية والخليج أرض محتلة على أساس أن القوات الأمريكية تسيطر على مقاليد الأمور فيها ويخضع حكام هذه المناطق إلى سيطرة النفوذ الأجنبى بشكل عام ، وفى المؤتمر المزعوم حدد عمر بكرى خطوات إقامة الخلافة الإسلامية فيما يلى:

المرحلة الأولى تتركز على التثقيف الجماهيرى وتعليم المسلمين نظام الحكم وطبيعة النظام الإسلامى، أما المرحلة الثانية فيتم فيها التصادم الفكرى مع النظام الوضعى ثم يتم طرح فكرة الإسلام كبديل ثم تطلب الثقة والتأييد من الجيوش فى بلاد المسلمين وتبايع الأمة خليفة بشرط أن يتم ذلك فى إطار سلمى فلابد من حدوث انقلاب فكرى أولاً يتبعه انقلاب عسكرى على أساس أن المهاجرين هم الذين حملوا الدعوة الإسلامية والأنصار هم الذين ناصروا الرسول - ﷺ - وسلموا له السلطة.

وحدد بكرى مقر الخلافة الإسلامية بأن يكون فى إحدى الدول الإسلامية فى شبه القارة الهندية أو فى الجزيرة العربية ، واستبعد القاهرة باعتبار أن مصر جعل منها الاستعمار جسراً للغرب مثل لبنان وتركيا وأنها تحتاج إلى استعدادات فكرية وثقافية طويلة لإعدادها الإعداد الجيد قبل ترشيحها لهذا المركز ، ومن بين الأفكار التى طرحها المؤتمر أنه لا يجوز مبايعة خلافتين فإذا نجح أى تنظيم أصولى فى الوصول إلى السلطة فى إحدى الدول الإسلامية عليه أن يراعى وجود خليفة واحد للمسلمين وأن يلتزم بذلك . وبمجرد إعلان وصول التنظيمات الأصولية إلى الحكم فى أية دولة إسلامية تقوم بتطبيق الدستور المكتوب الذى يضم ٩ مجلدات مكتوبة أعدها قادة حزب التحرير على أساس ما جاء فى المذاهب الخمسة بما فيها المذهب الجعفرى ، على الرغم من أن الشيعة يطلقون على مصطلح الخلافة إمامة .

ويتضمن الدستور حوالى ١٨٠ مادة لكل مادة أدلتها من الكتاب والسنة . ووصل التفاؤل لدى الشيخ عمر بكرى حتى إنه توقع أن يكون مؤتمر ١٩٩٦هو التمهيد

لإعلان الخلافة الإسلامية فى العام التالى، والطريف أن المؤتمر كان مقره لندن ونجد أن بكرى يعتبر بريطانيا مجرد محطة مؤقتة للتنظيمات الإسلامية ومقر آمن لتجمعهم لكنها فى نفس الوقت مركز للانحلال الخلقى والفساد . وفى ظل الضغوط التى تعرضت لها السلطات البريطانية من جانب الدول العربية حاولت تضييق الخناق على المنظمين للمؤتمر ووضع العراقيل أمامهم تمهيداً لإلغاء المؤتمر تجنباً للدخول فى أزمة سياسية ومقاطعة جماعية من الدول العربية ، ولكنها فشلت بعد أن هدد المنظمون باللجوء إلى القضاء البريطانى الذى يسمح بمثل هذه المؤتمرات .

وتردد أن المؤتمر تم تمويله على نفقة أسامة بن لادن ، ذلك المنشق السعودى الذى تتهمه أجهزة المخابرات العربية والدولية بتمويل العديد من العمليات الإرهابية كما تعتبره أمريكا المطلوب رقم واحد ، وأنه وتنظيم القاعدة اليد الفاعلة والمدبرة ، لأحداث ١١ سبتمبر فى نيويورك وواشنطن ، وكان بن لادن قد أقام فترة من حياته فى العاصمة البريطانية قبل أن ينتقل إلى السودان ومنها إلى منفاه الأخير فى أفغانستان حيث شنت الولايات المتحدة حملتها للقضاء عليه ، واتخذ المؤتمر شكل مهرجان تنديد بالممارسات الدكتاتورية للحكام العرب والمسلمين واستخدامهم كافة أساليب القمع والظلم ضد أصحاب الآراء المخالفة والمعارضين السياسيين ، وتلقى المسئولون عن المؤتمر رسائل مكتوبة ومرئية من بعض القيادات الإسلامية منها على سبيل المثال رسالة مكتوبة من مفتى تنظيم الجهاد المصرى الشيخ عمر عبد الرحمن الذى يقضى عقوبة السجن مدى الحياة فى الولايات المتحدة حيث بدأ رسالته عن معاناته داخل السجن ثم يلخص موقفه فى ضرورة قيام المسلمين بالعمل على تحقيق شرع الله والعودة إلى كتابه ومحاولة تطبيق شرعه .

أما أسامة بن لادن فقد أرسل شريط فيديو من أفغانستان طالب فيه الأمة الإسلامية بطرد الأمريكان من المنطقة العربية وتطهير الخليج من وجودهم فى أراضى المسلمين ، ويقول أيضاً ساعدوا إخوانكم وأبناءكم على الجهاد فى سبيل الله لإخراج العدو المحتل من بلادنا ، ولايخفى عليكم أن المرحلة تستدعى أساليب قتالية مناسبة نظراً لعدم التوازن الذى تواجهه البلاد العربية، لذلك شكلنا قوات سريعة

لشن حرب عصابات يشارك فيها أبناء الشعب من غير القوات المسلحة ، وتعلمون أنه من الحكمة في هذه الظروف تجنب الدخول في قتال تقليدي مع أفراد القوات المسلحة . والذي نرجوه منكم هو تقديم العون والمعلومات والمواد والأسلحة اللازمة.

وشرح بن لادن بلا خوف مكان وجوده في إحدى مدن أفغانستان بعد أن أصبح من الصعب عليه الاختفاء في أي مكان آخر سواء في الغرب أو الشرق في أعقاب رحلة طويلة من المطاردة والتنكر ولم يكن بن لادن قد أصبح ظاهرة تشكل خطراً على الغرب وتحول الموقف بعد تنفيذ هجوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الذي راح ضحيته أكثر من ثلاثة آلاف أمريكي في نيويورك وواشنطن ورغم وجود خلافات منهجية تؤدي إلي توسيع الفجوة بين جماعة المهاجرين المنظمين لمؤتمر لندن وباقي الجماعات الإسلامية الأخرى ، نجدهم وجهوا الدعوة إلى تلك التنظيمات للمشاركة في المؤتمر حيث يرى عمر بكري أنهم ضد الإخوان لأنهم قبلوا المشاركة في السلطة والحكم الحالي في كل من الأردن ومصر عن طريق قبولهم دخول البرلمان ، كذلك يرى أن حركة حماس التي أسسها الشيخ أحمد يس تعد خارجة عن الشرع الإسلامي ، لأنها وافقت هي الأخرى على الانخراط في العمل السياسي وتركت الكفاح المسلح بينما يعترفون فقط بكتائب عز الدين القسام الجناح العسكري لحماس .

وبالنسبة لجبهة الإنقاذ الجزائرية فهي منقسمة إلى قسمين الأول يميل إلى الحوار مع السلطة ويمثله رابح كبير ولا يعترف به المهاجرون ، والثاني يلتزم بالجهاد والمواجهة مع السلطة . كما رفض المؤتمر توجيه دعوة إلى راشد الغنوش زعيم حركة النهضة التونسية ، لكن الحقيقة التي أعلنها الغنوش نفسه بعد ذلك أنه هو الذي بادر بمقاطعة مؤتمر لندن لإعلان الخلافة واعتبره مجرد مهرجان استعراضي لا يحقق أهدافا ، بل يمكن أن يسيء إلى صورة الإسلام . كذلك قاطع المؤتمر أيضا كمال الهلباوي المتحدث الرسمي السابق لحركة الإخوان المسلمين العالمية بعد أن اكتشف أن المهاجرين لهم رؤية معينة عن الإسلام تختلف عن رؤية تنظيم الإخوان الدولي ، كما وجد أنهم يرغبون في الوصول بالمجتمعات الإسلامية إلى حالة الغليان والصدام

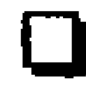
المسلح ، كما أن المهاجرين يرغبون فى إعلان الخلافة من أوروبا بينما يرى الإخوان أن الغرب مجرد بلاد للدعوة والأولى أن تقام الخلافة فى بلاد المسلمين .

وشرح لى الهلباوى فى حديث مطول بمكتبه فى لندن مفهوم الإخوان للخلافة حيث يرفضون إقامتها عن طريق الانقلابات العسكرية الدموية لأن من يأتى عن طريق الانقلاب سيأتى آخرون لإزاحته بانقلاب مماثل . وذلك يتعارض مع أسلوب الإخوان فى تربية المجتمع على أساليب نموذجية حتى يمكن أن يفرز حكاماً صالحين ، وقال : إن أسلوب حركة المهاجرين يضر بالعمل الإسلامى فى بريطانيا وتسبب فى إغلاق العديد من مؤسسات الدعوة الإسلامية المعتدلة ،كما أضر أيضاً بأنشطة الطلاب المسلمين فى الجامعات الإنجليزية . واعتبر الهلباوى دعوتهم للانقلابات العسكرية وهم جالسون هنا فى بريطانيا نوعاً من السذاجة وضرباً من الخيال ، ورفض الإخوان التورط معهم فى هذا الاتجاه ، لكن المدهش أن منظمى مؤتمر إعلان الخلافة الإسلامية فى بريطانيا وجهوا دعوات إلى كافة التنظيمات التى تصنفها أجهزة الأمن العربية تحت بند الإرهاب والتخريب ، ولم تفلح المحاولات فى إلغاء هذا المؤتمر، والذى حدث هو إجبار السلطات الأمنية البريطانية للمشرفين عليه بعدم الدعوة إلى دعم الإرهاب أو إذاعة رسائل وبيانات لأشخاص متهمين بالإرهاب ، ورفضت السلطات منح بعض الشخصيات تأشيرة دخول لبريطانيا للمشاركة فى المؤتمر.

والطريف أن الداعية الإسلامى الراحل الشيخ محمد متولى الشعراوى تلقى دعوة من المنظمين بهدف الاستفادة من الشعبية الكبيرة التى كان يحظى بها وسط ملايين المسلمين فى كل مكان وكانوا ينوون أن يتولى الشيخ الجليل إذاعة إعلان قيام الخلافة الإسلامية بنفسه ولكن الراحل لم يرد على دعوتهم حيث كان ـ رحمه الله ـ يفضل دائماً أن يبتعد بنفسه عن صراعات الجماعات الإسلامية المختلفة خاصة منذ أن تعرض لمأزق سابق أثناء تولى اللواء محمد عبد الحليم موسى وزارة الداخلية واتفقا معاً على فتح حوار سرى مع بعض رموز الجماعات الإسلامية المتهمة بالإرهاب فى مصر بهدف وقف أعمال العنف التى كانت قد شهدت مواجهات

قاسية مع أجهزة الأمن وتـعددت عملياتهم التخريبية ضد المنـشآت والبنوك والسياح ولكن جهات أمنيـة عليا رفضت دعوة الشيخ الشعراوى ، وتسبب هذا التصرف فى إبعاد وزير الـداخلية عبد الحـليم موسى من منصبه خاصة عندما تصرف من تـلقاء نفسه . وهذه السياسة تتعارض مع الخط العام للدولة فى عدم إتاحة الفرصة أمام هذه الجماعات لـلتحاور والتفاوض انـطلاقاً من أن ذلك يمنـحها الشرعية فـى الاستمرار لضرب الاستقرار والأمن حتى تصل إلى السلطة !

كما أن حزب الـتحرير وقادته المعتـصمين فى بريطانيـا متهمون بالعمـالة لأجهزة المخابرات البريطانية والغربية، والذى يوجه لهم هذا الاتهام بعض العناصر الإرهابية الهاربة فى لندن ، ودليلهم فى ذلك أن حزب الـتحرير خالف القانون البريطانى دون أن يقدموا لـلمحاكمة عندمـا قاموا أثناء فترة انعـقاد مؤتمر الخلافة بوضع مـلصقات تحمل صورة بـعض الحكام العرب وكتـبوا تحت الصور "مطـلوب" باللغتين الـعربية والإنجليزيـة وتم لصق هذه الصور علـى حوائط المبانى فـى الشوارع الرئيسية بمدينة لندن وتحمـل الصور خاتم حزب التحريـر ومع ذلك تمت إزالة الملصقـات عن طريق الشرطة البريطانية ولم تتم محاكمـة أعضاء الحزب على هذه المخالفة حسب القوانين البريطانية التى تعاقب من يرتكب مثل هذه التصرفات!



وقد حرصت بريطانيا على عقد روابط تجارية وسياسية مع العالم الإسلامى منذ مئات السنين لكن المسلمين لم يستقروا فى هذا البلد إلا بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ . وكان أول الوافدين من البحارة اليمنيين الذين أقاموا تجمعاً لهم فى ساوث شيـلدز على الـشاطئ الشـمالى الشـرقى لإنجلتـرا ، خلال الثلـث الأخير من الـقرن التاسع عـشر . واستقر غيرهم مـن البحارة المسلمين فـى مختلف المرافئ المنـتشرة فى البلاد ، بما فيها ليفربول وكارديف ، وكذلك فى اسكتلندا .

ويقدر الـعدد الرسمى لـلـمسلمين الـذين يعيشـون فى بريطانيـا بحوالى مـليونى شخص، وصل عدد كبير منهم إلى هذه البلاد خلال فترة الهجرة الكبيرة التى عرفتها دول الكومنولث فى الخـمسينيات والستينيات من القـرن العشرين حين ازداد حرص

بريطانيا على اجتذاب اليد العاملة الأجنبية ، فيما بعد التحق بالذين استقروا فى بريطانيا بعض أفراد أسرهم ، وكان معظم المسلمين فى بريطانيا من أصل باكستانى أو بنجلاديشى ، ناهيك عن مجموعات كبيرة أتت من الهند والشرق الأوسط وأفريقيا وقبرص وماليزيا أيضاً. أما اليوم فإن نسبة متزايدة منهم أصبحت بريطانية المولد ولا يزيد عمر أكثر من نصف المسلمين البريطانيين حالياً على الثلاثين عاماً وهم فى أغلبيتهم منحدرون من أبوين مهاجرين بالإضافة إلى المعتنقين للإسلام من البريطانيين .

وعلى الرغم من أن المسلمين فى بريطانيا منحدرون من مجموعات عرقية وحضارية مختلفة ، إلا أنهم بدأوا اليوم ينتمون أكثر فأكثر إلى هوية جديدة هى هوية المسلم البريطانى.

وتنتمى غالبية مسلمى بريطانيا إلى أهل السنة لكن الشيعة يمثلون أيضا بما فيهم الفرقة الإسماعيلية . كما أنشأت جماعات من أصحاب الطرق الصوفية الكبرى فروعاً لها فى المدن البريطانية.

ويعيش المسلمون عادة فى المدن ويفضل معظمهم الإقامة فى لندن وفى الجنوب الشرقى وجنوب مقاطعة ويلز وفى مدن اسكتلندا ومقاطعات الميدلاندز والشمال ، بما فيها برمنجهام وبرادفورد ومانشستر وليدز وليستر .

ويعيش بعض المسلمين داخل مجتمعات أصغر فى مدن خارج لندن واقتحم المسلمون ميادين الاقتصاد البريطانى كافة . فمهما اختلفت مهنهم وتنوعت من أصحاب متاجر إلى معلمين وأطباء أسنان ومحامين ومذيعين وعمال مصانع ومهندسين وعلماء فجميعهم يساهم مساهمة كبرى فى الأعمال التجارية والخدمات العامة والمهن على اختلاف أنواعها، كما أن مشاركتهم فى العمل السياسى فى البلاد تزداد تدريجياً خاصة فى البلديات المحلية وداخل الهيئات الاستشارية الرسمية.

وخلال السنوات الأخيرة ازداد عدد الزوار الوافدين من العالم الإسلامى إلى بريطانيا ازدياداً ملحوظاً لا سيما القادمين من الشرق الأوسط وجنوب آسيا لأغراض

تجارية أو للسياحة أو الدراسة . وقد تملّك العرب الوافدون من الدول المنتجة للنفط عقارات فى مناطق مختلفة خصوصاً فى لندن حيث تتركز المصارف ومؤسسات التمويل العربية . ووفقاً لمعلومات هيئة السياحة البريطانية فإن أكثر من سبعة ملايين سائح من الشرق الأوسط زاروا بريطانيا عام ١٩٩٢ . كما يؤم البلاد زوار آخرون بقصد تحصيل العلم فى الجامعات ومدارس تعليم اللغة الإنجليزية أو بدواعى العلاج و الاستشفاء فى المصحات والعيادات الخاصة. وفى السنوات الأخيرة شهدت مستشفيات لندن ازدحاماً من المصريين المصابين بتليف الكبد بعد انتشار المعلومات والأخبار حول تفوق الأطباء البريطانيين فى عمليات زرع الكبد عن غيرهم ، رغم أن هذه المعلومات غير دقيقة حيث توجد دول أكثر تقدماً فى هذا المجال من بريطانيا لكن دخول الوسطاء والسماسرة الذين يتقاضون عمولات عن كل زبون مصرى يسافر للعلاج ساهم فى الترويج لهذه المغالطات العلمية.

وتسمح حرية العبادة فى بريطانيا للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية وأداء دورهم كاملاً فى المجتمع البريطانى فى الوقت نفسه .

وطبقا للإحصائيات الرسمية يوجد فى بريطانيا اليوم أكثر من ٥٠٠ مسجد ومكان للعبادة ، فى حين أنه منذ ٤٠ سنة لم يكن عددهم يناهز العشرة ، وقد شيد البحارة اليمنيون فى بداية السبعينيات من القرن الماضى أول مسجدين فى بريطانيا وذلك فى مدينتى كارديف وساوث شيلدز بالإضافة إلى المسجد الذى افتتح فى ووكينغ بـ مقاطعة صارى فى عام ١٨٩٠ وتحول فى السنوات الأولى من هذا القرن إلى مركز للصلاة و العبادة .

وتتنوع المساجد فى بريطانيا الآن من حيث الحجم من منازل عادية أو مبان تجارية جرى تحويلها إلى مساجد كبيرة الحجم مثل المسجد المركزى فى حديقة (ريجنات بارك) العامة فى لندن الذى يعد أحد أكبر المساجد الموجودة خارج العالم الإسلامى.

وكانت المقترحات ببناء مسجد مركزي في لندن قد قدمت قبل الحرب العالمية الأولى ولكن لم يتم تخصيص موقع لبناء المركز الثقافى الإسلامى المتاخم لحديقة

ريجنات بارك إلا عام ١٩٤٥ في مقابل تخصيص موقع في القاهرة لبناء كاتدرائية أنجليكانية جديدة، وقد استقطبت مسابقة دولية لبناء المسجد ٥٢ تصميماً من ١٧ بلداً مختلفاً وفاز بها المهندس المعمارى البريطاني الراحل السير فريدريك جيبرد .

ولقد افتتح المسجد المركزى والمركز الثقافي الإسلامي عام ١٩٧٨ ، أما الأمناء عليه فهم السفراء المسلمون في لندن ، ويتردد على المسجد أكبر جماعة من المصلين في بريطانيا في يوم الجمعة من كل أسبوع. ويتولى المركز نشر مجلة « ذى إسلاميك كوارترلى» (أى المجلة الإسلامية الفصلية) ذات العمق العلمي ، بالإضافة إلى كتيبات إعلامية ونشرة شهرية .

ويرحب المركز الثقافي الإسلامي أيضاً بالزوار والطلاب من غير المسلمين حيث يستخدم عدد كبير منهم مكتبته الكبيرة ، كما يزور المركز أكثر من ٢٠,٠٠٠ تلميذ بريطاني أدرجت في برنامجهم المدرسى دراسة ديانات العالم ، ويشارك في تنظيم مختلف المجموعات المهنية داخل الجالية الإسلامية ، ويدير جمعية الشباب المسلمين وجمعية الشابات المسلمات اللتين تنظمان المحاضرات وغيرها من النشاطات الثقافية.

وتسعى معظم السلطات المحلية التى يقيم فيها مسلمون إلى تأمين المتطلبات الخاصة بمراسم دفن الموتى بموجب الطقوس الإسلامية في المدافن التابعة لمجالس البلدية ، ومن هذه المتطلبات إجراء الدفن خلال الأربع والعشرين ساعة التى تلى الوفاة وتوجيه القبر بحيث يرقد الجثمان على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة، وقد خصص عدد من هذه السلطات أماكن محددة لمدافن المسلمين، ويتضمن كتيب «دفن الموتى بموجب الطقوس الإسلامية» الذى نشرته لجنة المساواة العرقية إرشادات حول كيفية تلبية حاجات الجاليات الإسلامية.

كما تلتزم الحكومة البريطانية بالمبدأ القائل بتكافؤ فرص الالتحاق بالمدرسة ضمن قطاع التربية العام لكل الأولاد بصرف النظر عن جنسهم أو عرقهم أو انتمائهم الأصلى أو معتقداتهم الدينية بغية حصولهم على تربية صحيحة تؤهلهم للاضطلاع بدور فعال في المجتمع البريطاني ، وبالتالى فإن المؤسسات التربوية كافة ملزمة

بالتقيد بأحكام «قانون العلاقات بين الأعراق» ومطالبة بتطبيق إجراءات عملية لإزالة التمييز العرقي في المدارس البريطانية.

كما يقرر قانون التربية الصادر عام ١٩٨٠ حق الوالدين في اختيار المدرسة التي سيلتحق بها أولادهما . ومن واجب السلطات التعليمية المحلية أن تستجيب عموماً إلى رغبات الوالدين. ولعل أكثر ما يزعج الأسر المسلمة؛ التربية الجنسية في المدارس حيث إنه بموجب قانون التربية الصادر في العام ١٩٩٣، يحق لولي أمر أي تلميذ بمدارس القطاع العام أن يسحب ابنه من دروس التربية الجنسية ، ومن المسائل الأخرى التي أثيرت بين الأهالي أو المنظمات الإسلامية من جهة والسلطات التربوية المحلية من جهة أخرى تلك المتعلقة بلباس الفتيات المسلمات وتوافر اللحم «الحلال» (أي المذبوح وفقاً للشريعة الإسلامية) في المطاعم التابعة للمدارس .

وقد جرى تعديل مناهج التربية الدينية التي تشكل جزءا من المنهج الدراسي الأساسي في كثير من الميادين لتشمل دراسة مختلف الأديان . حتى أصبح ينبغي على المدارس تخصيص فترة يومية للصلاة أو العبادة . لكن يحق لأولياء الأمور - فيما لو رغبوا - سحب أولادهم من صفوف التربية الدينية والعبادة الجماعية.

ويرى بعض أولياء الأمور أن صفوف التعليم المسائية هي المكان الأمثل للتربية الدينية بينما يحبذ البعض الآخر مشاركة أولادهم في حياة المجتمع العامة مع مراعاة العادات والقيم الإسلامية . وتشجع بعض المنظمات الإسلامية أولياء الأمور على إرسال أبنائهم لتلقي دروس دينية خارج نظام التعليم الحكومي وذلك بعد انتهاء ساعات التدريس في المدارس .

كما يسعى بعض الأهالي لإرسال أولادهم إلى المدارس الإسلامية المستقلة، ويهتم قانون التعليم الصادر في ١٩٤٤ بالحق في تأسيس مدارس مستقلة . وتوجد حالياً ٢٢ مدرسة إسلامية سواء مختلطة أو غير مختلطة .

أما أجهزة وزارة العمل البريطانية فتقدم المشورة لأصحاب الأعمال فيما يتعلق بمنافع اعتماد المساواة العرقية على صعيد التوظيف. ويساعد هؤلاء المستشارون

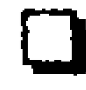
أصحاب الأعمال فى إعداد السياسات الهادفة إلى تأمين تكافؤ الفرص فى التخطيط لوضعها موضع التنفيذ وهم يعملون على تعميق إدراك المسئولين لمفهوم المساواة العرقية وعلى توضيح مسئولياتهم ضماناً لتحقيقها .

وقد أسست الجالية الإسلامية عدداً كبيراً من المنظمات المحلية والوطنية فى بريطانيا التى يعنى معظمها بالأنشطة الدينية والتربوية والاجتماعية والخيرية وقد تأسس بعضها لخدمة مجموعات تنتمى لجنسية وطنية معينة وبعضها الآخر لخدمة أعضاء مهنة معينة .

وافتتحت رابطة العالم الإسلامى مكتباً لها فى لندن عام ١٩٨٤ وأسست عدداً من الجمعيات فى كل أنحاء البلاد ويعتبر « اتحاد المنظمات الإسلامية للمملكة المتحدة وأيرلندا» الذى تشكل فى العام ١٩٧٠ بمثابة هيئة تنسيقية ينتسب إليها عدد من المنظمات الإسلامية الأخرى فتتخذ من لندن مقراً لها وفيها يتم تنظيم نشاطاتها المختلفة.

وقد جاء تشكيل «لجنة عمل المملكة المتحدة للشئون الإسلامية» استجابة لهموم الجالية الإسلامية بعد صدور كتاب سلمان رشدى «آيات شيطانية» وما صاحبه من ضجة فى مختلف الأوساط الفكرية . وشنت اللجنة حملة تطالب فيها باعتماد تشريع يحظر التميز الدينى والتحريض على الكراهية الدينية ، وقد انضم ممثلون عن اتحاد المنظمات الإسلامية وعن لجنة عمل المملكة المتحدة للشئون الإسلامية إلى فريق من القادة المسلمين الذين التقاهم وزير الداخلية البريطانى فى فبراير من العام ١٩٩٤ . وعقد هذا اللقاء ليتسنى للوزراء الاستماع إلى مختلف آراء الجالية الإسلامية من أجل فهم وجهات نظر المسلمين فهمًا أوضح . ويلاحظ فى لندن خلال السنوات الأخيرة تكاثر الحركات والجمعيات النسائية الإسلامية التى تعنى بالصحة والرفاهية الاجتماعية والتربية . وتشمل فيما تشمل منظمة «النساء » فى المركز البلدى فى برنت بلندن التى مهدت الطريق لتأسيس تجمعات مشابهة لها فى مختلف أنحاء المملكة المتحدة .

ونذكر من المنظمات الأخرى مجلس الأمة والمساجد وجمعية الأطباء الإسلامية وبالانتقال إلى أعمال البر ، فإننا نراها مرتبطة بالجالية الإسلامية فى بريطانيا منذ أيامها الأولى فى هذه البلاد . فالمسلمون يسهمون إسهاماً سخياً فى المشاريع الإنسانية فى بريطانيا من خلال منظمات مثل العون والغوث الإسلامى . وقد تأسست فى العام ١٩٩٢ لجنة أكسفورد لمساعدة البوسنة وهى أحدث أنشطة المسلمين الخيرية فى بريطانيا، وكان هدفها نقل إمدادات المعونة إلى مسلمى البوسنة أثناء الصراع العرقى فى البلقان .



بالإضافة إلى لجنة المساواة العرقية وبموجب قانون العلاقات بين الأعراق الصادر سنة ١٩٧٦ ، فإن من أهم مهامها العمل على إزالة التمييز العرقى وتعزيز تكافؤ الفرص والعلاقات الودية بين مختلف المجموعات العرقية ومراقبة تطبيق قانون العلاقات بين الأعراق .

ويتمثل هدف اللجنة الرئيسى فى تقديم المشورة والمساعدة إلى الأفراد الذين يعانون من التمييز العرقى . أما صلاحياتها فتقضى بتقصى الحقائق بشأن الممارسات التمييزية غير الشرعية وإصدار بلاغات رافضة للتمييز من شأنها وضع حد لهذه الممارسات.

ويحق لأصحاب الشكاوى اللجوء إلى أعضاء اللجنة للنظر فى شكاواهم والتدخل لحلها بالطرق السلمية الودية بهدف رفع الظلم وإلغاء التمييز بين المواطنين لأسباب تتعلق بالعقيدة أو اللون أو الجنس أو اللغة ، وفى حالة فشل اللجنة فى رفع الظلم عن أصحاب الشكاوى المتضررين من التمييز تساعد هؤلاء المواطنين لرفع دعاوى أمام القضاء البريطانى الذى دائماً يأتى حكمه فى صالح المتضررين من التمييز باعتبارها من القضايا التى تتعارض مع أبسط قواعد حقوق الإنسان.

وقد لجأ قادة الجالية الإسلامية إلى استخدام هذا الحق عدة مرات كان آخرها ضد رئيسة الوزراء السابقة مارجريت تاتشر المعروفة بالمرأة الحديدية عندما هاجمت المسلمين ووصفتهم بالإرهاب والتخلف فى أعقاب تعرض الولايات المتحدة لعدوان

الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حيث تقدم عدد من زعماء الجالية الإسلامية بدعاوى أمام القضاء البريطانى يطالبون فيها بضرورة اعتذار تاتشر العلنى للمسلمين ودفع تعويضات ضخمة بسبب هجومها العنيف على الإسلام.

برلمان هايد بارك

فى بريطانيا يؤمنون بالانفتاح الفكرى ويحترمون المعارضين والمختلفين فى الرأى ، أما نحن فنؤمن بالأحادية الفكرية فى الحياة وفى الحكم أيضاً .. وهم يوفرون المنابر التى تسمح للجميع بالتعبير عن اعتقاداتهم السياسية فى الشوارع ناهيك عن وسائل الإعلام المفتوحة أمام كل المذاهب فى نفس الوقت الذى تمتلئ فيه سجون الدول العربية بالمعارضين وأصحاب الرأى الآخر . لهذا تشعر وأنت فى بريطانيا بأنهم غادروا عصور الظلام بلا رجعة بينما مازلنا نسبح فى بحور من الظلمات التى لا نعرف مداها وإلى أين تنتهى بنا...!

تذكرت كل هذا وأنا أقف مشدوهاً وسط زحام عشاق الحرية ومجاذيب التناقضات السياسية فى ركن المتحدثين بحديقة «الهايد بارك ". إنها ملجأ لمن يرغب فى التنفيس عن معاناته الدينية ومسرح يقدم على خشبته المعذبون سياسياً والمطاردون وطنياً فصولا من مأساتهم مع حكوماتهم .. ومشاهد حية لأساليب الحكام فى بلادهم .. وأكثر ما لفت نظرى الشاب الأمريكى الأسود (زياد) الذى وقف على تبة عالية وأخذ يشرح قصته مع الثورة الإيرانية حيث كان يعمل جندياً فى الجيش الأمريكى الذى حاصره الثوار الإيرانيون فى واحد من أخطر المآزق التى تعرضت لها الولايات المتحدة فى الشرق ، وتعد المرة الأولى التى نجحت فيها دولة مثل إيران فى الإطاحة بالرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر بسبب فشله فى حل أزمة الرهائن الأمريكيين المحتجزين فى السفارة الأمريكية بطهران بعد سقوط الشاه وبدء حكم الملالى . إن "زياد" كان واحداً من هؤلاء الرهائن وأشهر إسلامه خلال الأزمة وبدأ يقرأ عن الإسلام وتضامن مع الإيرانيين وساعدهم فى تهريب آلاف الوثائق الهامة

التى تتضمن العديد من المخططات الشيطانية ضد إيران والمنطقة وبعد أن انتهت الأزمة قدم استقالته من الجيش الأمريكى وأخذ فى البحث عن أعمال حرة أكثر طهارة وتنقل بين مدن أوروبا.

الشاب زياد كان يبدو عليه الذكاء واللباقة حتى إنه جذب عشرات المترددين فى ذلك اليوم المشمس وأثار أحقاد باقى المتحدثين ، وانتقل "زياد " من قضية إيران إلى العراق وكانت الولايات المتحدة تحاول فى ذلك الوقت الإعداد لضربة عسكرية أخرى ، بحجة عدم فتح القصور الرئاسية على مصراعيها للجان التفتيش الدولية تحسباً لاحتمالات إخفاء الأسلحة النووية أسفل تلك القصور. والطريف أن زياد الأمريكى الأسمر أخذ يشرح الأسباب الحقيقية لتوجهات السياسة الأمريكية ضد العراق وأن المقصود بها هو تدمير دولة عربية وشعب مسلم وحرمانه من امتلاك أى نوع من أسلحة الدمار الشامل ليظل التفوق النوعى فى صالح اليهود وتظل إسرائيل مصدراً لتهديد العرب وخطراً جاثماً على المسلمين فى كل مكان ... وطرح "زياد " الأسباب التى اضطرته للمجئ إلى "هايد بارك"وترك عمله فقد قرر مغادرة بريطانيا بشكل نهائى بعد أن تحولت إلى دمية فى يد الإدارة الأمريكية ، توظف مواقفها السياسية لحساب مصالحهما المشتركة بصرف النظر عن عدالة القضايا التى تتبناها الولايات المتحدة .

إن "زياد" كان متحدثاً ذكياً استطاع أن يجعل باقى المتحدثين يتوقفون إجبارياً ويتحولون إلى مستمعين لحديثه الملىء بالشجون والآلام ، لأنه مجرد فرد يحاول أن يعبر عن مأساة شخصية لكنه يتعامل معها بطريقة جادة تضطرك لاحترامه وترفع له القبعة اعترافاً بضميره الإنسانى الحى ، وبعد أن تطرق زياد للعديد من القضايا الإسلامية من الشرق إلى الغرب فى أسلوب حماسى قوى ومقنع .. طلب من كل الحاضرين أن يبدأوا معه حواراً مفتوحاً حول آرائه التى طرحها وهو مستعد للإجابة عن أى استفسار ، وبالفعل انهالت عليه أسئلة من أجناس مختلفة حيث اتهمته فتاة يهودية جميلة بأن المسلمين نجحوا فى السيطرة على أفكاره وأن يملأوا رأسه بعقيدتهم المتخلفة.

لكن زياد ضحك بسخرية من كلامها وأجاب بأنه لجأ إلى الإسلام بعد دراسة متأنية اقتنع خلالها بأنه العقيدة المثالية التى ترتقى بالإنسان وتحترم تفكيره وتلغى أى قيود تحول بينه وبين ربه . كما أنها عقيدة تبتعد عن التشدد اليهودى الذى يرسخ للتطرف والعنصرية لدى أصحاب العقيدة اليهودية كما أنه لا يتعارض مع مبادئ الأديان الأخرى بل يضيف إليها من التعديلات التى تصل بها إلى مراحل من المثالية.

ووقف رجل مخمور انهال على زياد وعلى المسلمين بالسباب ووصفهم بالخنازير حتى إن العديد من المسلمين الحاضرين استشاطوا غضباً .. لكن زياد طلب من باقى الحاضرين أن يحكموا على فكر هذا الرجل وأشار إليه متسائلاً: هل بينكم من يحترم عقيدة مثل هذا الرجل المخمور ! وسادت حالة من الصمت تناول «زياد» جرعات من زجاجة مياه معدنية وضعها أسفل التبة التى وقف عليها .. واللافت للنظر فى هذا المشهد أن الشاب الأمريكى الأسود ظل يتحدث على مدى أكثر من أربع ساعات متواصلة دون كلل أو ملل .. وأنهى حديثه للجمهور بأنه متجه إلى إيران مرة أخرى ليعيش هناك وسط شعب شجاع يؤمن بعقيدته ولا يخشى إلا الله ويثير الرعب لدى الأمريكان خاصة أن السياسة الأمريكية أصبحت تسيطر على باقى الحكومات فى أوروبا باعتبار أن هدفهم الرئيسى محاصرة المد الإسلامى فى أى مكان !!!

وفى طرف آخر بالحديقة وقف رجل طويل يضع على رأسه قبعة يهودية وبجواره فتاتان ترتديان الملابس السوداء وتحملان الأعلام الإسرائيلية وبدأوا يشرحون بعض نصوص التوراة التى تصف وتمجد شعب الله المختار ، وخلال دقائق اكتشفوا أنهم يتحدثون إلى أنفسهم بعد أن انفض الجمهور من حولهم والاتجاه نحو فريق من السود يتوسطهم رجل فى الخمسين من عمره وأمامه منصة مكتوب عليها "الرئيس" فى مشهد يشبه الرئيس الأمريكى أثناء المؤتمرات الصحفية ، وفى البداية قدم المتحدث نفسه على أنه رسول مبعوث لقوم من السود أرسلتهم السماء لإنقاذ البشرية التى بدأت تغرق فى الفساد والظلم بأشكاله المختلفة.. وأن هذا الرجل الأسود هو الذى سيتولى توزيع حكام من السود على دول العالم خاصة أن الله أراد

أن يكافئهم على صبرهم طوال آلاف السنين التى ذاقوا فيها العذاب على أيدى الرجل الأبيض وأنه آن الأوان للسود أن يحكموا العالم وينفذوا مبادئهم وتجاربهم بعد أن ظل الأبيض هو الذى يحكم الأسود منذ بداية الخلق وكانت النتيجة أن البشرية فى طريقها إلى الخراب بسبب ظلم البيض للإنسان الأسود .. وقال الرجل الذى كان حريصاً على تقليد رئيس أمريكا السابق كلينتون فى حركاته وردوده على استفسارات الحاضرين عن عقيدته الجديدة وهل هى تختلف عن المسيحية والإسلام ووصف الدين الذى يدعو إليه بأنه لا يتعارض مع الأديان السماوية القائمة وأيضا يؤمن بأن الإسلام هو آخر الأديان السماوية ولا ينكر نبوة النبى محمد ﷺ لكن الأساس الذى ستقوم عليه ديانته الجديدة هو إنصاف السود وبدء عصر جديد يسود فيه الرجل الأسود ويقود خلاله جميع البيض !

هذا السيناريو يتكرر كل يوم أحد فى حديقة هايد بارك حيث يخلط الناس فيه الدين بالجنس والسياسة بالعقيدة والعنصرية بالحرية .. والتطرف بالاعتدال . وتتحول فيه هذه الحديقة إلى برلمان عالمى يتم فيها طرح كل ما يجرى فى العالم من أحداث للمناقشة . وفى ركن المتحدثين لابد أن تجد كل أسبوع معارضاً عربياً يقف فى أحد الأركان وحوله عدد محدود من العرب ويشرح لهم تجربته مع النظام الذى أبعده عن وطنه . كذلك هناك الهنود والصينيون ومن مختلف الجنسيات واللغات . وفى نهاية اليوم الذى زرت فيه الحديقة لفت نظر جميع رواد الحديقة أن الشاب الأمريكى الأسود زياد وقف يؤذن للصلاة وبسرعة تجمع خلفه عشرات المسلمين فى صفوف طويلة وبدأ يؤمهم للصلاة فى مشهد مؤثر لكل مسلم .. حتى إن معظم الحاضرين وأنا منهم التقط الصور لهذا المشهد الرائع ، لكن بعد أن اقتربت من جموع المصلين لاحظت أن الغالبية العظمى من المصلين كانوا من غير العرب إما من السود أو الأوروبيين الذين اهتدوا إلى الإسلام بالإضافة إلى أعداد محدودة من اللاجئين السياسيين أعضاء الجماعات الدينية الذين يحرصون على متابعة كل ما يجرى فى هايد بارك أسبوعياً!!!

وبعد الإرهاق من متابعة كل ماجرى اتجهت جنوب الحديقة حيث البحيرة

الواسعة التى تتوسط هايد بارك وجلست شارد الذهن أفكر فى ضرورة أن يكون فى كل دولة عربية منبر حر مماثل لهذه الحديقة التى تنصهر فيها العقائد والمذاهب ويكاد النقاش يصل إلى حد الاشتباك الذى لا يحدث على الإطلاق ، لأن رجال البوليس ينتشرون بالقرب من المتحدثين ، مهمتهم تتلخص فى شىء واحد هو منع الاشتباك وإتاحة الفرصة كاملة لكل شخص فى التعبير عن آرائه بدون أية قيود .. ولاحظت سيدة ترتدى «إسترتش» وطلبت منها التقاط صورة وتحدثت معها بالإنجليزية لكنى فوجئت بأنها ترد بالعربية واكتشفت أنها خليجية تعيش فى بريطانيا ودار بيننا نقاش على طريقة الهايد بارك .

وكانت الشمس بدأت تظهر على استحياء والجو معتدلا وتهب نسمة هواء باردة من حين لآخر . ومعظم زوار الحديقة إما محبون يبحثون عن الرومانسية والصفاء وإما مشردون عاطلون يحاولون الاستمتاع مجاناً وعلى طريقتهم الخاصة ، وشعرت بالضيق لأنى كنت بمفردى ولم تمر دقائق إلا وانتهت كل مشاكلى بعد أن اقتربت منى فتاة ترتدى بالطو أسود ذات وجه وعينين تشبهان ملامح الصينيين وأخذت تسألنى عن اسمى ومن أى بلاد جئت وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة مشجعة .. وبعد تبادل الأسئلة التقليدية عرفت أنها برازيلية تعمل مدرسة لغة إنجليزية وتزور لندن لأول مرة وتقيم فى بيت للشباب بسبب ارتفاع مستوى الأسعار، حيث نجحت فى ادخار مبلغ من راتبها طوال العام وقررت زيارة لندن، وبعد نصف ساعة من المشى وسط الطرقات التى تشق المساحات الخضراء النظيفة شعرت بأنها صديقة قديمة خاصة أن ظروف بلادها السياسية والاقتصادية تتشابه مع ظروفنا فى أمور عديدة ، وأخذت تحكى عن همومها باعتبارها شابة طموحة اصطدمت بواقع مجتمعها النامى وإمكانياته المحدودة التى تقف حائلاً فى سبيل تحقيق طموحاتها، وكانت أكثر انبهاراً بالدقة والانضباط الإنجليزيين وظلت (فاكى) التى لايزيد عمرها على ٢٣ سنة تروى الحكايات عن أسرتها الكثيرة العدد وأن جدها كان مهاجراً من جنوب شرق آسيا ووالدها تعهد أن يساعد أبناءه من عائد عمله التجارى فى الحصول على شهادات جامعية ثم بعد ذلك يكون قد أنهى مهمته ويتولى كل فرد تحمل المسئولية بنفسه .

وجلسنا على أحد المقاعد الخشبية المطلة على البحيرة الواسعة التى تفصل شمال هايد بارك عن جنوبها وأخرجت من حقيبتها كيس مكسرات ووضعته أمامى بنفس طريقة الفتاة المصرية .. وصمتت لحظات ثم سألتنى عن بلدى وهل هى فى نفس ظروف لندن من حيث مستوى المعيشة وفرص العمل ، فابتسمت وأنا أشرح لها مقتطفات من تاريخ وحضارة أجدادنا الفراعنة وعن العبقرية التى يمكن أن تشعر بها بمجرد الوقوف دقائق أمام أهرامات الجيزة أو أمام وادى الملوك وعن الرهبة التى حتماً سوف تغرق فيها عندما تشاهد الإعجاز المعمارى فى معبد الكرنك بمدينة الأقصر .. ولاحظت الفتاة أننى أهرب من الحديث عن الحاضر بالعودة إلى الماضى .. فقاطعتنى برغبتها فى التعرف على الواقع الحالى لأن هذه المعلومات التاريخية سبق أن قرأتها أثناء الدراسة .. وسألتنى عن دخلى بالدولار وكانت إجابتى مفاجأة لها ، لأنها كانت تعتقد بأن بلادها فى آخر قائمة الدول الفقيرة فاكتشفت أن هناك دولاً أخرى تقع بعد بلادها بمراحل .

ملك بريطانيا يعتنق الإسلام

لم يكن الأمير تشارلز والأميرة الراحلة ديانا هما الحالتان الوحيدتان اللتان طالتهما شائعات اعتناق الإسلام. ففى القرن الثالث عشر الميلادى وبالتحديد فى صيف عام ١٢٠٣ قرر ملك بريطانيا (جون لاكلاند) اعتناق الإسلام والتخلى عن عرشه وطلب فرض الوصاية الإسلامية على بلاده للتخلص من الأزمات الاقتصادية والسياسية التى فشل فى مواجهتها فى الوقت الذى كانت فيه الإمبراطورية الإسلامية تزداد قوة واتساعاً بسبب تفوقها الحضارى والعلمى. والمثير أن الملك البريطانى قرر إرسال بعثة تمثله إلى حاكم الأندلس المسلم لضم المملكة البريطانية إلى إشرافه المباشر فى واقعة أقرب للخيال فى الوقت الحالى.

فوجئت البعثة البريطانية الرسمية بانتشار الحمامات العامة فى العاصمة الإسلامية قرطبة وبالقرب من قصر الحاكم فضلاً عن انتشار المدارس والجامعات فأصيبوا

بالدهشة والذهول من تنظيم السلطة وتوزيعها بطريقة سلسة ، فى الوقت الذى كانت بلادهم تعيش فى ظلام العصور الوسطى وتعانى التخلف والفقر. والذى ضاعف من دهشة أعضاء البعثة البريطانية أن الحاكم المسلم «محمد الناصر» الذى كان يحمل لقب «ملك أفريقيا والمغرب وإسبانيا» قد رفض عرض الملك البريطانى بتسليم بلاده طواعية للحاكم المسلم والدخول فى الإسلام».

وهذا الكلام ليس من عندنا ولكن هذه الواقعة المثيرة نشرت مؤخراً فى إحدى الصحف البريطانية وقد التقطها المخرج العالمى المعروف مصطفى العقاد الذى يتخذ من عاصمة السينما العالمية هوليوود مقراً دائماً لعمله وقد حصلت على النص الذى نشرته الصحف الإنجليزية. والمدهش أن المخرج السورى الأصل قرر أن يتخذ من هذه الواقعة قصة لفيلم عالمى يصور مبعوثى الملك البريطانى وهم يبلغون الحاكم المسلم رغبة ملكهم فى اعتناق الإسلام وتسليم بلاده للمسلمين ، على أن يتم عمل إسقاط تاريخى على وضع البلاد الإسلامية حالياً مقارنة بالدول الغربية والأساليب المهينة التى يعامل بها حكام العرب والمسلمين من جانب الزعماء الأوروبيين حالياً ، فضلاً عن نظرات الشفقة من الشعوب الأوروبية نحو الشعوب الإسلامية خاصة أن المخرج العالمى بدأ يتجه إلى الدعوة للتصدى لمحاولة التشويه المتعمدة التى تمارسها السينما العالمية تجاه الإسلام والمسلمين. كما أنه يسعى إلى إنشاء منظمة غير حكومية يتركز نشاطها على متابعة كل ما يذاع أو يعرض فى الغرب من أعمال تتضمن مغالطات مقصودة عن الدين الإسلامى وتتولى الرد على هذه المغالطات وتصحيحها بالأساليب المناسبة وانتقد مصطفى العقاد هرولة بعض المخرجين العرب نحو الغرب وتقديم أعمال تشوه الحضارة العربية والإسلامية بقصد وبدون قصد مقابل الفوز بجوائز هزيلة فى مهرجانات بعضها يتخذ الطابع العالمى لكن الهدف من ورائها دعم وتشجيع مخرجين عرب ومسلمين أحياناً على تشويه تاريخهم وحضارتهم بأنفسهم.

أما فيما يتعلق بقضية رغبة ملك بريطانيا فى اعتناق الإسلام فإن الترجمة الحرفية للوثيقة التى نشرتها الصحف البريطانية جاء فيها الآتى:

«إن ذلك سيكون بمثابة صدمة لأى فرد تأثر بغزو العرب الحديث للندن ولكن بالنسبة للحظة حرجة فى القرن الثالث عشر واجهتها إنجلترا عندما اتجهت كلياً للانغلاق والتقوقع داخل دولة إسلامية فى عام ١٢٠٣ ، وفى حركة يأس مجنونة أرسل الملك چون لاكلاند بعثة سرية من ثلاثة أشخاص إلى الأمير محمد الناصر الحاكم المغربى يعرض البيعة ووعد «جون» الملك المسلم بأنه فى حالة الموافقة على انضمام إنجلترا للإمبراطورية العربية فسيكون هو الملتزم بدفع الجزية للأمير حيث رأى چون أن التحول للإسلام هو المخرج من المشاكل السياسية الطاحنة.

ولقد تلقى رئيس البعثة تعليمات من چون أن يخبر الملك العظيم ملك أفريقيا والمغرب وإسبانيا أنه يرغب فى أن يستسلم طواعية له (نفسه ومملكته) ولو أنه سمح سيتركها له كإقطاعية، كما أنه سيترك الديانة المسيحية والتى اعتبرها خاطئة «مزيفة» وسوف يؤمن بإخلاص «القانون محمد» .

وبهذا فقد سُلم خطاب الملك چون يداً بيد إلى الملك الناصر وبمساعدة أحد المترجمين حاول المندوب البريطانى إقناعه بغنى تربة انجلترا وخصوبة مزارعها وحقولها ومهارات شعبها الوسيم ، العبقرى الذى يتحدث ثلاث لغات هى «الإنجليزية والفرنسية واللاتينية» تماماً ، وقد كانت إجابة الحاكم المغربى استثنائية على مستوى رئاسى على النحو التالى:

«إننى لم أقرأ أو أسمع من قبل عن ملك لديه مثل هذه المملكة المرفهة والتى تخضع له وتطيعه ويفسد على نفسه هذه السيادة طواعية هكذا بجعلها مجرد مقاطعة بعد أن كانت دولة حرة ومنح الغريب ما هو ملكه محولاً السعادة إلى شقاء ومسلماً نفسه بذلك لإرادة آخر مهزوماً كما لو كانت الهزيمة بدون جراح».

وبعد هذا التقييم الإسلامى النموذجى لرجولة چون فقد رفض الملك الناصر العرض البريطانى «لأنه ملك يثير الشفقة غيرمدرك وطاعن فى السن ولا يستحق الاتحاد معى».

وأمر مبعوثيه بألا يروه وجوههم مرة ثانية ، وبعد عودة البعثة أو السفارة إلى

انجلترا انتحب الملك جون بمرارة بسبب رفض عرضه وربما بسبب تصديقه أن باروناته قد خدعوه.

وفى عهد الملك «جون» شهدت المملكة أوسع اضطرابات شملت أنحاء عديدة من المقاطعات «أطلقوا عليها ثورة الماجنا كارتا» طالب خلالها الشعب البريطانى بوضع أسس عادلة للحكم والقضاء على نفوذ جامعى الضرائب الذين كانوا يستخدمون القهر والبطش ضد المزارعين وقد عثرت على كتاب صدر فى مصر عام ١٩٦٥ يحمل عنوان «الماجنا كارتا» العهد العظيم وهو من تأليف جيمس دوورتى وترجمه إلى العربية مصطفى طه حبيب وراجعه وقدمه المفكر الراحل د. زكى نجيب محمود انطلاقاً من خبرته بالتاريخ الانجليزى حيث قضى جزءاً من حياته للدراسة فى جامعاتها . والكتاب يؤرخ لظروف تولى الملك جون السلطة والصراع الذى دار بينه وبين بعض أفراد الأسرة المالكة كما يشرح الأسباب والظروف التى أدت إلى تردى الأوضاع الاقتصادية فى بريطانيا خلال فترة حكم الملك جون الذى ولد عام ١١٦٧ وتوفى ١٢١٦م وجاء فى تقديم د. زكى نجيب محمود للكتاب مايلى: ـ

«إن تراث الإنسانية من الحرية لتراث مشترك ، أسهمت فيه كل البلاد على طول العصور بأنصبة موزعة ، ولقد تنظر إلى حياتنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية اليوم وتراها حياة ظافرة بقسط موفور من ضروب الحرية ، فتحسبها شيئاً من طبائع الأمور لم يحتج من الناس إلى جهد ليظفروا به ، لكننا نقرأ التاريخ هنا وهناك ، فنقع على جهود بذلت ، وعلى حروب شنت ، ودماء أريقت، من أجل أن يحقق الإنسان لنفسه أقل القليل مما ينعم به اليوم من حريات متنوعة فى ميادين الحياة المختلفة ، بل إن الطريق ما يزال أمام الانسان طويلاً مليئا بضروب من الاستعباد والاستبداد ، عليه أن يحطمها ويزيلها قبل أن تتحقق له الحرية كلها موفورة كاملة ، يريد أن يحطم قيده ورفع عن نفسه الغبن والظلم ، لينال شيئاً من حريته السلبية ، وكلما ظفر شعب بقسط من الحرية ، فسرعان ما تنعم بالظفر شعوب أخرى ، لأن الحرية كالماء ينساب فى البقاع حتى يتساوى مسطحه فى الآفاق»

ويستطرد المفكر الراحل د. زكى نجيب محمود فى تقديمه قائلاً:

ومن أهم ما قد شهد التاريخ من مواثيق الحرية بين الحاكم والمحكوم كان «ماجنا كارتا» أو الميثاق العظيم - الذى يتحدث عنه هذا الكتاب، والذى ظفر به الشعب الانجليزى من حاكمه الملك جون فى أوائل القرن الثالث عشر فلنعد بخيالنا إلى لون الحياة السائدة عندئذ ، لنرى الصورة التى ثار الثائرون ليحطموها وليخلقوا لأنفسهم صورة أخرى ، يورثونها لمن يجئ من بعدهم... كانت الحياة عندئذ قائمة على نظام الإقطاع فى أبشع صوره، حيث تتفاوت درجات الناس فى تسلسل هرمى؛ بحيث يستحيل على إنسان واحد صغر أو كبر - إلا وقد كتب عليه أن يكون بمثابة العبد التابع لإنسان سواه ، يدين له بالولاء الذى لا قبل له برده ولا بالتمرد عليه ، وفى قمة الهرم كان البابا صاحب السلطة الروحية التى ينوب بها عن ملكوت السماء، فالملوك يأتمرون بأمره ، بل يتولون سلطانهم بإذنه ، وزراع الأرض يأتمرون بأوامر الفرسان، وأخيراً يأتى رقيق الأرض الذين يفلحونها لأصحابها، فهؤلاء كانوا فى حكم المتاع والماشية يباعون ويشترون مع الأراضى التى لا يجوز لهم مغادرتها كأنهم تربة من ترابها...».

وهذه بعض الصور التى قدمها د. زكى نجيب محمود للأوضاع التى رافقت مرحلة حكم الملك جون وربما هذه الاضطرابات هى التى دفعته إلى الإقدام على تصرفه الذى وصفته الصحيفة البريطانية بالجنون.

وهناك بعض ضعاف النفوس ومحدودى الفكر فى الأوساط الإسلامية يعتقدون خطأ أن الإسلام ينتظر أن تعتنقه شخصية سياسية أو فنية كبيرة فى المجتمعات الغربية على الرغم من أن الإسلام دين غير تبشيرى ولا يتأثر من قريب أو من بعيد بأن يعتنقه مشاهير أو زعماء أو حتى ملوك وأمراء ، ولكن نظراً لاهتمام الأمير شارلز ولي العهد البريطانى بالجمعيات والمؤسسات الإسلامية ودراساته المستمرة فى الشريعة الإسلامية دفعت بعض السذج إلى الترويج بأن الأمير يفكر فى الخلاص ، أى اعتناق الإسلام.

والذى أدى إلى انتشار هذه الشائعات تلك الخطبة التى ألقاها الأمير شارلز أمام قيادات وزعماء الجالية الإسلامية المقيمين فى بريطانيا فى منتصف التسعينيات وكان

الأمير يقف داخل أحد مدرجات مركز إكسفـورد للدراسات الإسلامية التابع لجامعة إكسفورد البريطانية العريقة.

وهذا المركز تبرع بإنشائه سلطان بروناى فى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين وأعلن حينهـا الأمير بأنه مستعد أن يكـون راعيا فخريا للمركز الـذى يعد واحدا من أهم المـؤسسات البـحثية والـعلميـة فى الشـئون الإسلاميـة ويتلقـى الدعم والرعـاية والاحتـرام من شخـصيات إسـلامية معـروفة فى طـول العالـم الإسلامى وعـرضه. وحملت محاضرة الأمـير تشارلز عنوان «الإسلام والغرب» ،ونظراً لأهـمية ما تحمله من مضامـين قابلة للتفسـيرات المختلفة قررت نـشرها كاملة دون تدخل حـتى يمكن للقارئ التعـرف على نظرة ولى العهد البـريطانى للدين الإسلامى وهو بـالطبع يمثل تيارا غربيا قـويا يجب علينا دراسته والـتفاهم معه حتى نتجـنب الصدام بين الإسلام والحضارة الغربية فى المستقبل. يقول الأمير تشارلز:

«عنـدما بدأت أنـظر فى مـوضوع هذه المحاضـرة ، أشار علـىّ بعض الـناس أن أستمد السلوى من المثل العربى القائل "إن الحكمة ليست حكراً على أحد" ، إننى أقر بأنـنى لا أتمتع بـكثير مـن مؤهلات البـاحث المختـص لتبريـر وجودى هنا، فـى هذا المسرح ، حيـث قام كثيرون ممن يفـوقوننى علمـاً واطلاعاً بالمحاضرة ، ولعـلى كنت أشعر بأننى أكـثر استعداداً لو كنت سليـل جامعتكم الموقرة هذه وليـس خريج "كلية كمبردج الفنية" مع أننى آمل أن تتذكروا أنه تم إنشاء كرسى أستاذ للدراسات العربية فى جامعـة كمبردج فى القرن الـسابع عشر قبل إنـشاء أول منصب مماثل فـى جامعة أوكسـفورد بأربـع سنوات ، إننـى وعلى عـكس كثيرين مـنكم ، لسـت خبيـراً فى موضوع الإسلام ولكنى سعيد بتولى منصب راع فخرى لمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية ، وذلك لأسباب آمل أن تتضح فيما بعد. إن هذا المركز يتمتع بالقدرة على أن يصبح وسـيلة مهمة ومثيرة لتشجيع فـهم العالم الإسلامـى فى بريطانيا وتحـسينه ليحتـل مكانه ، حسبـما آمل ، إلى جانب مـراكز الدراسات الإسلاميـة الأخرى مثل معـهد الدراسات الـشرقيـة ومركز الـشرق الأوسط بوصـفه معـهداً يحـق للجامـعة والباحثين على نطاق أوسع أن يفخروا به.

وفى ضوء كـل التحفـظات التى تسـاورنى إزاء الخوض فى مجـال معقد ومـثير للجدل، لعـلكم تتساءلون لماذا حضرت إلـى هذا المبنى الرائع الذى صمـمه المهندس المعمارى كريسـتوفررن ، لكى أحدثكم عن موضوع الإسـلام والغرب. السبب وراء ذلك هو أنـنى أومن من صـميم قلـبى بأن العـلاقات بين هذيـن العالمين تـتسم الآن بالأهـمية أكثـر من أى وقت مـضى ، لأن درجة سوء الـفهم بـين العالمين الإسـلامى والغربى لا تزال عالـية على نحو خطير ولأن الحاجـة لتعايش الجانبين وعملـهما معاً فى عالمنا المـتعاون على نحو متـزايد ، هى الآن أعظم من أى وقت مضـى أيضاً. وأنا أدرك فى الوقت نفـسه حقول الألغام التى تعتـرض سبيل المسافر غير الخبـير المصمم على استطلاع هذا الطريق الصعب. ولكن لا شك أن بعضاً مما سأقوله سيثير الخلاف والانتقاد وسوء الـفهم وربما أسوأ من ذلك ، ولكـن ربما يجدر بنا أن نتذكـر على أية حال ، مثلا عربياً آخر فحواه " ما تنبس به الشفتان تلتقطه الآذان ، وما يجود به القلب يصل إلى صميم القلب ".

الحقيـقة المحزنة هى أنه عـلى الرغم من التـقدم فى مجال الـتكنولوجيـا ووسائل الاتصال فى الـنصف الثانى من الـقرن العشرين، وعـلى الرغم من سفر الـناس على نطاق واسع واختلاط الأجناس وإماطة اللثام ـ أو هـكذا نعتقد ـ عن كثير من ألغاز هذا العـالم ، فإن سوء الفـهم بين الإسلام والغرب لا يـزال مستمراً ، بـل وربما أخذ يزداد سوء الـفهم هذا ، بـالنسبة لـلغرب لا يمكـن أن يكون حصيـلة الجهل، فـهناك بليون مـسلم فى شتى أرجاء الـعالم ، ويعيش الملايين مـنهم فى بلدان الكـومنولث. وهناك عشرة ملايين مسلم أو أكثر فى الغرب ، ومن بينهم حوالى مليون فى بريطانيا ،إن جالـيتنـا الإسلامية تـنمو وتـزدهر منـذ عقود ، فـهناك حوالـى ٥٠٠ مسجـد فى بريطانيا، والاهتمام الشعبى بالثقافة الإسـلامية يتنامى بسرعة. ولابد أن كثيرين منكم يتذكرون المهرجان الإسلامى الرائع الذى افتتحته جلالة الملكة عام ١٩٧٦م ، وأعتقد أن بعضكم شارك فيه. إن الإسلام يحيط بنـا من كل جانب ، ومع ذلك يستمر الشك والخوف. ولا ريب أن فرص السلام فـى عالم التسعينيات بعد انـتهاء الحرب الباردة أصبـحت الآن أعظـم مما كانـت عليـه فى أى وقت مـضى خلال هـذا القرن ، فـفى

الشرق الأوسط بعثت أحداث الأسابيع الأخيرة المشجعة واللافتة للنظر أملاً جديداً بإنهاء المسألة التي أدت إلى انقسام العالم ، وكانت على نحو مثير مصدراً للعنف والكراهية. ولكن الأخطار لم تندثر، ففي العالم الإسلامي نشاهد التدمير والتخريب المنتظمين لنسق الحياة الفريد لعرب الأهوار في جنوب العراق ، هذا النسق الذي يسود منذ آلاف السنين. إنني أقر بأنني وعلى مدى عام بأكمله كنت أنتظر الفرصة المناسبة للتعبير عن يأسي واستنكاري للفظائع المروعة التي ترتكب في جنوب العراق. إنني أرى أن المفارقة الكبرى والمأساوية فيما لحق بالسكان الشيعة في العراق وخاصة في مدينة كربلاء التاريخية وأماكنها المقدسة هي أنه بعد أن حرص الحلفاء الغربيون كل الحرص على تجنب قصف الأماكن المقدسة من هذا القبيل (أتذكر أنني رجوت قائد قوات التحالف في حرب الخليج الثانية الجنرال «شوارتز كوف» عندما التقيت به في الرياض في ديسمبر «كانون الأول» عام ١٩٩٠م أن يبذل قصارى جهده لحماية مثل هذه الأماكن المقدسة في المدن العراقية خلال أي قتال بعد أن تسبب صدام حسين نفسه ونظام حكمه المروع في إلحاق الدمار ببعض من أقدس الأماكن الإسلامية. وقد تعين علينا الآن أن نشهد تجفيف الأهوار المتعمد والتدمير شبه الكامل لبيئة فريدة ، لقد أبلغ المجتمع الدولي بأن تجفيف الأهوار تم لأغراض زراعية. كم من الأكاذيب الفاحشة نسمعها قبل أن يتخذ إجراء بهذا الشأن؟ إن الأوان لم يفت حتى في اللحظة الأخيرة لمنع وقوع طامة كبرى. إنني أرجو أن تشكل هذه المسألة على الأقل قضية يجمع فيها الإسلام والغرب قواهما من أجل البشرية.

لقد اخترت هذا المثال بعينه لأنه من الممكن تناسيه. إننا نجد العنف والكراهية في أماكن أخرى من العالم أكثر شدة وأعمق جذوراً عندما نرى كل يوم المعاناة المروعة للشعوب في أرجاء العالم : في يوغوسلافيا السابقة والصومال وأنجولا والسودان وكثير من الجمهوريات السوفيتية السابقة. إن المعاناة المروعة لمسلمي البوسنة والطوائف الأخرى في تلك الحرب الوحشية تساهم في إبقاء المخاوف والأفكار المتعصبة التي يكنها عالمنا لبعضه البعض. إن الصراع بالطبع يندلع نتيجة لسوء استخدام السلطة وتضارب الأفكار ، ناهيك عن النشاطات المهيجة التي يمارسها

القادة المتعصبون والمجردون من الضمير ولكن من المحزن أيضاً أن الصراع يندلع نتيجة عدم القدرة على الفهم والعواطف الجياشة التى تؤدى نتيجة لسوء الفهم إلى الخوف وانعدام الثقة. علينا ألا ننجرف إلى حقبة جديدة من خطر الانقسام لمجرد أن الحكومات والشعوب والمجتمعات والأديان لا تستطيع أن تتعايش فى عالم مضطرب.

ومن الغريب ، من عدة وجوه ، أن يستمر سوء الفهم بين الإسلام والغرب ، فالذى يربط بين عالمينا أكثر بكثير مما يقسمهما. فالمسلمون والمسيحيون واليهود جميعهم "أصحاب الكتاب "، والإسلام والمسيحية يشتركان فى النظرة الوحدانية : الإيمان بإله واحد وبأن الحياة الدنيا فانية وبالمسئولية عن أفعالنا والإيمان بالآخرة. إننا نشترك فى كثير من القيم : احترام المعرفة والعدل والرأفة بالفقراء والمحرومين وأهمية الحياة العائلية ، واحترام الوالدين ، فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى مشيراً إلى الوالدين "وبالوالدين إحساناً " وتاريخ عالمينا مرتبط على نحو وثيق، ولكن هذا أصل المشكلة ، فمعظم ذلك التاريخ تميز بالصراع ، وكثيراً ما اتسمت فترة الأربعة عشر قرناً أيضاً بالعداء المتبادل. وقد أدى ذلك إلى نشوء تقليد دائم من الخوف والشك ، لأن عالمينا غالباً ما ينظران إلى ذلك الماضى بمنظورين متعارضين. فبالنسبة لتلاميذ المدارس الغربية تعتبر الحروب الصليبية التى استمرت مائتى عام سلسلة من الأعمال البطولية والمجيدة حاول خلالها الملوك والفرسان والأمراء والأطفال الأوروبيون تخليص القدس من أيدى الكفار المسلمين الأشرار.

أما المسلمون فيعتبرون الحروب الصليبية حقبة من الوحشية الشديدة وأعمال السلب والنهب المروعة التى قام بها المرتزقة الغربيون الكفار ، وكذلك الفضائح المرعبة التى ربما كان أفضل ما يمثلها المذابح التى ارتكبها الصليبيون عندما استردوا عام ١٠٩٩م القدس التى تعد ثالث المدن المقدسة لدى المسلمين وبالنسبة لنا فى الغرب يعد عام ١٤٩٢م عام البحوث الإنسانية والآفاق الجديدة ، عام كولمبوس واكتشاف الأمريكتين، أما بالنسبة للمسلمين فإن عام ١٤٩٢م هو عام مأساوى حيث سقطت قرطبة فى أيدى فرديناند وإزابيلا، وانتهت بذلك ثمانية قرون من الحضارة

الإسلامية فى أوروبا، ليست المسألة فى اعتقادى تحديد أى الصورتين أكثر صحة من الأخرى أو أيتهما تنكر الحقيقة، المسألة هى سوء التفاهم الذى ينشأ عندما نفشل فى تقرير كيفية رؤية الآخرين للعالم وتاريخه وأدوارنا فيه.

ونتيجة لنظرتنا إلى تاريخنا فى الغرب ، فإن الإسلام غالباً ما يعتبر تهديداً ، أى كفتح عسكرى فى العصور الوسطى وكمصدر لعدم التسامح والتطرف والإرهاب فى العصر الحديث. وبإمكان المرء أن يفهم كيف أدى فتح القسطنطينية عندما سقطت فى يد السلطان محمد عام ١٤٥٣م والهزائم المتلاحقة للأتراك خارج فيينا عامى ١٥٢٩م و ١٦٨٣م إلى تسرب الخوف فى نفوس الحكام الأوروبيين. وتاريخ البلقان فى ظل الحكم العثمانى يوفر أمثلة على الوحشية التى ضربت جذوراً عميقة فى مشاعر الغربيين. ولكن التهديد لم يكن فى اتجاه واحد فحسب ، فبعد غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨م وما تلاه من غزوات وفتوحات فى القرن التاسع عشر تغيرت الصورة وأصبحت الدول الغربية تحتل جميع العالم العربى تقريباً، وبدا أن انتصار أوروبا على المسلمين اكتمل بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية. صحيح أن أيام الفتوحات تلك قد انتهت ، ولكن موقفنا من الإسلام لا يزال يعانى حتى الآن، لأن أسلوب فهمنا له اتجه نحو التطرف والسطحيات فكثيرون منا فى الغرب ينظرون إلى الإسلام بمنظار الحرب الأهلية المأساوية فى لبنان وأعمال القتل والتفجير التى تقوم بها جماعات متطرفة فى الشرق الأوسط وبمنظار ما يشار إليه عموماً بعبارة "الأصولية الإسلامية".

لقد عانى حكمنا على الإسلام من التحريف الجسيم نتيجة الاعتبار بأن التطرف هو القاعدة. إن هذا خطأ جسيم ، فهو مثل الحكم على نوعية الحياة فى بريطانيا من خلال وجود جرائم القتل والاغتصاب والاعتداء على الأطفال وإدمان المخدرات. صحيح أن التطرف موجود ولابد من معالجته، ولكنه عندما يستخدم أساساً للحكم على مجتمع فإنه يؤدى إلى التحريف. فمثلاً، كثيراً ما يجادل الناس فى هذه البلاد بأن قوانين الشريعة فى العالم الإسلامى قاسية ووحشية ومجحفة ، ويروق لصحفنا فى المقام الأول ، أن تروج هذه الأفكار الاعتباطية المجحفة ، والحقيقة بالطبع مختلفة

وأكثر تعقيداً على الدوام. وفهمي الشخصي هو أن النواحي المتطرفة نادراً ما تمارس، ولابد أن المبدأ الموجه وروح الشريعة الإسلامية المستمدين من القرآن الكريم ينصان على الإنصاف والرحمة.

علينا أن ندرس التطبيق الفعلي للشريعة قبل أن نصدر أحكامنا، وعلينا أن نميز بين أنظمة العدالة التى تدار باستقامة وأنظمة العدالة كما نراها قيد التطبيق والتى قد حرفت لأغراض سياسية وتحولت إلى شيء لم يعد إسلامياً. علينا أن نتذكر أيضاً النقاش الحاد الدائر فى العالم الإسلامى نفسه حول مدى شمولية وأبدية الشريعة الإسلامية والدرجة التى يتغير ويتطور بها تطبيق القانون باستمرار.

علينا أيضاً أن نميز بين الإسلام والعادات المألوفة فى بعض الدول الإسلامية ، وثمة إجحاف غربى واضح فى الحكم على وضع المرأة فى المجتمع الاسلامى من خلال الحالات المتطرفة ، مع أن تطبيق الإسلام ليس متماثلاً فى كل البلدان، والصورة ليست بسيطة. وأرجو أن تتذكروا أن دولا إسلامية مثل تركيا ومصر وسوريا منحت نساءها حق التصويت فى نفس الفترة التى منحت فيها أوروبا نساءها الحق نفسه ، بل وقبل فترة طويلة من اتخاذ سويسرا نفس الخطوة. وفى هذه البلاد تتمتع النساء منذ وقت طويل بالمساواة فى مجال الأجور والفرصة للقيام بدور عملى كامل فى مجتمعاتهن، كما أن القرآن الكريم نص قبل أربعة عشر قرناً على حقوق المرأة المسلمة فى الأملاك والإرث وبعض الحماية فى حالة الطلاق وممارسة التجارة ، حتى وإن كانت هذه الحقوق لا توضع موضع التطبيق فى جميع الأماكن. وفى بريطانيا على الأقل كانت بعض هذه الحقوق غريبة حتى على جيل جدتى. لقد أصبحت بينظير بوتو والبيجوم خالدة ضياء رئيستين للوزراء فى مجتمعيهما التقليديين عندما شهدت بريطانيا أول رئيسة وزراء منتخبة فى تاريخها. إن هذا على ما أعتقد ليس سمة من سمات مجتمع من العصور الوسطى، والنساء لا يصبحن بشكل أوتوماتيكى مواطنات من الدرجة الثانية لأنهن يعشن فى بلدان إسلامية. ونحن لا نستطيع أن نحكم على وضع المرأة فى الإسلام بشكل صحيح إذا أخذنا أكثر الدول الإسلامية محافظة كمثال على كل الدول الإسلامية. فارتداء النساء

للبرقع مثلاً ليس عاماً فى كافة أرجاء العالم الإسلامى. والواقع أننى دهشت حين علمت أن عادة ارتداء البرقع ترجع إلى حد كبير إلى التقاليد البيزنطية والساسانية.

وهناك بعض النساء المسلمات اللاتى لم يرتدين الحجاب قط ، فى حين أن أخريات أقلعن عن ارتدائه ، بينما بعض النساء ـ وخاصة الشابات ـ اخترن فى الفترة الأخيرة أن يرتدين الحجاب أو منديل الرأس كتعبير شخصى عن هويتهن الإسلامية. ولكن لا يجوز لنا أن نخلط بين اللباس المحتشم الذى نص عليه القرآن الكريم للرجال والنساء على حد سواء وبين المظاهر الخارجية المنبثقة من عادات علمانية أو مركز اجتماعى ترجع فى أصلها إلى أماكن أخرى.

علينا فى الغرب أن نفهم نظرة العالم الإسلامى إلينا ، فالمرء لا يجنى مكسباً بل يتسبب فى كثير من الأذى إذا رفض تفهم مدى التخوف الحقيقى لكثير من الناس فى العالم الإسلامى من ماديتنا الغربية وثقافتنا الشعبية باعتبارها تحدياً فتاكاً لثقافتهم ونسق حياتهم الإسلامى. وقد يظن البعض أن الزخارف المادية لمجتمعنا الغربى التى نصدرها إلى العالم الإسلامى من التليفزيون ووجبات الطعام السريعة ، والأجهزة الإلكترونية التى نستعملها فى حياتنا اليومية ربما تنطوى على تأثير جيد بحد ذاتها، وتستهدف العصرنة ولكننا نسقط فى فخ الغطرسة إذا نحن خلطنا بين "العصرنة" فى البلدان الأخرى وبين تحويلها إلى أشباه لنا.

وحقيقة الأمر هى أن شكل المادية لدينا يمكن أن يجرح مشاعر المسلمين الأتقياء، ولا أعنى بذلك المتطرفين منهم فحسب. علينا أن نتفهم رد الفعل هذا بقدر ما على العالم الإسلامى أن يتفهم موقف الغرب من بعض النواحى الصارمة فى الحياة الإسلامية. علينا أن نحذر تلك التسمية المثيرة للعواطف " الأصولية" ونميز كما يفعل المسلمون أنفسهم بين دعاة الصحوة الدينية الذين يختارون ممارسة دينهم بأعلى درجات التقوى وبين المتعصبين أو المتطرفين الذين يستخدمون التقوى لتحقيق أهداف سياسية. ومن بين الأسباب الدينية والاجتماعية والسياسية لما يمكن أن نسميه على نحو أدق بالصحوة الإسلامية شعور قوى بخيبة الأمل من جراء الإدراك بأن

التكنولوجيا الغربية والأشياء المادية ليست كافية وبأن مغزى أعمق للحياة يكمن فى مكان آخر فى جوهر العقيدة الإسلامية.

علينا فى الوقت نفسه ، ألا ننساق وراء الاعتقاد بأن التطرف هو سمة المسلم وجوهره ، فالتطرف ليس حكراً على الإسلام بل ينسحب على ديانات أخرى بما فيها الديانة المسيحية. والغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال من الناحية السياسية وإن كانوا أشخاصاً أتقياء، ودينهم هو دين "الاعتدال" والنبى محمد - ﷺ - نفسه كان يمقت التطرف دائماً ويخشاه. ولعل الخوف من الصحوة الإسلامية التى ظهرت فى الثمانينيات أخذ يتحول الآن فى الغرب إلى تفهم للقوى الروحية الحقيقية الكامنة وراء هذا المد ، ولكن إذا كان لنا أن نفهم هذه الحركة الهامة ، علينا أن نتعلم التمييز بشكل واضح بين ما تؤمن به الغالبية العظمى من المسلمين وبين أعمال العنف المروعة التى تقوم بها أقلية صغيرة بينهم والتى يتعين على الناس المتحضرين فى كل مكان أن يدينوها.

إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم فى الغرب لطبيعة الإسلام ، فإن هناك أيضاً قدراً مساوياً من الجهل بالفضل الذى تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامى وأعتقد أن الفشل ينبع من النظرة الجامدة للأفكار التى ورثناها ، فالعالم الإسلامى فى العصور الوسطى، من آسيا الصغرى إلى شواطئ الأطلسى، كان عالماً ازدهر فيه الباحثون المختصون ورجال العلم ، ولكن بالنظر إلى أننا نميل إلى اعتبار الإسلام عدواً للغرب ونظام عقيدة وثقافة ومجتمعاً غريباً، فقد جنحنا إلى تجاهل أو محو أهميته بالنسبة لتاريخنا. فقد قللنا من أهمية ٨٠٠ سنة من المجتمع والثقافة الإسلامية فى إسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر. لقد تم الاعتراف منذ عهد طويل بمساهمة إسبانيا فى ظل الحكم الإسلامى فى الحفاظ على العلوم والمعارف الكلاسيكية خلال عصور الظلام وفى اللبنات الأولى للنهضة الأوروبية ، ولكن إسبانيا فى عهد المسلمين كانت أكثر من مجرد مخزن حيث احتفظت بالمعارف والعلوم الإغريقية التى استفاد منها فيما بعد العالم الغربى العصرى الذى أخذ فى الظهور.

فإسبانيا فى عهد المسلمين لم تقم فقط بجمع المحتوى الفكرى للحضارة اليونانية والرومانية بل فسرت تلك الحضارة وتوسعت بها وقدمت مساهمة هامة من جانبها فى كثير من مجالات البحث الإنسانى ـ فى العلوم، والفلك والرياضيات، والجبر (الكلمة نفسها عربية)، والقانون، والتاريخ ، والطب ، وعلم العقاقير، والبصريات، والزراعة ، والهندسة المعمارية ، وعلم الدين ، والموسيقى ـ وقد ساهم ابن رشد وابن زهر، على غرار نظيريهما ابن سينا والرازى فى الشرق ، فى دراسة الطب وممارسته بطرق استفادت منها أوروبا لقرون عديدة بعد ذلك.

لقد شجع الإسلام البحث والتنقيب وحافظ عليهما، وثمة قول مأثور جاء فيه : "إن حبر العالم أقدس من دم الشهيد ". لقد كانت قرطبة فى القرن العاشر أكثر المدن تحضراً. فنحن نعرف عن وجود مكتبات عامة فى إسبانيا، فى الوقت الذى كان فيه الملك «ألفريد» يرتكب أخطاء جسيمة فى هذه البلاد. ويقال إن مكتبة حاكم قرطبة كانت تضم ٤٠٠,٠٠٠ مجلد أى ما يزيد على عدد الكتب فى جميع المكتبات فى بقية أوروبا معاً. وقد كان ذلك ممكناً لأن العالم الإسلامى اكتسب من الصين مهارة صنع الورق قبل أكثر من أربعمائة عام من حصول أوروبا غير المسلمة على تلك المهارة ، كما أن كثيراً من المزايا التى تفخر بها أوروبا العصرية جاءت أصلاً من إسبانيا أثناء الحكم الإسلامى. فالدبلوماسية وحرية التجارة والحدود المفتوحة وأساليب البحث الأكاديمى وعلم الاجتماع وآداب السلوك وتطوير الأزياء والطب البديل والمستشفيات جاءت كلها من تلك المدنية العظيمة.

وقد كان الإسلام فى العصور الوسطى ديناً يتسم بقدر لافت للنظر من التسامح بالنسبة لتلك الحقبة ، فقد منح اليهود والمسيحيين الحق لممارسة معتقداتهم الموروثة، وكان بذلك قدوة لم تحتذ بها للأسف دول كثيرة فى الغرب ، والمدهش هو مدى تشكيل الإسلام جزءا من أوروبا لفترة زمنية طويلة ، أولاً فى إسبانيا ثم البلقان ، ومدى مساهمته فى الحضارة التى كثيراً ما نعتقد خطأ أنها غربية بأكملها. إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا فى جميع مجالات البحث الإنسانى وقد ساهم فى إنشاء أوروبا المعاصرة. إنه جزء من تراثنا وليس شيئا منفصلاً عنه.

وعلاوة على ذلك فإن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش فى العالم، الأمر الذى فقدته الديانة المسيحية مما أدى إلى ضعفنا ، ويكمن فى جوهر الإسلام حفاظه على نظرة متكاملة للكون ، فالإسلام وعلى غرار الديانتين البوذية والهندوسية يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة ، والدين والعلم كما حافظ على نظرة غيبية وموحدة للبشر والعالم من حولهم ولا تزال فى جوهر الديانة المسيحية نظرة متكاملة لقداسة العالم وشعور واضح بالوصاية والمسئولية عن محيطنا الطبيعى.

يقول الشاعر ومؤلف التراتيل المبدع من القرن السابع عشر جورج هربرت :

«عندما ينظر إنسان إلى الزجاج، قد تبقى عينه مسمرة عليه إن أراد ، وعندها يبصر السماء» .

ولكن الغرب فقد هذه الرؤية المتكاملة للعالم تدريجياً مع ظهور كوبرنيكوس وديكارت ومجيء الثورة العلمية. ولم تعد الفلسفة الشاملة للطبيعة جزءاً من معتقداتنا اليومية. ولا يسعنى إلا أن أشعر بأننا لو تمكنا الآن من اكتشاف هذه النظرة السابقة والشاملة للعالم حولنا من جديد لفهم معناه الأعمق ، لأمكننا البدء فى الابتعاد عن الميل المتزايد فى الغرب نحو العيش على سطح محيطنا حيث ننكب على دراسة عالمنا بغية استغلاله والهيمنة عليه محولين التناغم والجمال إلى اختلال فى التوازن . ومن المؤسف كما أعتقد أن العالم الخارجى الذى أنشأناه خلال بضعة قرون سابقة قد أصبح من عدة وجوه يعكس شعورنا الداخلى المقسم والمشوش. لقد أصبحت الحضارة الغربية بالكسب واستغلاله على نحو متزايد بما يتنافى مع مسئوليتنا البيئية . إن هذا الشعور الهام بالوحدانية والوصاية على الطابع القدسى والروحى للعالم حولنا شىء مهم ، يمكن أن نتعلمه من الإسلام ، إننى على ثقة بأن بعض الناس سيسارع فى اتهامى ، كما يفعل عادة ، بأننى أعيش فى الماضى وأننى أرفض التأقلم مع الواقع والحياة العصرية. إن الأمر على عكس ذلك فما أدعو إليه هو فهم أوسع وأعمق ومتأنٍّ أكثر لعالمنا ، إننى أدعو إلى إيجاد بعد غيبى بالإضافة إلى البعد المادى لحياتنا بغية استعادة التوازن الذى تخلينا عنه والذى أعتقد أن غيابه

سيثبت أنه مدمر فى الأمد الطويل. وإذا كانت أساليب التفكير الموجودة فى الإسلام والديانات الأخرى يمكن أن تساعدنا فى هذا السبيل فإن هناك أشياء يمكن أن نتعلمها من نظام العقيدة هذا ، والتى أرى أننا نتجاهلها بشكل يلحق بنا الخطر.

ويواصل الأمير شارلز حديثه الذكى والشيق أمام جمع من علماء المسلمين فى بريطانيا: إننا نعيش الآن فى عالم واحد يتميز بالاتصالات الفورية بالتليفزيون وتبادل المعلومات على نطاق لم يحلم به أجدادنا ، والاقتصاد العالمى يعمل على شكل كيان متكامل. إن مشكلات المجتمع ونوعية الحياة والبيئة عالمية فى أسبابها وآثارها ، ولم يعد بوسع أى منا أن يحلها وحده. والعالمان الإسلامى والغربى يشتركان فى مشكلات تمسنا جميعاً :كيف نتكيف مع التغيير فى مجتمعاتنا؟ وكيف نساعد الشباب الذين يشعرون بأنهم غرباء عن ذويهم أو قيم مجتمعهم ؟ وكيف نتعامل مع مشكلة مرض الإيدز والمخدرات وتفكك العائلة ؟

من الطبيعى أن هذه المشكلات تتفاوت فى طبيعتها وشدتها بين مجتمع وآخر، فمشكلات الأحياء الشعبية فى مدننا ليست مطابقة لمثيلاتها فى القاهرة أو دمشق ، ولكن التشابه كبير فى التجربة الإنسانية. ومن الأمثلة على ذلك التجارة العالمية فى المخدرات ، وثمة مثال آخر هو الضرر الذى نلحقه بشكل جماعى ببيئتنا. علينا أن نعمل معاً لحل هذه المشكلات التى تهدد مجتمعاتنا وحياتنا ، فمجرد تعرفنا على بعضنا البعض يمكن أن يؤدى إلى تحقيق العجائب. إننى أتذكر بوضوح مثلاً عندما اصطحبت مجموعة مسلمين وغير مسلمين قبل بضع سنوات للاطلاع على مركز مارليبون الصحى فى لندن الذى أتولى رعايته لقد كان الحماس والتصميم اللذان أسفرت عنهما تلك التجربة المشتركة مشجعين للغاية.علينا أن نتعلم تفهم بعضنا البعض ، وعلينا أن نعلم أبناءنا من الجيل الجديد الذى قد تختلف مواقفه ونظرته الثقافية عنا كى يتمكنوا من الفهم أيضاً. علينا أن نظهر الثقة والاحترام المتبادل والتسامح إذا كان لنا أن نعثر على القاسم المشترك بيننا ونعمل معاً لإيجاد الحلول. إن أسلوب المبادرة الاجتماعية الذى تتبعه الجمعية التى أتولى رعايتها ومشروع

المتطوعين الناجح للغاية الذى نظمته لبضعة أعوام يظهران مدى ما يمكن إنجازه من خلال الجهد المشترك الذى يتجاوز الطبقات والثقافات والأديان.

لم يعد بوسع العالمين الإسلامى والغربى أن يسمحا للانقسام بأن يمنعهما من بذل جهد مشترك لحل مشاكلهما المشتركة. هناك مثال رائع لعمل ثقافاتنا فى مجال مشترك فى الطريق الذى تعمل فيه المملكة العربية السعودية مع جامعة أوكسفورد لتأسيس مركز للبحث فى مرض الشيزوفرينيا لمنظمة تدعى "سين" التى أقوم أنا برعايتها كذلك ، ولا يسعنا أن نبعث من جديد مجابهات الماضى من إقليمية وسياسية. علينا أن نطلع بعضنا البعض على تجاربنا ونشرح مواقفنا لبعضنا البعض ، ونتفاهم ونتسامح ونبنى على أساس المبادئ الإيجابية التى تشترك فيها ثقافتنا ، ولابد أن تكون هذه المشاركة فى اتجاهين ويحتاج كل منا لأن يفهم أهمية المصالح "والتدبر" وأن نفتح عقولنا وقلوبنا لبعضنا البعض ، إننى على قناعة تامة بأن العالمين الإسلامى والغربى يمكن أن يتعلما كثيراً من بعضهما البعض ، فكما أن مهندس النفط فى الخليج يمكن أن يكون أوروبياً ، فإن جراح زراعة القلب فى بريطانيا يمكن أن يكون مصرياً.

ويتمسك الأمير البريطانى بضرورة التسامح الذى نأمل أن يتجاوب مع دعوته كل المتطرفين فى الغرب ويقول: إذا كانت هذه الحاجة للتسامح والتبادل تصح على المستوى الدولى، فإنها تنطبق بقوة خاصة داخل بريطانيا نفسها، فبريطانيا مجتمع متعدد الأجناس والثقافات وكنت قد ذكرت فى البداية حجم الجالية الإسلامية التى تعيش فى شتى أرجاء بريطانيا سواء فى المدن الكبيرة مثل برادفورد أو القرى الصغيرة الواقعة فى مناطق نائية مثل ستورناواى فى غرب اسكتلندا. هؤلاء الناس هم ذخر لبريطانيا، فهم يساهمون فى كافة مناحى اقتصادنا فى الصناعة والخدمات العامة والمهن والقطاع الخاص. إننا نجد بينهم المدرسين والأطباء والمهندسين والعلماء إنهم يساهمون فى صالحنا الاقتصادى كدولة ويغنون الثروة الثقافية فى بلادنا. ولكن التسامح والفهم يجب أن يكون فى اتجاهين طبعاً ، فبالنسبة لغير المسلمين بيننا قد يعنى احترام ممارسة الشعائر اليومية فى العقيدة الإسلامية والحرص على تجنب القيام

بأية أفعال يحتمل أن تسبب إساءة عميقة ، أما بالنسبة للمسلمين فى مجتمعنا فهناك حاجة إلى احترام تاريخ بلادنا وثقافتها ونسق الحياة وموازنة حريتهم فى الحفاظ على شخصيتهم مع تقدير أهمية الاندماج فى مجتمعنا إننى آمل أن نتعلم جميعاً إظهار ذلك بينما يتنامى التفاهم بين هاتين الطائفتين من السكان ، إننى لا أملك إلا أن أعبر عن الإعجاب والتقدير لأولئك الرجال والنساء الذين ينتمون إلى طوائف عديدة والذين يعملون دون كلل فى لندن وجنوب ويلز وأماكن أخرى لتشجيع العلاقات الجيدة بين السكان ، إن مركز الدراسات الإسلامية والعلاقات المسيحية الإسلامية فى برمنجهام هو مثال مرموق وناجح بشكل خاص فى هذا المجال وأعتقد أن علينا أن نشعر بالامتنان للتفانى والقدوة الحسنة التى يوفرها أولئك الذين كرسوا أنفسهم لقضية تشجيع التفاهم.

وقبل أن يغادر القاعة أصر الأمير تشارلز على نفى احتمالات الصدام بين الإسلام والغرب على عكس الدعوات القادمة من الشاطئ الآخر فى الولايات المتحدة وقال: إذا كانت أنظاركم قد وقعت خلال نصف الساعة الماضى على التصوير البديع للحقيقة وهى تهبط على الفنون والعلوم فى السقف الذى صممه (سير روبرت ستريتز) فوقكم، فإننى واثق بأنكم لابد أن تكونوا قد لاحظتم الجهل وقد طرد بعنف من الحلبة إلى هناك أمام صندوق خارج القاعة ، ولكن قبل أن أنصرف لا يسعنى إلا أن أؤكد بقوة القضايا التى حاولت التطرق إليها على نحو غير كامل. إن هذين العالمين الإسلامى والغربى ، قد وصلا الآن إلى ما يشبه مفترق طرق فى علاقاتهما، ولا يجوز أن ندعهما يفترقان. وأنا لا أوافق على مقولة أنهما يتجهان نحو صدام فى عهد جديد من الخصومة والعداء ، بل إننى على قناعة تامة بأن لدى عالمينا الكثير لكى يقدماه إلى بعضهما البعض ، وهناك الكثير مما يتعين أن نقوم به معاً. إننى سعيد لأن الحوار قد بدأ فى بريطانيا وأماكن أخرى ، ولكن سيظل علينا أن نعمل بجد واجتهاد كى نفهم بعضنا البعض ونزيل أية سموم بيننا ونقضى على شبح الشك والخوف. وكلما قطعنا شوطاً أطول على هذا الدرب ، تحسنت نوعية العالم الذى سنقيمه لأبنائنا وأجيالنا المستقبلية».

مغامرات جنسية فى القصر الملكى

ظل شبح الإسلام يطارد بعض الملوك فى بريطانيا العظمى على مر العصور. وأثار هوس اعتناق الإسلام العديد من الأمراء والأميرات فى القصر الملكى ، العريق، وكانت الأميرة ديانا آخر ضحايا هذا الهوس أو تلك الشائعات وربما تكون قد دفعت حياتها ثمناً لعلاقاتها غير الشرعية بعدد من المسلمين من بينهم الجراح الباكستانى (حسنات خان) ثم دودى الفايد ابن المليونير المصرى محمد الفايد ، فقد غفر لها القصر كل الخيانات وكل العلاقات الجنسية مع البريطانيين ، بعضهم موظفون وعمال فى القصر الملكى ، لكن يبدو أنهم رفضوا الصمت على علاقاتها مع مسلمين. وأكبر خطأ ارتكبته هذه الأميرة اعترافها علانية على شاشات التليفزيون بالخيانة وارتكاب جريمة الزنى ومع ذلك لم تفقد سحرها وتعاطف الشعب البريطانى معها. ويعتبر هذا السرد المختصر للمغامرات الجنسية للأميرة ديانا صورة تتكرر خلف العديد من أبواب البيوت البريطانية الأنيقة.

والأميرة ديانا يسميها البعض الأسطورة ويسميها البعض المأساة ، فهى نشأت فى أسرة أرستقراطية ثرية تتصل بالأسرة المالكة البريطانية من بعيد.

فى سن السادسة تعرضت لمحنة عاطفية قوية تمثلت فى طلاق أمها ، وبعد أن عانت الأم إهمال الزوج تعرفت على زوج فنانة معروفة وغرقت معه فى علاقة غير شرعية ، بينما انتهزت الفنانة الفرصة كى تطلب الطلاق من الزوج واتهمت أم ديانا بالزنى . وفى تلك الأيام صارت ديانا وإخوتها موضوعاً للصحف ، فالأم تريد حضانة الأطفال ، والأب يرد بأنها لا تصلح لأنها متهمة فى جريمة زنى. وكانت صدمة.. لكنها أيضاً كانت أحداثا أثرت على شخصية ديانا التى عاشت موزعة المشاعر ، ولكنها استطاعت أن تكمل تعليمها بعد أن تلقته فى مدارس خاصة بانجلترا ثم أنهته فى سويسرا وانتقلت إلى لندن لتعمل معلمة فى دار لحضانة الأطفال ، وكانت البنت المرحة التى تحب الرقص وموسيقى البوب والتى سرعان ما تحولت إلى إحدى (الأنتيكات) الفاخرة فى قصر باكنجهام ، وحكاية انتقالها للقصر

الملكى بدأت عندما أعجبت ديانا أعضاء الأسرة الحاكمة فدعوها إلى حفل على متن اليخت الملكى «بريتانيا» ولم يتصور الجميع إلا أن تكون صديقة الأمير ولم يخطر ببالهم أبداً أنها ستصبح زوجة ولى العهد.

إلا أن الأمير تشارلز سرعان ما أرسل لها باقة ورد بعد عودتها من رحلة اليخت الملكى التى دعتها إليها « الأميرة مارجريت» ووافقت الملكة وتم الزواج.

إلا أن البعض يدحض هذه الرواية برواية أخرى حول لقاء تم فى يوليو عام ١٩٨٠ فى منطقة «ساسكي» جنوب إنجلترا حيث كانت ديانا والأمير تشارلز ضيفين على مأدبة مشويات فى منزل ريفى لدى أصدقاء مشتركين ووجدا نفسيهما يجلسان جنباً إلى جنب ويدخلان فى الحديث فوراً . ذلك الحديث الذى دار حول موت «لورد مونتباتن» الذى قتل على أيدى منظمة الجيش الجمهورى الأيرلندى ، وكانت ديانا قد شاهدت مراسم الدفن على شاشة التليفزيون ووجدت نفسها تقول للأمير «كنت تبدو حزيناً جداً خلال الجنازة» وتابعت : «كانت أكثر اللحظات التى شاهدتها مأساوية. قلبى قطر دماً من أجلك وشعرت بأنه من الخطأ أنك وحيد يجب أن يكون هناك من يهتم بك».. وكأنها تشير إلى نفسها. ومن هنا بدأت قصة الحب الملكية. حتى كان ٢٤ فبراير عام ١٩٨١ أى بعد عيد الحب بعشرة أيام احتفل العالم بزفاف القرن ولى عهد بريطانيا يتأبط ذراع السندريلا ويخرجان من كاتدرائية « سانت بول» إلى قصر باكنجهام أمام مرأى ومسمع الملايين التى احتشدت لمشاهدة الزفاف أو الذين شاهدوها عبر شاشات التليفزيون. وفى شهر العسل شعرت بأن زوجها ليس هو الرجل الذى عرفته قبل الزواج وشعرت أنه مشغول بشيء ما يبعده عنها وقد تركها فى يوم ما للقاء سيدة أخرى لم تعرفها ديانا ، نعم لقاء فى شهر العسل فهو لم يستطع تأجيل خيانته لما بعد شهر العسل ولكن ديانا كانت تسعى لعدم تكرار مأساة والدتها ، وحاولت اجتذاب الأمير نحوها عبر مغالاتها فى الاهتمام بمظهرها لكنها استطاعت عبر ذلك أن تجتذب العالم بأسره إلا زوجها الذى بقى بعيداً ولا تعرف أين ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت بوادر الحمل تظهر عليها ومن الفرحة نسيت كل ما حصل حتى لقاء شهر العسل نسيته أيضاً.

وفى ٢١ يولـيو ١٩٨٢ رزقت بابنها الأول «وليام» فـملأ عليـها حياتـها وبدأت تهرب من مشاكل الأب بمداعبة الابن وشيئـاً فشيئاً حاولت أن تعيد الود أو أن تكون زوجة فاضلة سعيدة حتى رزقت بابنها الثانى «هارى» فى ١٥ سبتمبر ١٩٨٩ وعندما أقنعـت نفسهـا بأن لا أمل فى صـلاح زوجها وأن الولديـن لـم يستـطيعا أن يـجذباه نحوها كـما لم يجذبه جـمالها وأناقتـها من قبل ، فمـاذا عساها أن تفعـل وهى تحيا وسط عالم يحيطها برجال والبروتوكول الأمنى الذى كان بالنسبة لها شيئاً موحشاً .

وبعد أن احتضنت ابـنها الأول فى صيف ١٩٨٢ كانت تبدو هادئة وسـعيدة بينما كان بداخلهـا شىء يشبه الزلزال وأصيبت باكتئاب نفسى حـاد بعد الولادة وراحت تراجع الأطباء النفسانيين الذين نصحوها بمحاولة التكيف مع الوضع الجديد ، فقدت الأميرة شهيـتها للطعام وأصيبت بالأنيميا ـ وهو المرض الذى أطلق عليه فيـما بعد «مرض الأمـيرة ديانا» ـ حـتى فكرت أن تـضع حداً لـكل هذه التـعاسة بأن حـاولت الانتحار ولـكن بطريقة مختـلفة هذه المرة إذ إنها حاولـت أن تقطع يدها ومعصـميها كى تضع حداً لحياتها ، ولأن شبح والدتها المتـمثل بالطلاق كان يطاردها سقطت فى دوامة مرعبة ، ماذا عساها أن تفعل؟!

ونصحها الأطـباء بالانشغال بابنها أو أن تـسعى للحصول على طـفل آخر يجدد روتين الحيـاة الكئيبـة التى تحياهـا فكان لهـا ما أرادت أو ما أراده لها الأطـباء ووقف الزوجان أمام كاميرات المصورين والابتسامة تعلو وجهيهما فرحاً بولى العهد الجديد ولكن شيئـاً ما كان بداخلهما. وحاولـت الانشغال بالخدمة العامـة وعزمت فى قرارة نفسها ألا تكرر المأساة..

لم تجد طريقاً آخر تسـلكه بعد أن خسرت اهتمام زوجها وتماديه فـى خيانته لها ، سوى طريق الضياع.

وقد كانـت تعانى من الـضياع فعلاً بـسبب ابتـعاد زوجها عنـها وانشغالـه بامرأة أخرى وقد صرحت بذلك فى اللقاء التليفـزيونى الشهير « بانوراما» الذى قالت فيه: إن هناك ثـلاثة أشخاص فـى عش الزوجيـة وإن ذلك يجعـل المكان ضيـقاً لأى أحد منهم!!

وقد حاولت أو سعت الليدى لجذب الأمير نحوها وطرد المرأة الأخرى لكنها استطاعت أن تجذب الجميع بينما فشلت فى جذب الأمير.

أما عشاقها - سواء كانوا حقيقيين أم وهميين صنعهم الإعلام - فهم كثيرون وقد ذاع صيتهم حتى قبل طلاقها من الأمير تشارلز. ومهما وصل عدد الذين وضعت رأسها فوق صدورهم أو وسائدهم فسيبقى أشهرهم هو النقيب «جيمس هيوتى» الذى تسلل إلى حياتها فى غياب الأمير وبالتدريج نما الحب بينهما ، إذ كان يدربها وولديها على ركوب الخيل وكان ضابطاً وسيماً وجذابا فضعفت قدرتها على المقاومة واستسلمت له فى أول لقاء ووفقا لعشرات الكتب ومئات المقالات الصحفية التى رصدت مشوار الأميرة فى النهاية ، فقد أصيب الرأى العام البريطانى بالصدمة عندما عرف للمرة الأولى أن ديانا تعيش أسيرة زواج خال من الحب وأنها عاشت مرحلة اكتئاب وفقدان الشهية وحاولت الانتحار. وللمرة الأولى يزاح الستار عن علاقة بين الأمير وسيدة متزوجة وثارت الخلافات بين الزوجين ولم يعد الاثنان يخبئان شيئاً ثم بدأت الصحف بإيعاز من الأمير بشن حملة غير مسبوقة على الليدى ديانا أميرة الشعب - كما وصفها تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا - تلك الحملة التى تجرأت بنشر نص مكالمة صوتية بين ديانا وشخص معجب بها.

واستمرت حملة التشويه الإعلامية ضد الأمير حتى أعلن رئيس وزراء بريطانيا السابق «جون ميجور» رسمياً انفصال الأمير تشارلز عن الليدى ديانا فى ٩ ديسمبر ١٩٩٢.

وبعدها تهور ولى عهد بريطانيا وظهر على شاشات التليفزيون ليعترف بأنه لم يحب ديانا أبداً . وأكد أنه دفع إلى الزواج منها بضغط من أبيه الذى ظل يخافه وهو فى الأربعين من عمره وازداد تهوره عندما اعترف بأنه مارس الجنس مع كاميلا «المرأة الأخرى».

هنا وصلت الغيرة ذروتها لدى الأميرة ديانا فأسرعت باتجاه شاشات التليفزيون هى الأخرى وبالفعل اعترفت بالزنى على شاشات التليفزيون ، وحول هذا الاعتراف تقول : «لقد كان أكبر خطأ فى حياتى هو اعترافى على شاشات التليفزيون

بأنـني زنيـت وقد فـعلت ذلـك لأغيظ زوجـي والمحيـطين به وقـد نصحـني بـذلك المحيـطون بى لكـنهم خـدعوني وظـلموني كـما أن أهلـي لم يكـونوا في المسـتوى المطلوب» ، وفـي مقابلة بى. بى. سـى الشهيرة « بانـوراما» اعترفت بمغامـرة لها مع ضابط سلاح الـفرسان «جيمس هيـوتى» وأضافت : «نعم أخون زوجـي وكانت لى بالنقيب هيوتـى علاقة تجاوزت الصداقة وكنت فعلاً أحبه» ، ولعـل هيوتى هو أشهر عشاق الـليدى لا لأنه الأول أو لأنها اعـترفت بخيانـة زوجها من أجله فـحسب ولا لأنها اعترفت بحبها له علانية ، ولكن لأنه كان نموذجاً مثالياً للعشيق النذل الذى لم يتوان عـن كشف مغـامراته الحمـيمة فى كتـاب يروى أسرار تلـك العلاقة بـعنوان « الأميرة العاشـقة» نشر فى أكتوبر عـام ١٩٩٤ وبيع منه ٧٤ ألف نسخـة بعد ساعات من صدوره فقـط ، وقبض هيوتى ٥ ملايين دولار مـقابل نشره إلا أن العائلـة المالكة اعتبرته كتاباً تافـها. أما ديانا فقد صدمت بالعشيق الذى أحبـته ثم راح يفضح أمرها ويكتـب كتابا عن عـلاقتها معـه ، فقالت «لقـد وثقت فيه وكـنت قلقة مـن ردة فعل أطفالى علـيه» ، ثم قالت : «لقد ضايقـنى ذلك فعلاً، لقد اتصـل بى عشرات المرات ليخبرنى بـأنه ليس فى الكتاب شىء يقـلقنى ولقد صدقته بغـباء» ، وأضافت : «من المؤلم جداً لى أن يقوم صديق وثقت فيه بكسب المال من ورائى».

وما أن اختفت قصة جيمس هيوتى حتى ظهرت قصة حب أخرى لديانا مع رجل آخر هو «أوليـفيه هوار» ـ ٤٨ عاماً ـ واحد مـن أفضل تجار التحـف الأثرية ، الذى تقـدم بشـكوى أواخر الـعام ١٩٩٣ لما تعرض لـه من مضـايقـات هاتفـية وكـانت مصدرها شقيقة ديانا التى تستخدم غرف الـهاتف العمومية الواقعة بالقرب من قصر (كنسجـتون الملكى) حيث كـانت تعيش ديانا ، وأحيـاناً كانت تأتى المضـايقات من تلـيفونات الـشقق الخاصـة للأميرة نـفسها. وفـى الواقع هذه الـشكوى لم تـكن إلا للتمويه عن علاقـته بالليدى وحتى لا ينكشف أمره وقد يـكون ذلك بسبب إخلاصه لها أو ربما بسـبب خوفه على مكانـته. إلا أن «بارى هودج» سائق المليـونير ، اعترف فى عام ١٩٩٥ بالمواعيد السـرية التى كانت تعقد قبل سنتين فى مـسكن للعزاب يقع خلف محطة فيكتوريا للقطارات أو فى مؤخرة أحد المطاعم الشهيرة بين بائع التحف

والأميرة «الخائنة».. ولم يقف الأمر عند هاتين العلاقتين فعلى ما يبدو أن الأميرة أدمنت الخيانة فعلاً أو أنها مصابة بالشراهة العاطفية للتنفيس عن إهمال تشارلز لها. إذ كانت كثيراً ما تشاهد بصحبة كابتن فريق انجلترا « ويلى كارلننج» ومثلما كشف سائق المليونير اعترفت سكرتيرة الكابتن هذه المرة لتكشف علاقتها ـ أى ديانا ـ به فقد نقلت فى أغسطس عام ٩٥ وبشكل أمين محادثات رئيسها مع الأميرة وقالت: «إنهما التقيا فى مركز شيلسى للرياضة الذى كانا يرتادانه معاً » فقد كانت تناديه «كابتن» بينما كان يناديها «رئيسة» ، وكان من الممكن ألا تتطور تلك القضية لو لا غيرة النساء إذ أقامت الزوجة الشرعية للكابتن الدنيا ولم تقعدها متهمة ديانا بأنها «مخربة فظيعة للعلاقات الزوجية». وقد أصاب ديانا السأم من جراء ما كان يلاحقها من شائعات كلما أقامت علاقة مما جعلها تلجأ لحارسها الشخصى تأثراً بالممثلة ويتنى هيوستن فى فيلمها الشهير« الحارس الشخصى» ، وبالفعل استحقت ديانا لقب مدمنة الخيانة عن جدارة لهذه العلاقة. كما لجأت فى عام ٩٥ إلى أحضان ملك العقارات «كريستوفر وايلى » وهو صديق لكابتن كارلننج الذى هجرته مرغمة تحت تهديد زوجته لتستبدله بصديقه الحميم!!

ومع كل هذه الفضائح المتتالية من علاقات واعترافات علنية على شاشات التليفزيون بممارسة الجنس والرذيلة وأشياء أخرى! ، قررت الملكة الأم أن ديانا لم تعد تليق بلقب زوجة الأمير وراحت تحث ابنها على الإسراع بطلاق ديانا الذى تم فى ٢٠ أكتوبر ١٩٩٥.

وقد ظن الناس أن ديانا سوف تتعقل وأن الرسالة ستصلها وستستوعبها جيداً وأنها ستحافظ على مكانتها التى وصلت إليها بكل ما أوتيت من قوة ، على الأقل من أجل مستقبل طفليها لكنها مضت فى طريق الخيانة.. فارتبط اسمها كثيراً مع جيمس غليب والملياردير الهندى غولد لاغانى كما ارتبط مع نجم الكريكيت المسلم الشهير عمران خان إذ كثيراً ما كانا يشاهدان سوياً وبرفقتهما صديقة الليدى الحميمة جمايما ابنة المليونير اليهودى جولد سميث ، ولشراهة ديانا العاطفية ظن الجميع أن هذا هو عشيق الأميرة الجديد وأن ظهور جمايما لم يكن إلا لتخفيف حدة الشائعات،

لكن أملهم خاب فعلاً حينما تخلت جمايما عن ديانتها اليهودية لتعلن إسلامها لتتزوجه وتغادر بريطانيا لتعيش معه فى باكستان ، لكن ظن الجميع لم يخب تماماً فحين ذهبت ديانا لزيارة صديقتها وزوجها فى باكستان ، صحباها فى زيارة لمستشفاهم فى كراتشى وهناك التقت بالجراح الشهير «حسنات خان» الذى سبق أن التقته فى المستشفى الملكى فى لندن حينما كانت تحضر عملية القلب المفتوح التى قام بها حسنات خان - ٣٦سنة - وهو الذى لم يكن سوى رجل سمين ذى شارب أسود ، ولم يكن غنياً أو جذاباً بأى حال من الأحوال إلا أن الليدى هامت به هياماً وباتت قصتها معه معروفة من القبلة الأولى إلى القبلة الأخيرة ، وهكذا امتدت قائمة عشاق ديانا التى وإن طالت لا بد أن تنتهى بالشاب المصرى دودى الفايد.

كانت ديانا تحاول أن تحدث توازناً من نوع ما فى مسيرتها أمام العدسات.. وبعيداً عن الفضائح والقصص الساخنة راحت تقوم بأعمال خيرية عديدة وهكذا قدمت نفسها سيدة للعمل الإنسانى .. تزور المستشفيات وترفع الروح المعنوية لمرضى الإيدز والسرطان وتعلق صور هؤلاء جميعاً فى بيتها.. ومن هنا قال عنها أحد محررى لوموند الفرنسية قبل مقتلها بأيام: «إن عاطفة ديانا تجاه هؤلاء ليست خدعة، إنها تملك بالفعل مشاعر دافئة . لقد قالت له : «من اليوم الأول لدخولى هذه العائلة لم ينجح أحد فى أن يغير من طبيعتى .. أو أن يجرفنى بعيداً عنها لقد تعلمت أن أعامل كل الناس على أنهم سواسية.. إننى أقرب إلى البشر العاديين» . وسألها المحرر : هل تقبلين مثلا فى تعاملك مع هؤلاء الذين تقومين بالأعمال الخيرة لهم لقب سفيرة ؟ فقالت : «إننى رسول».

وبالفعل فقد ترأست الليدى مجموعة من المؤسسات الخيرية وقامت بمساعدة مرضى الإيدز والسرطان بالإضافة إلى العديد من الحملات التى قادتها ضد الآلام فى أنجولا وزائير والبوسنة حتى إنها حينما بدأت الضجة حول علاقتها بدودى كانت تحزم حقائبها للسفر من لندن إلى البوسنة لتواصل حملتها لتحريم استخدام الألغام المضادة للبشر كما فعلت ذلك من قبل فى عدد من الدول الأفريقية الفقيرة ، ورغم ذلك كانت تتعرض للنقد فى كل يوم وكانت تقول رداً على هذا : لقد علمتنى الأيام

أن أكون أكبر من أى انتقاد ولا يعنى هذا أن هـجوم الصحفيين لا يجرح مشاعرى .. وإنما هو يفعل ذلك..ولـكن هذا فى نفس الوقت يجعلنى أصر بـكل قوة على المضى فى الطريق الذى اخترته لنفسى».

والكثير يتساءلون عن أى الطرق الذى اختارته لنفسها بمعنى هل هو الطريق الذى سلكـته فى حياتهـا العامة وأعمـالها الخيريـة أم هو الطريق الذى اخـتارته لـ حيـاتها الخاصـة وعشاقهـا الذين عـرفتهم ومـسلسـل الخيانة الـذى بدأ ولم يـنته بل أصبح كالإدمان.

ويذهب البـعض لمقارنة سلـوكها الشخصى بـسلوكها العـام وأين حدود الخاص والعـام أمام شخـصيـة عامة مـثل ديانـا عاشت حـياتهـا كلـها تحت الأضـواء وأمام العدسات؟

والسؤال الذى حاولت كل الكتب والصحف الإجابة عنه منذ رحيلها حتى الآن: هل ديانا بريئة أم مذنـبة ؟ وسواء كانت بريئة أم مذنبة ، ضحية أم جـانية فإنها كانت ملكة القلوب التى سحبت الأضواء من باقى أفـراد العائلة المالكة وأحبها الناس على الرغم من خطايـاها!! وبعد أن تم تمهيد الطريق لإعلان الانفـصال ثم الطلاق ورغم أن الطلاق لم يكن صادراً عـنها ، وإنما عنه هو كما قالت فى أكـثر من مناسبة إلا أن ديانا اختارت طريقها وأدارت ظهرها للـقصر الملكى فتمت إجراءات الطلاق فى٢٨ أغسطس ١٩٩٦ وحصلت بموجب التسوية على ١٦ مليون جنيه استرلينى وهو مبلغ كبير وتنازلت فى المقابل عن لقب صاحبة السمو الملكى ، ولكن ديانا لم تكن بحاجة لهذا اللقب فقد كانت الملكة التى أسرت قلوب الملايين الذين غفروا لها كل خطاياها وكانت بالإضافة إلى ذلـك أيضاً واحدة من أغنى سيدات بريطانيـا لديها مجوهرات من كـل نوع وعدد لا يحـصى من الـفساتين الـتى صممـها أشهـر مصممـى الأزياء واعتبرتها صحيفة « التايمز» واحدة من أغنـى الأغنياء فى بريطانيا بل أغنى من الأمير تشارلز نفسه خاصة بعد التسوية المالية السالف ذكرها وفى نفس الوقت يقدر البعض ثروتهـا بنحو ٤٠ ملـيون جنيـه استرلينـى كما قالت صـحيفة هـير الد تر بيـون عقب الحادث الغامض الذى أودى بحياتها.

وكان جزء من هذه الأموال ينفق على أعمال ديانا الخيرية والاجتماعية.. ولكنها ظلت تحافظ على مظهرها الجذاب ، ولكى تبقى دائما ملكة للقلوب كانت تنفق سنويا نحو ٨٠٠ ألف دولار على لوازم العناية بالصحة والجمال والنضارة رغم أنها لا تستخدم الماكياج.

وحسب معلومات سربها القصر بعد رحيلها كانت تنفق ٨٠٠ دولار فى الأسبوع على تصفيف الشعر ، و٧٥ دولاراً فى الأسبوع على المانكير والباديكير و ٣٧٤٤ دولاراً سنويا للعناية بالوجه وتدفع ١١٧٩ دولارا كل عام لمختلف أنواع الكريم الملطف من أشعة الشمس و٨٢٥ دولاراً فى الشهر لإجراء عملية شد للوجه من دون جراحة و٣٦٠ دولاراً ثمناً لفيتامينات النضارة وتشترى عطوراً بـ ٣٠٩٠ دولاراً وتنظف أسنانها وتلمعها بـ٧٨٠ دولاراً كل شهر وتدفع مصروفات أخرى من أجل أن تحافظ على لياقتها... فهى لها عضوية فى نواد صحية تكلفها ٣٧٥٠ دولاراً وتدفع لأحد هذه النوادى ١٨٠٠ دولار شهرياً وتدفع لمدربها الشخصى ـ مرة كل أسبوع ـ ٢٤٠٠ دولار.

وفوق هذا كان لديها تكاليف باهظة لـ شراء الملابس على أحدث الموضات إنها مثلا كانت تدفع ٦ آلاف دولار ثمناً للملابس الداخلية وتدفع ٣٠٠ دولار ثمنا للمشد الواحد «الكورسيه» و٣٠٠ دولار أخرى ثمناً لجورب الايرويبل و٧٢ ألف دولار للفساتين والقبعات وخمسة آلاف دولار لنحو ٢٤ زوجاً من الأحذية و٥ آلاف دولار لحقائب اليد وهى بذلك تسعى للتنفيس عن حرمانها بشراهتها الشرائية بشكل استعراضى وهى تشبه إلى حد كبير شراهتها العاطفية!!

أطفال شوكة فى قلب لندن

على الرغم من التقدم الهائل الذى حققته الدول الأوروبية فى مجالات الحياة المختلفة إلا أن شبح الانهيار الاجتماعى ومخاوف التفكك الأسرى مازالت تطارد

الشعوب الغربية وتحاصر تقدمهم وتهدد مستقبلهم خاصة أن الأسرة كنواة اجتماعية أصبحت فى طريقها للانقراض ، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن عملية الزواج بشكلها التقليدى فقدت بريقها وحل محلها العلاقات العابرة وتحولت الصداقة إلى البديل الطبيعى للزواج الشرعى وترتب على ذلك انخفاض عمليات الإنجاب وارتفاع أعداد الأطفال غير الشرعين الذين يمثلون النتائج التلقائية لعمليات الالتقاء الجنسى غير المنظمة. كما أن هناك مؤشرات حول انخفاض عدد سكان بعض الدول الأوروبية أو ثبات النمو السكانى فى بعضها الآخر.

وبعد أن أصبحت هذه المشكلة تمثل ظاهرة لجأ الاتحاد الأوروبى إلى تكليف فريق بحث على مستوى عال من التدريب لدراستها والوقوف على أسبابها. وصدر تقرير يتكون من ٥٠٠ صفحة نشرت الصحف البريطانية مضمونه حيث تناول أوضاع الزواج فى ٤٦ دولة أوروبية يصل عدد سكانها الإجمالى إلى ٨١١ مليون نسمة وتوصل التقرير الذى صدر فى نهاية عام ١٩٩٩ إلى أن حالات الزواج تتراجع فى معظم دول أوروبا وأن ٥٠٪ من النساء الأوروبيات فى سن الزواج هن فقط اللاتى ارتبطن بعلاقات زواج شرعى وعقود رسمية. بينما كانت النسبة فى السابق تصل إلى ٩٠٪.

ورصد التقرير تزايد عدد الولادات خارج إطار الزوجية حتى وصلت نسبتها وقت إجراء الدراسة إلى ٧٥٪ من عدد الأطفال المولودين فى حوالى عشر دول أوروبية ، بينما وصلت هذه النسبة إلى ٥٠٪ فى الدانمارك وفرنسا وألمانيا ، وحذر التقرير من أن هذه النسب فى تصاعد إذا لم تتخذ الحكومات خطوات جادة لوضع تشريعات تنظم عمليات الزواج والإنجاب بالطرق الشرعية ، خاصة أن طغيان الحياة المادية وانتشار البطالة وتهرب الشباب الأوروبى من تحمل المسئولية أدى إلى تفضيل الشباب إقامة علاقات جنسية وعاطفية مع النساء خارج الإطار القانونى واتفاق الطرفين على عدم الإنجاب ، مع أن معظم الحكومات الغربية تطبق نظم الضمان الاجتماعى وتوفر المساعدات لكل أسرة لديها أطفال فضلاً عن انتشار المؤسسات غير الحكومية التى تقدم الخدمات المجانية للأسر المحتاجة ومؤسسات أخرى

متخصصة فى تقديم خدماتها للأطفال ومن بينها جمعيات تتولى رعاية الأطفال غير الشرعيين حتى يصلوا إلى سن البلوغ وتصبح لديهم القدرة على الكسب والعمل ومثل هؤلاء الأطفال فى بريطانيا تعرضوا لكارثة إنسانية تكشفت أبعادها فى السنوات الأخيرة حيث تبين تعرض معظم الأطفال المنتمين إلى هذه الفئة إلى اعتداءات جنسية وحشية شاذة من بعض القائمين بالإشراف على هذه المؤسسات ونظرت المحاكم البريطانية وقائع مثيرة فى هذه القضية التى أصابت الرأى العام البريطانى بالدهشة من هول تفاصيلها والاعترافات الخطيرة التى أدلى بها الضحايا والتفاصيل التى وردت فى تقرير رسمى حول أفظع عملية استغلال جنسى للأطفال فى بريطانيا والتى شملت حوالى ٦٥٠ طفلاً تعرضوا للاستغلال الجنسى بصورة منظمة على مدى عشرين عاماً فى مراكز الرعاية الاجتماعية فى مقاطعة ويلز.

وكما جاء فى الصحف البريطانية أن وزير الصحة فى ذلك الوقت «آلان ميلبيرن» قرر تعيين «مدير لحقوق الطفل» مكلف بتنسيق عمليات التفتيش على المراكز المخصصة للأطفال والمراهقين ، وفى أثناء تقديمه التقرير المستقل الذى بدأ إعداده فى العام ١٩٩٦ أمام البرلمان ، قال الوزير المنتدب إلى مقاطعة ويلز «بول مورفى» «إنها مأساة أن يتعرض أطفال لمثل هذه المعاملة» ، موضحاً أن التقرير تضمن أسماء نحو مائتى شخص بعضهم تمت تبرئتهم والبعض الآخر توفوا أو اختفوا بينما تمت إدانة ٢٥ شخصاً .

وكانت محكمة تشكلت خصيصاً فى قرية «أولو» الواقعة فى منطقة ويلز قد استمعت لشهادات أكثر من خمسمائة شخص خلال ٢٠٣ أيام من الجلسات الساخنة ، فى تحقيق تكلف فى الإجمال حوالى ١٢ مليون جنيه استرلينى ، ووصف الشهود ، ومعظمهم أصبح اليوم من الراشدين المحبطين كلياً فظائع عن سوء المعاملة التى تعرض لها الضحايا الذين لم يبلغ بعضهم السبع سنوات فى حوالى أربعين مركزاً للرعاية الاجتماعية موزعة فى المنطقة حيث جرت الوقائع التى سردها التقرير بين العامين ١٩٧٤ و ١٩٩٣ .

كما كشفت التحقيقات أن ما لا يقل عن ١٢٠ ضحية انحرفوا فى السنوات التى تلت مغادرتهم المراكز.

ولفت التقرير الأنظار إلى مأساة أطفال لم يجدوا شخصاً جديراً بالثقة يروون له معاناتهم خصوصاً أن مسئولى هذه المؤسسات والعاملين الاجتماعيين المكلفين بحمايتهم كانوا أحياناً من جلاديهم.

وتنبه الرأى العام البريطانى إلى هول الفضيحة إثر سلسلة إدانات بالسجن تتراوح بين ست وعشر سنوات بتهمة الاعتداء الجنسى على أطفال من قبل إخصائيين اجتماعيين فى مقاطعة ويلز من بينهم مدير مراكز شهيرة لرعاية المشردين ، وفى هذا الصدد وصف «ستيفن ميسام» الذى يرأس جمعية للضحايا تجربته الشخصية وكيف كان يتعرض للاعتداءات الجنسية بصورة يومية فى أحد المراكز حيث وضع فيه وهو فى الثالثة عشرة للتخلص من ضرب والده. وكشف أمام المحكمة عن ٨٩ شخصاً فى الإجمالى من موظفين أو شركاء لهم من الخارج ،كما روى كيف كان يأتى المتهمون لاصطحاب الأطفال عند مدخل المركز ليقتادوهم بالسيارة حيث كانوا يعتدون عليهم جنسياً قبل إعادتهم مرة أخرى.

وكذلك كشف التحقيق عن إداريين فى المراكز الاجتماعية وعن رجال شرطة ومسئولين محليين ورجل أعمال وكاهن ونجل لورد شاركوا فى اعتداءات جنسية على أطفال أبرياء ، واستبعد التقرير الحكومى فرضية « مؤامرة لاستغلال الأطفال جنسياً» لكنه أقر بوجود شبكات منظمة فى هذا الحقل.

وفى العام ١٩٨٦ حاولت اليسون تايلور العاملة الاجتماعية فى أحد المراكز إخطار السلطات عن تلك الجرائم ، ولكنها طردت من مركز عملها بعد إجراء تحقيقات داخلية للخدمات الاجتماعية والشرطة جاءت نتيجتها سلبية ، غير أن الضغوط المتزايدة التى مارستها تايلور مدعومة من الصحافة أدت إلى إقناع الوزير المنتدب إلى مقاطعة ويلز فى تلك الآونة ، المحافظ والسياسى البريطانى الشهير وليام هيج ، بإعطاء الأمر بفتح تحقيق بسرعة لكشف حجم وفظاعة الفضيحة التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ بريطانيا.

فى الغرب . لافرق بيـن المرأة والرجل والزوجة والزوج والبنت والـولد. يعيشون الحرية بلا حدود ويشبهونها ببحر بلا شطـآن وحياة بلا نهاية حولوها إلى إله يعبدونه فى الصبـاح والمساء ، وفى بـريطانيا وصل الأمر إلى حد السمـاح للشواذ بتـأسيس الجمعيات التى تدافع عن حقهم فى ممارسة الـرذيلة ، ودافع عنهم البرلمان إنه مجتمع يحب الحياة ويـراها ملكا لأصحابها ولا يحـق للآخرين التدخل فى تغيير مسارها ، عندهم الحياة الـزوجية لها قوانينها التـى تحكمها وقواعد اتفقوا عـليها ، فإذا أعدت الزوجة الطعام يقف الزوج أمام ماكينـة غسل الأطباق. وإذا اشترت لوازم البيت ففى نهاية الشهر يكون الحـساب على الطريقة الإنجليزية. البيت ملكـية مشتركة فلا يجوز لأحدهما دعوة أى غريب قبل الرجوع للطرف الآخر والحصول على موافقة الثانى ، الفتاة تبدأ علاقاتها العاطفية مع صديقها فى المدرسة، فالمدارس مشتركة منذ الحضانة حتى الجامعة.

وهناك مزاعم يرددهـا الأجانب خاصة العرب المقيمين هنـا فى لندن ، أنه فى أول فصل دراسى عندما يتوجه التلاميذ للـمدرسة يقف المدرس ويطلب من كل تلميذ أن يخلع مـلابسه أمام التلـميذة التى تجلـس بجواره فى نفس «المـقعد». ثم يطلـب منها أيضا أن تقـف عارية كما ولدتهـا أمها أمامه. . والتفـسير الإنجليزى لهـذه العادة هو كسر الحواجز النفسية وإزالة الرهبة مـن كل طرف وإذابة الفوارق بين الولد والبنت ، وتظل آثار هذه الـعملية ملازمة لذاكرة الصـغار تداعب خيالهم إلى أن يـصلوا لسن المراهقة فـيسمح المجتمع بوجـود علاقات كاملة بيـن الشاب والفتاة بما يعـرف بنظام «البوى فريند» و«الجيرل فريند» ، وهذه العـلاقة تقترب من علاقة الزواج فى الحقوق والواجبـات كما تفـرض على كل طرف عـدم خيانة الـطرف الآخر إلا بعـد إبلاغه بإنهاء العلاقة .

فى هذه الحالة يكون من حق كل طرف ممارسة حـياته بحرية كاملة أو البحث عن علاقة جـديدة وتصبح العـلاقة السابقة مـجرد ذكرى لا تسىء إلـيهم ويتباهـون بها. وتظل الحياة قائمة بـهذه الطريقة المثيرة إلى أن ينتهوا من دراستـهم الجامعية أو يبدأوا حياتهم الـعملية فينفـصل الابن عن والده والبنت أيـضا تغادر بيت أسرتهـا وتعيش

حياة مستقلة تماما. قد تتبادل الزيارات مع أفراد أسرتها أو تنقطع عنهم وتغادر المدينة أو حتى البلاد وتحتفظ بعلاقتها معهم عبر التليفون. كل هذا معروف وليس غريبا على المجتمع الغربى المتطور.. لكن تظل عقدة الزواج تلاحق الفتيات بالذات عندما يبلغن سن الثلاثين عاما وتكون الفتاة فى هذه الظروف قد نجحت فى تكوين ثروة معقولة من خلال العمل، خاصة إذا كانت تحمل مؤهلا عاليا فالوظائف متوافرة والفرص متاحة بدون أى مشقة أو قلق ، والرواتب مرتفعة تغطى تكاليف الحياة مع فائض ادخارى مناسب يتفاوت حسب تفاوت كل وظيفة.

وفى هذه السن تكون الفتاة قد مارست حياتها بالطول والعرض وأقامت من العلاقات الجنسية والعاطفية ما كانت تحلم به ، وتدخل بعد ذلك مرحلة الإحساس بضرورة الإنجاب والزواج بطريقة شرعية وتتضاعف الأزمة بسبب عدم وجود الشباب الذى يرغب فى فكرة تكوين أسرة والزواج المستقر كما أن القوانين الإنجليزية تفرض العديد من القيود والمعوقات على عملية الزواج حيث جعلت منها شركة مساهمة أكثر من كونها علاقة زواج ، بحيث إنه فى حالة الطلاق يتم تجميع ثروة الطرفين وإعادة تقسيمها عليهما بالتساوى من جديد . ودائما تأتى الفرصة الأفضل لصالح الرجال خاصة إذا كانوا من الأجانب .

وأدى هذا النظام إلى انتشار ظاهرة الزواج السرى بمعنى أن يعيش الطرفان معا فى علاقة زوجية لكن بدون وجود إجراءات الزواج الطبيعية أو المدنية ، ومع ذلك تحدث فى معظم الأحيان عمليات حمل وإنجاب من مثل هذه العلاقات ثم يضطر الطرفان إلى إعلان الزواج لإثبات الأبناء. وفى أحيان أخرى تظل العلاقة كما هى والقانون يسمح للأم أن تثبت أبوة طفلها لأى شخص بشرط موافقته ، كذلك يمكن إثبات بعض الأطفال ذوى الآباء المجهولين بأسماء والد الأم أو أحد أقاربها. إن المجتمع البريطانى يقبل التعامل مع مثل هذه الحالات بدون أية غرابة أو قلق كما هى الحال بالنسبة للمجتمعات الشرقية.

والحقيقة أنها عملية مزعجة بالنسبة لسكان لندن لكن بالنسبة للإنجليز المقيمين فى بعض القرى الريفية فلديهم حرص على احترام وتقديس العلاقات الزوجية بكل

جوانبـها. ولهذا وجدت أسرة إنجـليزية تستـضيف مراهقـة عمرها ١٩ عاما حـملت وانجبت مرتيـن وبعد أن حاول والدها القادم مـن إحدى دول وسط أفريقيا معـاقبتها أبلغـت والدتها الإنجـليزية الشـرطة التى تـولت تدبيـر إقامة عاجلـة للفتـاة مع أسرة إنجليزية مستقرة ، على أن تتولى الدولة دفع ألف جنيه استرلينى شهريا للأسرة مقابل استضافتـها. وتظل كذلك حتى تصل إلـى سن ٢١ عاما ، أما أطفالها فيـتم وضعهم فى ملاجـئ تابعة لمنظـمات حماية الأسـرة والعائلة. فـى ظل هذا الجو الغريـب يجد الشخص القادم من الـشرق الأوسط أنه غير قادر على التأقلم مـع المجتمع الإنجليزى بسهولـة مما يحتاج منه جـهودا مضنية حتى يـحدث الوفاق والاندماج فى نـسيج هذا المجتمع ، ولابد أن يمحـو من ذاكرته صورة المرأة الأنثى كما رآها فى مـجتمعه حتى يستطيع التعامل والدخول فى أعماق الحياة الجديدة.

حكايات وايت ليز

فى العاصمة الـبريطانية أماكن عديدة يتجـمع فيها الشباب العربى المقـيم بطريقة شرعـية ، حـيث وجد مـعظمـهم ضـالته فـى فكرة الـلجـوء السيـاسى باعـتبـارهم مضطهدين فى بلادهم ، وأشهر هذه الأماكن مقهى «وايت ليز» بوسط لندن ومعظم رواده من اللـبنانييـن وبعض المصريـين . والجميـع ، لديهم مواعـيد مقدسة تـبدأ فى السادسة وتنتهى فى الحادية عشرة ليلا ويتم فى داخل المقاهى عقد الصفقات بمختلف أنواعها لأن اللبنانيين رواد المقهى يـؤمنون بمبدأ أن كل شىء ممكن طالما توافرت المادة والنوايا الحسنة.

ومبنـى «وايت ليز» الذى يـعنى باللـغة العربيـة الوقت الضائـع يقع فى منـتصف شارع «إدجوال رود» المـشهور بالـكثافة الـعربية فى لـندن ويتكـون المبنى مـن أربعة طوابـق ، فهو عبـارة عن مول ضـخم لبيـع البضائـع والهدايـا من كل نوع ، بـه عدة أبواب تشبه مداخل فنادق الخمس نجوم ، بداخله سلالم متحركة توصلك إلى غايتك

بسهولة وبطريقة جميلة توفر لك فرصة الاستمتاع والمشاهدة بمجرد دخولك من الأبواب الرئيسية ، لا يفرض على رواده أى ضرائب أو رسوم فأنت تدخل وتختار المكان المفضل ثم تستعد بعد ذلك للدفع.. وفى الطابق الثالث سلسلة مقاه يعمل فى إدارتها عدد من الشبان والشابات معظمهم من المغاربة أو الشوام وبعض الفتيات البريطانيات أو الأوروبيات يقدمن للزبائن المشروبات بمختلف أنواعها والمأكولات الخفيفة. على هذه المقاهى تجد صورا مختلفة للمرأة العربية الحديثة حيث تتحول الفتاة الخليجية المحافظة إلى سيدة عصرية ترتدى «البلوجينز» وتدخن السجائر وتحرص على أن يكون لها «بوى فرند» ، ومعظمهن يتتمين إلى أسر حاكمة أو عائلات ثرية فى الخليج وباقى الدول العربية وأرسلوهن إلى بريطانيا لطلب العلم. المهم أن معظم رواد «وايت ليز» يعرفون بعضهم إما عن طريق علاقات «بيزنس» أو علاقات الصداقة من خلال التردد مساء كل يوم على هذه المقاهى.

أما الشق الثانى من الطابق الثالث فيضم مقهى حديثا «للإنترنت» يستطيع الشخص أن يعبث بأصابعه على جهاز الكمبيوتر طوال فترة وجوده بالمقهى ويبحث عن موضوع أو ملف بعينه ، إما لكسب معلومات إضافية من باب الثقافة الذاتية والمعارف العامة أو للبحث عن معلومات دقيقة تتعلق بصفقة على وشك توقيعها أو أنه يستعد لزيارة أحد البلدان ويرغب فى التعرف على معلومات عامة عن شعبه وظروفه . معظم رواد هذا الشق أيضا من الشباب العربى لأن البريطانيين لديهم مثل هذه الخدمة فى منازلهم. كما أن المبنى يضم العديد من الخدمات التى يحتاجها أى شخص مثل سوبر ماركت أو تليفونات دولية أو منافذ لتغيير العملات الأجنبية. وهذا المقهى يحرص معظم الفنانين المصريين على زيارته أثناء وجودهم فى لندن وتعتبر الفنانة نبيلة عبيد من أشهر رواد «وايت ليز».

الطريف أن الشباب اللبنانى يمكن بسهولة التعرف عليهم فى هذا المبنى فهم الأكثر أناقة فى ملابسهم وأشكالهم والأكثر أدبا أيضا ويخفون وراء بساطتهم ذكاء خاصا فى كيفية الاستفادة من كل الفرص وتوظيف كل الإمكانات المتاحة وتحويلها إلى ورق بنكنوت إسترلينى ونادرا ما تجد أحدهم يعمل فى وظيفة محددة.

وتعتبر تجربة «فؤاد» الشاب الذى غادر قريتـه فى جنوب لبنان قبل ١١ عاما كاملة فى وقت لم تكن سنه تتعدى الخامسة والعشرين مليئة بالخبرة والنوادر، فقد مر على وجوده فى بريطانيا حوالى أربع سنوات دخلها بطريقة شرعية من باب اللجوء السياسى بسبب اضطهاده من القوات اللبنانية المتمركزة فى جنوب لبنان التى كانت تعمل لحساب إسرائيل ، فقد كان يعمل حلاق سيدات «كوافير» واتجه فى أول الأمر إلى اليونان ومكث بها عدة أسابيع ولم يجد فرصة للعمل فغادرها مباشرة إلى سويسرا وعمل أيضا فى مهنته لكن روح التمرد اللبنانية التى تسكن بداخله اضطرته إلى العمل فى تجارة غريبة من نوعها حيث تعرف على عدد من المهاجرين الشوام أيضا يقيمون فى سويسرا لسنوات طويلة بدون عمل ، واتفقوا على ابتداع مهنة تهريب المهاجرين العرب من سويسرا إلى فرنسا ، عبر البوابات الحدودية مقابل ألف دولار عن كل شخص ينجحون فى تهريبه من سويسرا إلى فرنسا ، وبالفعل انضم فؤاد إلى المجموعة وكان دوره يتركز فى التقاط الزبائن من المقاهى أو الحانات حيث إنه يحب المصريين ، فكان متخصصا فى البحث عنهم بهدف حل مشكلاتهم فى دخول فرنسا التى تضع العراقيل أمام دخول العنصر العربى بشكل عام . وكان الزبائن دائما من الأطباء والمهندسين والمهنيين. وبالفعل أجل فؤاد ممارسة مهنته الرئيسية وهى كوافير السيدات وبدأ يكثف نشاطه فى البحث عن الزبائن من المصريين والعراقيين ومختلف الجنسيات العربية وغير العربية أيضا ، بينما باقى أعضاء الشبكة يركزون جهودهم فى تأجير سيارات والتوجه إلى مناطق الحدود للتعرف على المناطق التى يسهل العبور منها أو لإقامة علاقات غرامية وجنسية مع نساء القرى الفرنسية الملاصقة للحدود والاستعانة بهن فى التستر على تهريب الزبائن.

وظل فؤاد يمارس هذه المهنة الغريبة لمدة عامين واستأجر شقة فخمة بأحد الأحياء الراقية فى جنيف.. كان يستخدمها فى نفس الوقت مقرا لإقامة شبكة من العلاقات العامة مع بعض الأسر العربية التى تتردد على أوروبا حتى تعرف على أسرة خليجية تولى مهمة كشف وإظهار جمال نسائها وبالفعل توطدت علاقته بأفراد هذه الأسرة الثرية وفتحوا له أبوابا للرزق والعمل بطريقة أكثر شرفا من المهنة السابقة ، فأعلن

التمرد على أعضاء الشبكة وقرر الهروب إلى بريطانيا مع الأسرة الخليجية التى يزور أفرادها الدول الأوروبية كل صيف . وفى لندن اكتشف فؤاد أن اللجوء السياسى هو أسهل الطرق للإقامة الدائمة والمريحة فى هذه البلاد الأكثر أمانا من كل الدول التى تنقل بين حدودها. ولكن مازال يجرى فى دمه فيروس البيزنس والصفقات السريعة وعن طريق مقهى «وايت ليز» عرفت أنه يعمل حلالا للمشكلات بكل أنواعها ، ولديه قناعة كاملة بأن كل عقدة ولها حل وهو قادر على إيجاد هذا الحل حتى إن بعض البريطانيين بدأوا يبحثون عنه لحل مشكلاتهم الاجتماعية.

فأغرب مشكلة تعرض لها أن سيدة بريطانية أصبحت حاملا فى شهرها التاسع من علاقة عابرة مع أحد أصدقائها وهى لا تعرف على وجه التحديد من هو والد الطفل الحقيقى ، وكانت مشكلتها البحث عن شخص يقبل أن تنسب إليه هذا الطفل الذى تحمله فى أحشائها مقابل ألف جنيه استرلينى . وفى سهولة التقطها فؤاد من مقهى «وايت ليز» وأجرى اتصالا من تليفون الموبايل مع شاب عربى قادم من الشرق الأوسط ولا يجد فرصة للكسب والعمل وعرض عليه الأمر فوافق على الفور وأتم الصفقة وحصل على عمولة ٣٠٪ من المبلغ.

وهكذا يقوم فؤاد بعقد صفقات سهلة وغريبة ويكسب من ورائها الأموال التى توفر له حياة معقولة ، ويتمتع فؤاد بشخصية ذكية هادئة ، ملامحه توحى بأنه من أسرة ثرية بينما هو ينتمى لأسرة متواضعة ورغم استمتاعه بالحياة فى بريطانيا بعد مشوار من المعاناة فى شوارع المدن الأوروبية إلا أنه يرغب فى العودة إلى وطنه وأمه التى لم يرها منذ ٧ سنوات كاملة.

ويعتبر فؤاد نموذجا لعدد كبير من الشباب اللبنانى المقيم فى بريطانيا معظمهم من الشيعة المهاجرين من جنوب لبنان ويعملون بنفس الطريقة ، ولكن بعضهم ينحرف قليلا فى العمل غير الشرعى، فمثلا عرفت أنهم يتعرفون على أصدقاء لهم يعملون فى محلات كبيرة ، وعن طريق عملهم يلتقطون أرقام وبيانات «الفيزا كارت» لبعض الزبائن. ومن خلال هذه الأرقام يقومون بشراء البضائع بالتليفون بعد أن يبلغوا المحلات بيانات فيزات الزبائن البريطانيين وبذلك تصل لهم البضائع على

عناوين وهمية ثم يقومون ببيعها مرة أخرى بنصف أسعارها الحقيقية . لكن عددا محدودا من اللبنانيين الذى يقبل العمل بهذه الأساليب غير الشرعية ، أما الوسائل الأخرى التى ابتدعها اللبنانيون أيضا فمنها طريقة معينة فى بعض أجهزة «الموبايل» تمكن أصحابها من إجراء الاتصالات الدولية بدون دفع أى مقابل، وأدى الفراغ الذى يعيش فيه الشباب إلى ابتداع العديد من الحيل للتغلب على ارتفاع الأسعار التى يعانى منها الأجانب فى بريطانيا.

وأطرف العروض التى قدمها لى الشباب اللبنانى أن أتزوج من سيدة بريطانية مسنة مقابل دفع مبلغ من راتبى شهريا وبذلك أحصل على حق الإقامة الشرعية لكننى شكرتهم حيث لم أكن فى حاجة إلى هذه الخدمة التى يبحث عنها آلاف الشباب العربى الراغب فى الإقامة والعمل فى بريطانيا.

أما المصريون فحكاياتهم ومغامراتهم لها طابع مختلف عن مغامرات اللبنانيين وباقى الجاليات العربية ، والأمثلة على ذلك قصة الشاب المصرى شريف الذى غادر حى نزلة السمان فى الهرم وعمره لا يتجاوز التاسعة عشرة بعد أن تعرف على سائحة نمساوية شابة تعمل معلمة لغة إنجليزية قرر السفر إليها والزواج منها ، على الرغم من أنه لم يكن له سابق معرفة ببلادها لكنها روح المغامرة المصرية التى دفعت بالشاب المراهق أن يتجه إلى أوروبا بدون سابق خبرة معتمدا على رصيده من الخبرات التى تعلمها فى طفولته داخل منطقة نزلة السمان التى تتمتع بمميزات نسبية فى الاحتكاك اليومى المباشر مع الوفود السياحية التى تزور مصر، كما أن أطفالها وشبابها لديهم استعداد فطرى لاكتساب اللغات الأجنبية بسهولة وإقامة علاقات قوية مع السياح الأجانب ، وشريف يعتبر من عشاق الحضارة المصرية القديمة ويعتز بفرعونيته ، ورغم أنه من سكان المدينة إلا أنه عندما يتحدث العربية ينطقها بنفس لهجة وأسلوب مدينة «ملوى» فى صعيد مصر ، وهو فخور بهذه اللهجة اللافتة لأى شخص يسمعه وهو يتحدث بها ، كما أنه تعلم اللغة الألمانية التى يتحدث بها ، سكان النمسا ، وبعد وصوله إلى حبيبته التى كانت فى سنه تماما عقد قرانهما بعد أقل من شهر ثم حصل على وظيفة رجل أمن فى أحد المصانع النمساوية . وتدريجيا

اكتسب خبرة التعامل مع المجتمع الجديد وبعد حوالى عام شعر بالحنين إلى نزلة السمان والآثار والتاريخ الفرعونى الذى يحفظ معظم مراحله . وقرر أن يستأجر محلا ضخما بتشجيع من زوجته الشابة وحول هذا المحل إلى معرض للأنتيكات واللوحات الفرعونية وشيئا فشيئا نجح فى جذب أنظار المواطنين النمساويين وكسب الأموال التى ساعدته فى الاستقرار الأسرى ، وحملت زوجته وأنجبت طفلا جميلا اتفقا على أن يكون اسمه حسام ، وضحكت الحياة لشريف وأسرته واندمج فى الحياة النمساوية . وكانت السعادة تغمر قلبه وتملأ عليه حياته عندما كان يشاهد ابنه ينمو وتتبلور على وجهه الملامح المصرية بعد أن اكتسب من والده اللون القمحى ومن والدته الانطلاقة النمساوية.

وظلت الدنيا تضحك لهذه الأسرة البسيطة السعيدة لمدة تسع سنوات كاملة ، بعدها كشرت عن أنيابها وتحول ربيعها إلى خريف غاضب حيث هبت عاصفة مفاجئة حطمت شراع القارب الذى تستقله تلك الأسرة الجميلة وغرق القارب بسبب خطأ بسيط ارتكبه شريف فى حق زوجته الصغيرة وأم طفله الجميل «حسام» ، وفشل الأب فى إنقاذ القارب من الغرق وتحطمت كل محاولاته على صخرة الرفض التى تمسكت بها زوجته و طلبت الطلاق فورا بعد رحلة تسع سنوات مليئة بالمعاناة والسعادة والمغامرة قطعها الشاب المصرى والفتاة النمساوية فى تعاون وحب وإخلاص من كل طرف للطرف الآخر.

اسودت الحياة فى عينى شريف وبدأ يعيش صراعا أحمق خاصة عندما يتذكر مصير ابنه الذى فرضت عليه والدته أن يواجه العاصفة الأوروبية بمفرده بعيدا عن والده الذى يحبه ويتعلق به.. ولم يستطع شريف تحمل الحياة فى النمسا التى تحول جمالها إلى قبح ونورها إلى ظلام وثراؤها إلى فقر، باع كل شىء وتنازل لأم ابنه عن الباقى وقرر الرحيل بعيدا عن البقعة التى شهدت أجمل أيام حياته ، كانت لحظات قاسية خاصة بعد أن تحول الرحيق إلى علقم شديد المرارة ومفروض عليه أن يتجرعه ، حمل حقائبه وتوجه إلى ألمانيا عاش بأحد فنادقها عدة أيام حاول أن ينسى أو أن يبعد عن نفسه الإحساس بالهزيمة وأن يهرب من قسوة الشعور بالفشل

والتشرد لكنه قرر المواجهة ولم تفلح الفتيات الجميلات بألمانيا فى تعويضه عن رفيقة مشواره وصديقة عمره وأم ابنه ، وفى أحد بارات العاصمة الألمانية تعرف على «سماح» فتاة مصرية تقيم مع شقيقتها، ذكرته بالنيل والأهرامات، لون بشرتها فجر فى داخله بركانا من المشاعر المكبوتة منذ الطفولة. لكنها لحظات وساعات ثم يسيطر عليه كابوس تجربته السابقة. ونهاية مشوار لم يكتمل.

وبعد تفكير عميق اتخذ شريف قرارا حاسما بالانتقال من ألمانيا إلى انجلترا. وهناك ظل مشردا لفترة محدودة حتى تعرف على «سلطان» ، وهو شاب مصرى فى الثامنة والأربعين من عمره ، طويل القامة حاد الملامح يعرف من أين تؤكل الكتف كما يقول المثل الشعبى. تعرف عليه شريف بعد أن قضى أكثر من عشرين عاما فى بريطانيا ، عمل خلالها فى أحط الوظائف ، وتعرف فيها على فتيات الليل وأمضى معظمها فى حياة العربدة ، لكنه تعلم الكثير من تجاربه وتزوج من سيدة إسبانية ، استفاد من تجربتها ثم طلقها بعد أن أنجبت له طفلة وحيدة ، بعدها تعرف على فتاة جزائرية ترتبط بعلاقات مصاهرة مع أسرة خليجية ثرية ، وتجاوز عن أشياء كثيرة من أجل أن يستخدمها قنطرة للعبور من حياة الصعلكة والتشرد إلى حياة السياسة وتجارة الأسلحة واللعب مع الكبار.

عرفه شريف وهو يلعب بالملايين بعد أن كان رصيده مجرد ملاليم حيث عاش متنقلا بين القاهرة ولندن ، فقد احتفظ لنفسه بفيللا فى حى الزمالك تصل إلى مستوى القصور، يتخذ منها مكتبه الذى يضع على بابه لافتة لشركة استيراد وتصدير تحمل اسم أسرته القادمة من أعماق الريف. سهراته الحمراء لا تخلو من فنانة مشهورة أو مطرب معروف ، إنه يعشق النجومية ويهوى ، حب الظهور ومدمن جمع الأموال بالطرق المشروعة وغير المشروعة. ارتبط بعلاقات مع شخصيات يهودية ، انطلاقا من أنه قرر السير فى طريق الثراء وتعلم أن البوابة الملكية لصعود نجم أى عربى يقف على بابها خواجة يهودى ، واشترك معهم فى افتتاح عدد من محلات بيع الأعمال اليدوية.

وعمل شريف مديرا لأحد هذه الفروع بوسط لندن اجتهد فى محاولة الإخلاص

للرجل الذى منحه فرصة للكسب فى بلاد يصعب على الإنسان فيها تحصيل فرصة عمل مناسبة ، لكن بدأت الأزمة بينهما عندما تأكد شريف من الدور الذى يلعبه «سلطان» بالاتفاق مع صديقته اليهودية وزوجها ، وشعر أنه يشارك فى أعمال تسىء إلى بلاده وأنه يخالف مبادئه فى العمل مع يهود يحتلون الأراضى العربية ويقتلون المجاهدين ، وبدأ رحلة أخرى لجمع المعلومات والوثائق التى تثبت له أن «سلطان» يتحالف مع شخصيات يهودية ضد سمعة وطنه من أجل حفنة من المال الذى يعد معبود سلطان الأوحد . وهنا قرر الانقلاب عليه وفضح أمره ودخلا معا فى سلسلة من المساومات انتهت بإفلاس سلطان وبيع هذه المحلات ، وتغير نشاطه إلى المتاجرة بالسلاح خاصة أنه يمتلك شبكة من العلاقات مع كبار المسئولين العرب والدبلوماسيين الأجانب ويحمل الجنسية البريطانية مع الاحتفاظ بالجنسية المصرية لاستخدامها وقت اللزوم.. إنه تعلم المناورة وأن يخفض رأسه للأمواج كما يفعل أصدقاؤه اليهود ، ولكن فى النهاية قرر شريف اختيار وطنيته بدلا من المضى قدما فى الطريق المجهول مع سلطان . حيث تعرف فى هذه الأثناء على «جوليا» الصحفية البريطانية التى تكتب مقالات فى عدد من الصحف العالمية، إنها جميلة مثقفة غنية ، نجحت شخصية شريف فى إبهارها واستطاع أن يصبح فارسا يملأ حياتها الخاوية ، واتفقا على التعاون والمشاركة وأسسا شركة للاستيراد والتصدير ، لكن ظل حلم شريف فى العمل بالفن والآثار المصرية يراوده ويمتلك كل حياته وبدأ هو وزوجته فى إقامة المعارض الفنية فى الساحات والميادين خاصة بعد أن أثمرت هذه العلاقة شقيقاً بريطانياً لحسام النمساوى.. وعلى أحد مقاعد مقهى «وايت ليز» جلس شريف يدخن الشيشة ويسرد لى تفاصيل وحكايات بعضها ممتع والبعض الآخر منها مخيف على الرغم من أنه مازال فى السادسة والثلاثين من عمره إلا أنه أصبح لديه مخزون ورصيد من التجارب بحكم الأحداث والظروف الصعبة التى واجهته طوال مشواره الحافل.

أما إبراهيم فيعد من أبرز رواد هذا المقهى لكن حياة شريف تختلف كل الاختلاف عن حياة إبراهيم ، فالأول مهموم بمشاكل بلاده ويحرص على قراءة كل

الصحف المصرية التى تصل إلى العاصمة البريطانية لدرجة أنه أصبح متابعا لتفاصيل دقيقة تسقط من ذاكرة المقيمين فى القاهرة ذاتها ، بينما الثانى يعمل فى العقارات ولديه مكتب خاص للسمسرة نجح فى امتلاكه بعد مشوار طويل فى العمل بهذا المجال المربح الذى يعد حكرا على عدد من اليهود الذين هاجروا منذ عشرات السنين من الدول العربية. وهذه السوق تحقق للعاملين بها عائدا ضخما لأنه يكسب من الطرفين المالك والمستأجر فى آن واحد ويحدث نوع من الاحتكار بين السمسار وصاحب العقار ، لدرجة أن المالك يرفض أن يوقع عقد الإيجار بدون الرجوع إلى مكتب السمسرة التابع له . ومن هنا تحولت عملية الإيجار والسمسرة إلى مهنة مضمونة المكاسب ، خاصة أن لندن عاصمة جاذبة للأجانب سواء من الشرق أو الغرب وأدى النظام والقواعد الجديدة للاتحاد الأوروبى إلى ازدحامها بالقادمين من دول الاتحاد الباحثين عن فرص عمل أفضل بالإضافة إلى أنها قبلة يحرص معظم العرب على التردد عليها سنويا حتى إن بعضهم يمتلك فيها عشرات الشقق والقصور.



ورغم أن إبراهيم متزوج من مصرية أنجبت له طفلا عمره تخطى الثالثة عشرة لكنه أقنعها بعدم جدوى إقامتها معه فى لندن لارتفاع تكاليف المعيشة وتربية الطفل الذى اتفقا على أن يتلقى التعليم والثقافة العربية الإسلامية فى مصر ، وبذلك أصبح يعيش حرا طليقا فى عاصمة لا تعترف بأى قيود ، وتحولت حياته إلى العمل نهارا أو الإشراف على عمل المكتب عن طريق سكرتيرة إنجليزية حسناء والسهر ليلا فى البارات والحانات بحثا عن الحسناوات . فقد اكتسب خبرات هائلة فى وسائل الإيقاع بالجميلات على الرغم من عمره الذى يزيد على الأربعين عاما إلا أنه يقدس ثلاثة أشياء العمل فى النهار والخمر والنساء ليلا ولا يهدأ له بال إلا بعد أن يتعرف كل ليلة على امرأة جديدة سواء من الإنجليز أو الجنسيات الأخرى التى تمر بلندن وينفق نصف مكاسبه على الخمر والنساء حتى أصبح غير قادر على التخلص من هذه العادات التى يشاركه فيها صديقه سلطان..!

جاسوس الموساد فى الإذاعة البريطانية

عندما تتحول الحضارات العريقة إلى ماض محبوس خلف جدران المتاحف الضخمة يتردد عليه السياح الأجانب وتصاب الأمم العظيمة العريقة بالعقم والشيخوخة.. وتتخلف شعوبها عن اللحاق بعجلة الحاضر وتتحول إلى مجتمعات هشة مريضة تتصارع مع نفسها.. وتترك الرآية إلى أمم مجهولة ظهرت مصادفة فى العصور الحديثة بعدها تصبح الشعوب القديمة مفككة سهلة الاختراق وجاهزة لكل عابر سبيل يسعى للسيطرة عليها ويطمع فى العبث بمستقبلها والتلاعب بأحلامها!

كانت تطن فى أذنى أصوات دقات ساعة «بج بن» الشهيرة بينما أتحدث مع موظف الاستقبال فى مبنى هيئة الإذاعة البريطانية (بوش هاوس) BBC إنه مبنى ضخم تشم فيه رائحة التاريخ والسياسة ، إنها أقدم المؤسسات التى نجحت انجلترا فى تأسيسها لتلعب دورا سياسياً واجتماعياً خطيراً تجاه شعوب العالم الثالث أو تلك الشعوب التى كانت تابعة للإمبراطورية البريطانية التى كانت فى يوم ما لا تغيب عنها الشمس.

بعد حوار قصير سمح لى الموظف الإنجليزى بالدخول بعد أن لصق على قميصى بادج الزائرين للمبنى الذى يتكون من ثمانية طوابق يضم أكثر من ٧٠ استوديو ، كلها مخصصة للإذاعات الموجهة الناطقة بمعظم اللغات العالمية بدءاً من العربية وانتهاءً بالهندية مروراً بالصينية والكورية.. ويحتل القسم العربى الطابقين الرابع والخامس وكانت الإذاعة تحتفل أثناء تلك الفترة بمناسبة مرور أكثر من ٦٠ عاماً على بدء بث برامجها باللغة العربية.. وكانت فى السابق تبث حوالى أربع ساعات كل يوم ينتظرها المواطن العربى من المشرق إلى المغرب ، فى وقت لم يكن العالم العربى قد عرف بعد الإذاعات أو كانت لا تزال مجرد محطات أهلية بدائية غير منظمة .

ولعب القسم العربى فى هيئة الإذاعة البريطانية دوراً غامضاً طوال الـ ٦٠ عاماً حيث يتعمد القائمون على تسيير عمل هذا القسم أن يظهروا على الحياد دائماً فى

معالجة القضايا والأحداث العالمية حتى يكتسبوا ثقة واهتمام المستمع العربى ، ونجحوا بالفعل فى هذه المهمة إلى حد كبير.. فلا يوجد أى مسئول عربى أو حتى مواطن عادى مهتم بمتابعة الأحداث لا يتابع ما تبثه هذه الإذاعة ، وهناك فى مصر والعالم العربى شريحة من البسطاء والمثقفين يؤمنون ويهتمون بمتابعة برامج ونشرات القسم العربى ، الذى حرص البريطانيون على أن يسندوا إدارته إلى نخبة من كبار الإذاعيين والصحفيين العرب خاصة المصريين الذين لم تتح لهم الفرص فى تقديم مواهبهم وخبراتهم فى بلادهم لأسباب سياسية أو تنظيمية ، بينما التقطتهم الإذاعة البريطانية ومنحتهم الفرصة كاملة للعمل والإبداع وحققوا بالفعل نجاحات ملموسة لا يستطيع أى منصف إنكارها... ولذلك احتلت الإذاعة البريطانية مكانة هامة لدى فئات عمرية مختلفة فى أنحاء الوطن العربى .

وعلى باب الأسانسير كان صديقى الصحفى والإذاعى الشاب يقف فى انتظارى بناء على حوار دار بيننا وأبديت فيه رغبتى فى القيام بزيارة لهذه الإذاعة التى أستمع إليها منذ صغرى وساهمت بتحليلاتها ومتابعاتها الإخبارية فى فتح نوافذ من المعلومات للمواطن العربى ، فى الوقت الذى كانت الإذاعات العربية تمارس التسطيح والتعتيم لما يجرى من أحداث سواء كانت داخلية أو خارجية ، قبل انتشار ظاهرة القنوات الفضائية العربية التى تتنافس جميعا فى جذب المشاهد العربى حاليا.

ونحن ننتقل من استوديو إلى قاعة اجتماعات سألت زميلى الصحفى المصرى عن مدى دقة وحياد ما تبثه هذه الإذاعة من تقارير وأخبار ففاجأنى بالإجابة حيث نفى عنها الحياد التام ، وتأكدت لدىّ قناعة بأن هناك دورا غامضا تلعبه هيئة الإذاعة البريطانية بشكل عام والقسم العربى بشكل خاص. ولكن هذا لا ينفى أن معظم العاملين بها من المحترفين للعمل الصحفى والإذاعى وكوادر لم تستطع أن تحصل على الفرصة المناسبة فى بلادها ، فوجدتها فى هذا المبنى العتيق الذى تخرج منه كبار الإذاعيين فى عالمنا العربى وهذا المبنى استقبل فى استوديوهاته معظم السياسيين وكبار المفكرين والفنانين.. ويحتوى أرشيف القسم العربى على تسجيلات نادرة لجميع الرموز الثقافية والأدبية وحتى السياسية من مختلف الدول العربية وتحديداً مصر خاصة إذا عرفنا أن ٧٠٪ من إجمالى العاملين فى القسم العربى من المصريين

الذين يلتحقون بالعمل إما عن طريق المسابقات أو الصدفة أو من خلال علاقاتهم بكبار الإذاعيين.

وفى ردهات القسم العربى التقيت مع أصحاب أصوات اعتادت أذناى على سماعها من خلال نشرات الأخبار حيث يتميز الإذاعيون فى القسم العربى بأنهم صحفيون من الدرجة الأولى ، ولهم أساليب مميزة فى طريقة إذاعة الأخبار والوقفات للانتقال بين الفقرات لدرجة تحولت مع مرور الوقت إلى لون خاص يميز العاملين بالقسم العربى عن باقى الإذاعيين فى المحطات الحكومية المنتشرة فى مختلف أنحاء الوطن العربى.

ولا يتوقف القسم العربى على الاهتمام بالقضايا السياسية فقط ، بل هناك أقسام للمنوعات والأغانى والثقافة والمعلومات حتى أصبحت فى الفترة الأخيرة بعد أن امتدت فترات البث اليومى ليصل إلى أكثر من ١٥ ساعة يومياً وجبة شيقة تجذب الشباب والعجائز لمتابعة برامجها المتنوعة.

وتصادف أثناء وجودى داخل القسم العربى أن علمنا بأن مظاهرات عارمة نظمتها الاتحادات العمالية البريطانية أمام منزل رئيس الوزراء تونى بلير فى (١٠) داوننج ستريت مقر رئاسة الوزراء ، وبسرعة صدر تكليف من المسئولين بالقسم إلى صديقى أن يتولى متابعة الحدث بأقصى سرعة وحصل على جهاز التسجيل الخاص بعمله وهبطنا إلى الشارع وأشرنا إلى تاكسى (كاب) توجه بنا إلى منطقة المظاهرات وكانت المفاجأة أن الولايات المتحدة أرادت أن توجه ضربة عسكرية جديدة إلى العراق فى ذلك الوقت بسبب اتهامه بعدم التعاون مع مفتشى الأمم المتحدة الذين أمروا بتفتيش قصور الرئاسة والمدارس والمستشفيات بحثا عن معلومات تتعلق ببرنامج التسلح العراقى.

وكانت بريطانيا أولى الدول التى أعلنت تأييدها للضربة العسكرية ، ولهذا خرجت المظاهرات التى ملأت الشوارع الرئيسية المؤدية للبرلمان البريطانى وفشلت أجهزة الأمن فى إقناع المتظاهرين بالتزام الهدوء والحفاظ على النظام ، وكنت معجباً بالهتافات التى أطلقها أطفال صغار أمام منزل تونى بلير طالبوه فيها بالابتعاد عن أمريكا وعدم قتل أطفال العراق بالإضافة إلى عبارات سب وقذف فى حق الحكومة

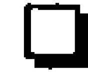
البريطانية كنت أتمنى أن يسمعها المسئولون فى الحكومات العربية ليتعلموا سعة الصدر ويعرفوا الحدود الفاصلة بين الفوضى وحرية التعبير.

ولم يكتف المتظاهرون بإغلاق الشوارع أمام منزل رئيس الوزراء بل التفوا حول مبنى وزارة الدفاع المواجه لمقر إقامة تونى بلير ورفعوا لافتات تطالب بوقف الحرب وحماية المدنيين ، وقام صديقى بإجراء عدد من اللقاءات مع المواطنين العرب وأطفال الجاليات العراقية المقيمة فى بريطانيا الذين شاركوا فى المظاهرات بالإضافة إلى بعض كبار الشعراء والفنانين البريطانيين الذين تقدموا المتظاهرين الرافضين لقتل المواطنين والأطفال فى العراق. وبعد جولة مثيرة تنقلنا خلالها وسط آلاف المتظاهرين الذين تحميهم قوات الشرطة والخيالة من كل جانب وتقف بعيداً عشرات من سيارات الإسعاف والمطافئ تحسباً لأية ظروف ، حاولنا العودة مرة أخرى إلى «بوش هاوس» مبنى الإذاعة البريطانية ووجدنا صعوبة فى الحصول على تاكسى ومشينا على أرجلنا حتى وصلنا إلى شاطئ نهر التيمز الذى يشق العاصمة البريطانية لندن ، ومن هناك استطعنا مغادرة المكان إلى الاستوديو.

وشاهدت بنفسى جميع مراحل دبلجة الحدث وإعداده للإذاعة على الهواء بعد كتابة مقدمة أذاعها زميل آخر ، كانت بعدها عقارب الساعة تشير إلى اقتراب موعد النشرة الرئيسية ،كان صديقى هو المسئول عن إذاعة التقارير التى تذاع عقب كل نشرة أخبار رئيسية فتوجهت بصحبته إلى الاستوديو المخصص للإذاعة على الهواء، وجلست بجوار المخرجة البريطانية التى تحتفظ بمجموعة من الأشرطة تحتوى على التقارير ودخل صديقى إلى غرفة محكمة الإغلاق بينما يظهر أمامى من خلال الزجاج وعن طريق الإشارات يذيع وصلات الربط بين التقارير من خلال ورقة صغيرة يحملها فى يده ويجلس متأهباً أمام الميكروفون.

إن مبنى الإذاعة البريطانية عبارة عن خلية نحل ، كل فرد فيها يعرف وظيفته ، والفاصل هناك محسوب بالدقائق والثوانى التى تعلنها ساعات الحائط الموجودة فى كل مكان. بجوار صور كبيرة «أبيض وأسود » لكبار الإذاعيين الذين سبق لهم العمل بالقسم العربى بعضها لقطات طريفة أثناء وقوفهم أمام الميكروفون. فالجميع

هنا يعمل فى جو أسرى لكنهم جميعا يعرفون حقيقة أن رواتبهم تدفعها الحكومة البريطانية التى تتولى تسديد جميع تكاليف الإذاعات الموجهة لتحقيق أغراض سياسية معظمها سرى وغير معلن!



وبعيداً عن الدور الغامض الذى تلعبه هذه الإذاعة ، فقد نجح الموساد الإسرائيلى فى اختراقها وغرس عملاءه بداخلها . والقصة التالية تكشف تفاصيل مثيرة ومدهشة عن أساليب الموساد فى اختراق العاملين فى الإذاعة البريطانية بشكل خاص وباقى وسائل الإعلام بشكل عام. فقبل دخول القوات العراقية الكويت فى عام ١٩٩٠ كان جهاز الأمن العراقى قوياً وكانت أجهزة المخابرات العراقية تعتبر واحدة من أقوى الأجهزة الأمنية فى منطقة الشرق الأوسط بعد جهازى المخابرات المصرى والإسرائيلى ، والدليل على ذلك نجاح أجهزة الأمن العراقية فى الإيقاع بأحد جواسيس إسرائيل الذى دخل إلى أراضيها باعتباره كبير محررى صحيفة «الأوبزرفر» البريطانية ، وهو فى الحقيقة مغامر إيرانى يدعى «فرزاد بازوفت» هرب إلى بريطانيا بحثاً عن فرص أفضل للعمل ، لكنه سقط بإرادته فى قبضة المخابرات الإسرائيلية (موساد) التى تتخذ من لندن قاعدة رئيسية لتجنيد العملاء المسئولين عن جمع المعلومات المتعلقة بالدول العربية.

وبعد أن راقبت العراق التحركات المريبة للصحفى البريطانى وتأكدت أجهزة الأمن من حقيقة مهمته التجسسية ألقت القبض عليه واعترف فى شريط فيديو مصور بأنه وصل إلى بغداد فى مهمة لحساب الموساد ، وصدر بحقه حكم بالإعدام وتم تنفيذه بسرعة فى إحدى ساحات بغداد العامة دون الالتفات إلى النداءات الدولية والتهديدات البريطانية .. ويروى صحفى بريطانى قصة تجنيد وسقوط فرزاد بازوفت الذى رافقه فى رحلة النهاية إلى بغداد قبل عام ١٩٩٠ فى كتاب «جواسيس جدعون» الذى صدر فى لندن مع بداية التسعينيات. وظهرت ترجمته إلى العربية فى بيروت بعد ذلك وعلى الرغم من التحفظ على تفاصيل الحادث الذى يرويه (جوردون توماس) انطلاقا من رؤية غربية للقضية إلا أنها تحمل فى طياتها غيوما عديدة حول دور الإذاعة البريطانية فى تسهيل بعض مهام المخابرات الإسرائيلية كما

حدث أثناء انتفاضة الأقصى عندما تنكر بعض الضباط الإسرائيليين وزعموا أنهم مراسلون تابعون لهيئة الإذاعة البريطانية وقاموا باغتيال قادة حماس والجهاد فى الأراضى المحتلة . وحسب ما جاء فى رواية المؤلف عن الحادث: ـ

بعد أن غادر سبعاوى التكريتى مدير الأمن العراقى الفندق عصر ذلك اليوم. بعد ذلك بوقت قصير، خرج شاب طويل من الجناح الملاصق . وكان هذا الشاب يرتدى جاكيت أزرق من القطن ، وبنطلونا كاكى اللون . وكان يتمتع بقدر من الوسامة ، أقرب للأنوثة. وكان من عاداته العصبية أن يفتل شاربه بين الفينة والفينة ، أو يحك وجهه بيده ، وهو الأمر الذى أدى إلى زيادة حساسيته للنقد.

كان اسمه «فرزاد بازوفت» . وفى البيانات التفصيلية المدونة فى استمارة التسجيل بالفندق التى ترسل نسخة منها بشكل روتينى إلى مكتب «سبعاوى» ، وصف «بازوفت» نفسه بـ«كبير المراسلين للشئون الخارجية» لصحيفة الأوبزرفر، الانجليزية الأسبوعية. بيد أن هذا الوصف غير دقيق ، فقد كان يسمح للمراسلين الصحافيين من هيئة تحرير الصحيفة فقط الذين يكلفون بمهام فى الخارج ، أن يطلقوا على أنفسهم «مراسل شئون خارجية ». أما «بازوفت» فقد كان صحفيا بالقطعة أمد «الأوبزرفر» طيلة السنة الماضية بعدة موضوعات عن الشرق الأوسط وكان «بازوفت» قد اعترف لبعض المراسلين من مؤسسات صحافية أخرى ، كانوا معه فى نفس الرحلة إلى بغداد ، بأنه ينتحل دائما صفة كبير مراسلى الشئون الخارجية للأوبزرفر ، فى رحلاته إلى بعض البلاد مثل بغداد ، لأن ذلك يضمن له الحصول على أفضل الغرف المتاحة فى الفندق ، وهذا الاختلاق غير الضار ، إنما دليل آخر على حبه للحركات الصبيانية.

غير أن الأمر الذى لم يكن يعرفه زملاؤه فى الجريدة ، والجانب الخفى فى شخصية بازوفت ، والأمر الذى يمكن أن يعرضهم للخطر إذا تم الشك فى السبب الحقيقى لوجوده فى بغداد حيث كان بازوفت يعمل جاسوسا للموساد الإسرائيلى.

وكان قد تم تجنيده بعد وصوله إلى لندن من طهران ، قبل ثلاث سنوات أى عام ١٩٨٥ لأن حياته كانت معرضة للخطر ، بسبب آرائه الصريحة ؟ أكثر من اللازم ،

عن نظام الخميني كما زعم للسلطات البريطانية في ذلك الوقت . ولقد وجد بازوفت ـ شأنه شأن كثيرين قبله ـ أن لندن مدينة غريبة والشعب الإنجليزي شعب متحفظ ، لذا حاول أن يجد لنفسه دورا بين الجالية الإيرانية في المنفى ، وكان موضع ترحيب على موائد العشاء لدى الجالية ، لفترة ما ، بسبب درايته الواسعة بالتركيبة السياسية الموجودة في طهران ، ولكن رؤية نفس الوجوه المألوفة سرعان ما سببت نوعا من الملل والكآبة ، لهذا الشاب الطموح النشط.

وراح بازوفت يتلفت حوله بحثا عن موضوع أكثر إثارة من مجرد تحصيل خبر من طهران ، فبدأ يجرى اتصالات مع العراق عدو إيران التقليدي في تلك الفترة. وفي منتصف الثمانينيات كانت هناك أعداد كبيرة من العراقيين في لندن. وكانوا موضع ترحيب كزائرين ، لأن نظرة بريطانيا للعراق ، لم تكن نظرة إلى بلد مستورد كبير للسلع البريطانية فحسب ، ولكن إلى بلد ، سيحطم ـ تحت قيادة صدام حسين ـ الأصولية الإسلامية الخطيرة لنظام الخميني .

ووجد بازوفت نفسه في الحفلات العراقية «كمن يغني من أجل عشائه». وكان مضيفوه الجدد أكثر هدوءا وكانوا أكثر تحررا من الإيرانيين ، ومن ناحيتهم فقد أسرتهم خصاله السمحة ونكاته التي لا تنتهي عن آية الله في طهران.

وكان هناك رجل أعمال من أصل عراقي في إحدى هذه الحفلات ، يدعى «أبو العبيد» ، كان ينصت إلى بازوفت ـ المرة تلو الأخرى وهو شبه ثمل في نهاية السهرة ـ وهو يعلن بإصرار عن طموحه الغلاب ، في أن يصبح صحافيا وكيف أن مثله الأعلى كان يجده في صحافيين شهيرين هما «بوب وودورد» و«كارل برنشتاين» اللذين أسقطا الرئيس نيكسون. ولقد ذكر بازوفت لأبي العبيد ، أنه سيموت سعيدا، لو استطاع أن يسقط نظام آية الله في إيران . وكان بازوفت حتى الآن يساهم ببعض المقالات في جريدة إيرانية محدودة الانتشار. توزع على الإيرانيين بالمنفى ، في بريطانيا.

وكان أبو العبيد هو الاسم المستعار ، لأحد عملاء الموساد من الكاتسا المولودين في العراق. وقد ضمن تقريره التالي إلى تل أبيب ، إشارة عن «بازوفت» ، وعمله

الحالى ، وطموحاته. ولم يكن ثمة شيء غريب في هذا الأمر ، حيث تقدم مئات الأسماء كل أسبوع ، بحيث يجد كل اسم مكانه فى بنك معلومات الموساد.

إلا أن ناحوم أدمونى كان يتولى إدارة جهاز الموساد ، ويهتم بتطوير اتصالاته فى العراق. ولقد صدرت تعليمات لرجل الموساد فى لندن ، باستقطاب بازوفت. وفى جلسات العشاء . كان بازوفت يشكو لأبى العبيد ، من أن رئيس التحرير لا يستفيد استفادة كاملة من إمكاناته فاقترح عليه مضيفه بأن يحاول الدخول فى خضم الصحافة الإنجليزية ، وأبلغه أن ثمة وظيفة لمخبر صحافى ذى مهارات لغوية عالية ، ومعرفة بأحوال إيران واقترح «أبو العبيد» أن تكون الإذاعة البريطانية هى نقطة الانطلاق.

كان هناك العديد من السيانيم (عملاء أجانب للموساد غير متفرغين) فى هيئة الإذاعة البريطانية . كما كان هناك عدد آخر من العملاء تتضمن مهامهم رصد ومتابعة البرامج التى ستذاع عن إسرائيل. ومراقبة الأشخاص الذين تتم الاستعانة بهم للعمل فى القسم العربى بالإذاعة البريطانية أما إذا كان أى (سيان عميل لموساد) قد ساهم مساهمة مباشرة فى تعيين بازوفت فى الإذاعة البريطانية ، فدوره لن يعرفه أحد على الإطلاق ولكن بعد لقاء بازوفت بـ «أبو العبيد» مباشرة ، تم تكليفه بمهمة باحث فى الـ BBC. وقام بذلك خير قيام ، وتلت ذلك أعمال أخرى . ووجد الصحافيون أنه يمكنهم الوثوق بتحليلات وتفسيرات «بازوفت» بشأن الأحداث الغامضة فى طهران.

وفى تل أبيب ، قرر «أدمونى» رئيس جهاز الموساد أنه قد حان الوقت لاتخاذ الخطوة التالية ومع سرعة إيقاع وقائع الكشف عن فضيحة إيران جيت فى الولايات المتحدة قرر رئيس الموساد ـ عن عمد ـ كشف الأدوار فى فضيحة رجل الصفقات السرية الشهير (يعقوب نمرودى) بعد أن أخذت رائحتها تفوح بسرعة شديدة. وهو عميل سابق للموساد فى عمان ، وكان نمرودى عضوا فى مجموعة أنشأها ديفيد كيمحى أحد قادة المخابرات الإسرائيلية وباستخدام خبرته السابقة فى المخابرات ، حرص على إبعاد الموساد عما كان يجرى ، وحينما بدأت صفقة الأسلحة مقابل

الرهائن ، كان نمرودى ـ وهو رجل ماكر سريع البديهة ـ قد دفع وزير الخارجية الأمريكى فى ذلك الوقت جورج شولتز إلى القول «إن جدول أعمال إسرائيل ، ليس هو جدول أعمالنا ، وأن إقامة علاقات تخابرية مع إسرائيل بشأن إيران ، قد لا تكون هى العلاقات التى نستطيع أن نعتمد عليها تماما» .

وحينما سحب كيمحى المجموعة ، ظل نمرودى موجودا لفترة أطول ، ولكن عندما علت الأصداء القادمة من واشنطن ، وأصبحت أكثر إحراجا لإسرائيل ، اختفى العميل السابق. أما ادمونى ـ وهو يستشعر الألم من الطريقة التى عامل بها نمرودى رجال الموساد ـ فقد كانت لديه خطط أخرى تهدف إلى إحراج نمرودى علنا ، وفى الوقت ذاته يوطد أقدام بازوفت فى عمله ويعطيه دفعة إلى الأمام ، بحيث يتمكن من خدمة الموساد بشكل أفضل.

وقد قدم أبو العبيد معلومات تفصيلية كافية إلى بازوفت ، حتى أدرك أن هذه يمكن أن تكون ضربته الكبرى صحافيا. فأخذ الموضوع إلى جريدة الأوبزرفر. وتم نشره مع الإشارة إلى «إسرائيلى غامض ـ نمرودى ـ متورط فى فضيحة إيران جيت» وبعد ذلك مباشرة أصبح بازوفت يساهم فى الكتابة بانتظام فى الأوبزرفر.

وفى النهاية تم تقديم مكافأة قيمة لا تقدم عادة لأحد من خارج هيئة تحرير الجريدة ، حيث خصص له مكتب شخصى ، الأمر الذى يعنى أنه لم يعد يضطر إلى دفع قيمة مكالماته التليفونية ، لمتابعة وقائع موضوع صحافى معين من بيته ، وأن من حقه المطالبة بنفقات الضيافة ، ولكن ما كان يتقاضاه بازوفت حتى الآن ، لا يتعدى قيمة الموضوعات التى تنشر فى الصحيفة. ومن ثم كان أحد الحوافز لديه هو البحث عن موضوعات أكثر لكى يشق طريقه بقوة فى أية رحلة إلى الشرق الأوسط ، ففى حالة السفر سوف يعيش على ما يتقاضاه من نفقات كاملة ، شأنه شأن جميع المراسلين ويصبح باستطاعته ـ عن طريق التلاعب والتحايل ـ الحصول على بعض الأموال الإضافية فوق ما أنفقه بالفعل ، ويمكن أن تتحسن أحواله فعلا.

إن عدم وجود أموال كافية لدى بازوفت ، كان مشكلته الدائمة ، وهو الشيء الذى كان حريصا على إخفائه عن زملائه فى الأوبزرفر. ولم يكن أحد يشك على

الإطلاق ، فى أن المراسل الذى يقضى ساعات يتحدث فى التليفون باللغة الفارسية مع آخرين ، كان لصا مدانا ، فقد أمضى بازوفت ثمانية عشر شهرا فى السجن بعد سطوه على إحدى جمعيات الإسكان البريطانية وكان القاضى قد أمر ـ بعد تنفيذ الحكم ـ بترحيل بازوفت خارج البلاد ، بعد إطلاق سراحه. ولكن بازوفت قدم التماسا بالتجاوز عن الترحيل ، لأسباب منطقية تتعلق بإعدامه فى حالة إعادته إلى إيران. وعلى الرغم من رفض الالتماس فإنه حصل على «تصريح استثنائى» بالبقاء فى بريطانيا. وظلت الأسس التى صدر بناء عليها هذا الاستثناء الغريب ، حبيسة فى خزائن وزارة الداخلية.

وليس من المعروف على وجه اليقين ، ما إذا كان الموساد ـ والذى رصد إمكانات بازوفت وقدراته ـ قد استخدم أحد «السيان» المزروعين جيدا فى وايت هول (مقر الحكومة البريطانية) لتسهيل الأمور. وعلى أية حال ، فإنه لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال.

وبعد إطلاق سراح بازوفت من السجن ، بدأ يعانى نوبات من الإحباط ، كان يستخدم بعض الأدوية للعلاج منها ، وكشف هذه المعلومات أحد رجال الموساد من الكاتسا. وذكر كاتب إنجليزى وهو «روبرت اليسون» وكان عضوا فى البرلمان عن حزب المحافظين وخبيراً معترفا به فى أساليب تجنيد العملاء فى المخابرات : «أن شخصية مثل شخصية بازوفت تجعله هدفا رائعا للموساد» .

وقام «أبو العبيد» بتجنيد بازوفت ، بعد سنة من لقائهما الأول. ولكن كيف وأين تم ذلك؟

لقد ظل الأمر مجهولا. ومن المؤكد أن الحصول على أموال إضافية ، كان أحد الاعتبارات لدى بازوفت الذى كان لا يزال يعانى من الحاجة إلى المال. وبالنسبة لشخص كان كثيرا ما ينظر إلى الحياة بمنظور الإثارة ، وكان من بين أحلامه التطلع للحياة فى الخارج ، وأن يكون جاسوسا على خطى مراسل أجنبى آخر ، حيث كان محط إعجابه هو كيم فيلبى ، الذى عمل أيضا مراسلا لصحيفة الأوبزرفر كغطاء لعمله كجاسوس لحساب السوفييت. كل هذه الأمور تدخل فى حساب العوامل التى ساعدت على تجنيده.

إلا أن الأمر المؤكد ، أن بازوفت بدأ يحقق سمعة محدودة لنفسه. فما كان يفتقر إليه في أسلوب كتاباته ، عوضه بأبحاثه الرصينة. وكان كل ما يكتشفه عن إيران ، ينقله إلى رجل الكاتسا الموجود في لندن. وبالإضافة إلى الموضوعات التي كان يكتبها للأوبزرفر ، كان يعهد إليه أيضا ببعض المهام من شبكة أخبار «التليفزيون المستقل» وجرائد «مجموعة الميرور» وكان «بازوفت» يسير على نفس الدرب الذى سار فيه الصحفي البريطاني «نيكولاس ديفيز» محرر الشئون الخارجية لصحيفة الديلي ميرور واسعة الانتشار حيث كانت لديه موهبة المراسل الصحافي في الكلام المشوق والكشف عن الأسرار المثيرة ، والقدرة على ألا يلعب الشراب برأسه. ويذكر زملاؤه أنه كان يمضى الساعات لإتقان اللهجة العذبة التي يستخدمها. وقد وجدت النساء فيه شيئا مثيرا بسبب دماثة طباعه ، والطريقة المتمكنة التي يطلب بها العشاء ويختار بها زجاجة من النبيذ الجيد ، وكن يعجبن بقدرته على التكيف مع جميع الأوضاع. والطريقة التي يتحدث بها عن الأماكن البعيدة ، وكأنها جزء من ممتلكاته الخاصة ، وفي الساعات الأخيرة من الليل ، وعلى كأس آخر من الشراب ، كان يلمح إلى مغامرات ، ويفسرها بعض سيئى النية بأنها شطحات خيال واسع.

ولم يعرف أحد البتة ، بل لم يدر بخلده ولو للحظة واحدة ، أن «ناحوم أدمونى» قد أصدر تعليمات بوجوب تجنيد « ديفيز» لحساب الموساد. وظل الأمر مجهولا سواء بالنسبة لزملائه في جريدة الميرور ، أو في دائرة أصدقائه الواسعة خارج عالم الصحافة ، حتى زوجته جانيت الممثلة الأسترالية المولد ، التي لمعت في مسلسل «دكتور هو» الذى حقق نجاحا باهرا في التليفزيون البريطاني لم تعلم شيئا عن هذا الموضوع كذلك.

سافر بازوفت وديفيز إلى العراق مع مجموعة صغيرة من الصحافيين الآخرين (ومن بينهم مؤلف «جواسيس جدعون» في مهمة أنيطت به من جانب Press Association الخدمة الوطنية الإخبارية البريطانية). وفي الرحلة من لندن أمتع ديفيز المجموعة التي كانت معه بقصص عن المغامرات الرخيصة لـ بارون الصحافة البريطانية «روبرت ماكسويل» الذى كان قد اشترى مؤخرا مجموعة صحف الميرور.

وقد أطلق عليه صفة «الوحش ذو النزوات البهيمية ، والرغبة العارمة فى إغواء السكرتيرات العاملات لديه» ، ثم أوضح بما لا يدع مجالا للشك أنه مقرب من ماكسويل ، رغم أن «من يقترب من ماكسويل المعروف بلقب كابتن بوب ، كأنما يقترب من جهنم بعينها ، غير أن المستمعين اعتبروا مزاعم ديفيز بأنه شخصيا ، محصن ، لأنه يعرف الكثير عن الرأسمالى الكبير ، صاحب العمل ، نوعا من المبالغة الزائدة.

وعلى الجانب الآخر كان « فرزاد بازوفت» يتسم بالهدوء خلال الرحلة ، ولم يتحدث مع الآخرين إلا قليلا. واقتصر على الحديث مع مضيفى الرحلة بالفارسية ، وفى مطار بغداد ، ساعدته مهاراته اللغوية على تذليل صعوبات الترجمة مع «المراقبين» العراقيين المكلفين بمرافقة فريق الصحافيين وفى همسة مسرحية ، قال ديفيز: إنهم حقا رجال أمن ، ثم أردف وكأنه يتنبأ بالمستقبل «هؤلاء البلداء الكسالى لا يمكن أن يكشفوا جاسوسا ، ولو ظهر أمامهم».

وفى فندق ميريديان فلسطين فى العاصمة العراقية بغداد أبلغ بازوفت ، زملاءه المسافرين ، أنه إنما جاء إلى بغداد ، لا لشىء إلا لأنه «يشعر بالضيق من لندن» . ثم أعلن أنه لا ينوى اتباع البرنامج الرسمى الذى يتضمن زيارة لميدان المعركة فى البصرة حيث كان الجيش العراقى مهتما بعرض غنائم الحرب بعد انتصاره على القوات الإيرانية. وذكر «بازوفت» أنه لا يعتقد أن رحلة الجنوب إلى الخليج تهم صحيفته.

وفى مساء يوم الجمعة ذاك ، من شهر أبريل سنة ١٩٨٨ ، قضى «بازوفت» ساعات وساعات فى بهو الفندق ، يراقب سماسرة السلاح ، وهم يجيئون ويذهبون ، ويتبادل بعض العبارات مع «ديفيز». وبعد ذلك تناول طعامه منفردا فى الفندق . ورفض دعوة بالانضمام إلى المراسلين الآخرين من لندن ، متعللا بأنه يتعين عليه «مراجعة برنامج عمله» . وأثناء تناوله طعامه نودى عليه لتلقى مكالمة تليفونية فى بهو الفندق ، وعاد بعد دقائق معدودة وهو فى حالة من التفكير العميق وكان قد طلب الحلوى ، إلا أنه غادر المائدة فجأة ، غير ملق بالاً إلى النكات الخارجة من بعض المراسلين بأن هناك فتاة تختبئ فى مكان ما فى انتظاره.

ولم يعد « بازوفت» حتى الـيوم التالى ، وظهر أكثر توترا قائلا (لكـيم فليتشر) ، ضمن آخرين (مراسل صحافى حر كان يعمل حـينئذ لحساب صحيفة الديلى ميل) : «الأمر سواء بالـنسبة لكم جميـعا ، أنتم بريطانـيو المولد والنشأة ، أما أنـا فإيرانى ، وهذا يجعلنى مختلفا» ، ولم يكن (فلـيتشر) وحده من بين الصحافيين الإنجليز الذى أحس بـالدهشة ، وتـساءل عمـا إذا كان هذا هـو « بازوفت» الذى يـثير مـرة أخرى الإحساس بالظلم الذى يستشعره بسبب أرومته الإيرانية وتجربته فى إيران.

وقضى « بازوفت» معظـم يومه يتحرك قلقا فى بهو الـفندق ، أو فى الجناح الذى يقيم فيه ، وغادر الفـندق مرتين لفترات قصيرة ، وجرى حوار قصيـر فى بهو الفندق بينه وبين نـيكولاس ديفيز ، الذى ذكر فـيما بعد أن بازوفت كان مـثل « أى شخص يعكف على موضـوع ، متسائلا عما إذا كان سيحصل على مـا يريد منـه أم لا» ومن ناحيته أعـلن بازوفت ، أنه لن يكتب أى شـىء « لأنه لا يوجد شىء هنا يثير اهتمام كابتن بوب» .

وفى أصيل ذلك اليوم غادر بازوفت الفندق مرة أخرى ، وقد تعقبه كالمعتاد أحد المراقبين العـراقيين ولكن حينما ظهـر بازوفت من جديد ظهر وحده. وسـمعه بعض المراسلين وهو يقول لديفيز أنه «لن يسمح بتعقبه مثل كلبة فى دورتها النزوية».

وضحك ديـفيز ، إلا أن ضحكـه لم يخفف كثـيرا من الحالة الـنفسية لـبازوفت ، الذى توجـه مرة أخرى إلى الجنـاح الذى يقيم فيـه. وحينما ظـهر بعد ذلك فـى بهو الفنـدق ، أبلغ عددا من المـراسلين بأنه لن يـعود معهم إلـى لندن ، قائلا : «لـقد جد جديد» قالها بالطريقة الغامضة التى اعتاد أن يستخدمها أحيانا.

وبعد ذلك بعدة ساعات ، غادر بازوفت الفـندق ، وكانت هـذه آخر مرة يراه فيها زملاؤه ، حتى ظهر فى فيلم فيديو جرى توزيعه عالميا من جانب النظام العراقى ، بعد سبعة أسابيع من القبض عليه ، معترفا بأنه عميل للموساد.

فى ذلك الوقت كان بازوفت فى مهمة لحساب الموساد ، وهى مهمة من شأنها أن تنوء بمهارات العميل المحنك « كاتسا» ، ذلك أنه كانت قد صدرت إليه تعليمات بأن يحاول اسـتكشاف مدى الـتقدم الذى وصلـت إليه خطـط «جيرالد بول» ، لـتزويد

العراق بمدفع عملاق. أما وقد كلف هذا الصحافي بتلك المهمة ، فإن ذلك مؤشر واضح على مدى استعداد من كلفوه بالمهمة ، على استغلاله واتخذ الموساد كذلك خطوات من جانبه ، لإظهار أن بازوفت ـ في حالة القبض عليه ـ إنما كان يعمل لحساب إحدى الشركات الموجودة في لندن ، والمعروفة باسم شركة نظم الدفاع المحدودة. وحينما ألقى القبض على بازوفت بالقرب من أحد مواقع اختبار المدفع العملاق ، وجد رجال المخابرات العراقية أن بحوزته بعض المستندات التي تشير إلى إجراء عدة اتصالات تليفونية من الفندق ، بمكاتب شركة نظم الدفاع المحدودة ، وقد أنكرت الشركة أية معرفة لها ببازوفت أو أية صلة لها بالموساد.

وفي شريط الفيديو ، كانت عينا بازوفت تحملقان أحيانا في الفضاء قبل أن يتحرك جفناه فجأة وبسرعة ، وتتحول نظراته تحولات فجائية في اتجاهات مختلفة بالغرفة ، مع وجود ستارة خلفية رائعة تأخذ شكل النباتات المتسلقة. وكان بازوفت يبدو في صورة شخص لا حول له ولا قوة ، لإنقاذ نفسه.

ولقد درس المحللون النفسيون التابعون للموساد في تل أبيب كل لقطة.

وفي رأيهم أن مراحل انهيار بازوفت ، كانت على نفس المنوال الذي يلاحظه المحققون الإسرائيليون ، حينما يستخلصون الاعترافات من أحد الإرهابيين المقبوض عليهم ، وربما مر بازوفت في البداية بمرحلة عدم التصديق ، وهو إنكار غريزي لإدراك أن ما حدث قد حدث له فعلا. ثم يغمره فجأة شعور غلاب يتمثل في إدراكه للحقيقة المدمرة ، وهذا ما كان يحدث له ، وفي هذه المرحلة ، ربما كان الصحافي البائس يعاني نوعين من ردود الأفعال : الخوف الذي يصيبه بالشلل والإجبار على الكلام . والمتصور أن هذه هي اللحظة التي أدلى فيها باعترافاته على الفيديو بأنه عميل للموساد.

وكانت نبراته الرتيبة ، تشير إلى أنه قد عاني نوبات من الإحباط الخارجي وهو في الأسر. وهذا نتيجة لنقله من محيط مألوف ، ونمط حياة معتاد ، إلى وضع آخر انتهى فيه كل هذا تماما ، كما كانت حالته تشي بإحساسه بالتعب المستمر ، وأن فترات النوم التي سمح له بها كان من شأنها أن تجعله في حالة من الإرهاق والخمول

وهذه الحالة تحدث عندما يكون الاعتراف بالإكراه ، قد تم بأكثر الوسائل تدميرا ، وأن إحساسه باليأس والقنوط كان فى ذروته ، وقد تملكه الشعور باتهام الذات. وربما أنه أحس بالغباء ، بسبب الطريقة التى اتبعها ، وعرض فيها الآخرين للخطر ، مثل السجين فى رواية «كافكا» المعروفة باسم « المحاكمة» ومن شريط الفيديو ، اتضح أن عينى بازوفت تدلان على أنه قد أعطى بعض العقاقير.

ولكن خبراء العقاقير فى الموساد ، رأوا أنه من المستحيل ، تحديد نوعية العقاقير التى استخدمت معه.

أدرك « ناحوم أدمونى» ، أن مثل هذا الاعتراف الصريح الذى تضمنه شريط الفيديو ، كان إيذانا بإعدام بازوفت ، وعلى الفور أمر رئيس الموساد خبراء الحرب النفسية لديه ، بشن حملة لتفادى الأسئلة الحرجة ، حول تورط المخابرات الإسرائيلية مع بازوفت.

وسرعان ما انتقد أعضاء البرلمان البريطانى علنا ، صحيفة الأوبزرفر ، بسبب إرسالها بازوفت إلى العراق ، وفى نفس الوقت ، تم تزويد الصحافيين الموثوق فيهم بأخبار تقول: «إن صدام حسين كان يشاهد شرائط الفيديو المسجلة لكل مرحلة من مراحل استجواب بازوفت». وقد يكون هذا صحيحا تماما. والأمر الأكثر ثبوتا ، هو أن هذا كان مجرد ذريعة لتذكير العالم بأن التعذيب والقتل ، كانا من أدوات سياسة الدولة فى العراق. وقد تم إعدام بازوفت شنقا فى بغداد ، فى شهر مارس ١٩٩٠ ، وكانت آخر الكلمات التى رويت عنه ، وهو على منصة المشنقة: «لست جاسوسا لإسرائيل» .

وفى لندن قرأ «نيكولاس ديفيز» تقرير الإعدام ، فى رسالة لوكالة رويتر إلى قسم الشئون الخارجية بصحيفة الديلى ميرور. وحسب التعليمات الصادرة إليه بشأن جميع الأخبار الواردة من الشرق الأوسط ، التى تعتبر فى تقديره أخبارا مهمة ، أخذ ديفيز التقرير إلى مكتب « روبرت ماكسويل» .

كان هذا الناشر ، منذ سنة ١٩٧٤ ، أقوى العملاء المتعاونين مع المخابرات

الإسرائيلية فى بريطانيا. وتذكر ديفيز « أن بوب قرأ التقارير دون تعقيب» ولكنه لا يتذكر بكل أمانة كيف كان إحساسه إزاء إعدام بازوفت.

أما فى تل أبيب ، فقد كان بين من قرأوا خبر الإعدام أحد الأشخاص المفعمين بالحيوية من الذين خدموا جهاز الجاسوسية الإسرائيلى ، وهو «ارى بن منشه». ولم يكن يعرف شيئا ، حتى ذلك الوقت ، عن وجود بازوفت . ولكن هذا الأمر بشكل خاص ، لم يمنع بن منشه المراوغ ، من الشعور العميق بالحزن إزاء وضع إنسان جيد ، فى المكان الخطأ ، وفى الوقت الخطأ. لقد كانت مثل هذه الآراء العاطفية هى التى حالت دون احتمال ترشيح بن منشه البارع الذكاء والأسمر الأنيق ، لمنصب قيادى فى مجتمع المخابرات الإسرائيلى إلا أنه ولمدة عشر سنوات ـ فى الفترة من ١٩٧٧ ـ ١٩٨٧ شغل مركزا حساسا فى إدارة العلاقات الخارجية فى قوات الدفاع الإسرائيلية ، وهى واحدة من أقوى المنظمات السرية فى مجتمع المخابرات.

هذه هى قصة سقوط بازوفت فى أيدى العراقيين كما جاءت فى كتاب «جواسيس جدعون» للصحفى «جوردون توماس» التى تكشف عن مدى تغلغل الموساد الإسرائيلى داخل المؤسسات الصحفية فى بريطانيا!.

مفاجآت العودة

الوطن هو الجلد الذى يحمينا من غضب الطبيعة والغطاء الذى يبعد عن رؤوسنا حرارة الشمس والخندق الذى يخفينا عن أعين الأعداء . إنها تلك القوة الخفية التى تجعلنا نشعر بالأمان فى وقت الخوف ، والدفء فى لحظات البرد ، والأمل فى أوقات الضيق ، والغنى بدون رأس مال. إنه الكيان المجهول الذى يصيبنا برعشة عندما نتذكره ، والنور الذى يضىء ظلمات الغربة. الوطن هو المخزن الحقيقى لذكرياتنا وأحلامنا ونجاحنا وفشلنا وصعودنا وهبوطنا. إنه رمز لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. كل هذه المشاعر والأفكار كانت تدور فى رأسى وأنا أحمل حقيبتى وأوراقى وأودع أصدقائى أمام محطة مترو لندن بالقرب من شارع «بوند إستريت»

أشهر شوارع العاصمة البريطانية ، وهناك فضلت المترو عن «الكاب» أو التاكسى لأجرب كيف يمكن لأى شخص أن يستقل مترو الأنفاق من وسط مدينة لندن وبعد حوالى ٤٠ دقيقة يجد نفسه يقف على «سير» متحرك يحمله إلى داخل «مطار هيثرو» حيث علامات الإرشاد والأسهم الكثيفة قادرة على أن توجهك إلى أى مكان حتى لو كنت تتعامل معه لأول مرة. وبمجرد أن تكون قادراً على قراءة اللوحات فكل شىء سيكون سهلا .

وبعد قليل تفاجأ بأنك تقف فى بهو ضخم عبارة عن استراحات متداخلة مزودة بكافة وسائل الراحة والتسلية من أول الألعاب الإلكترونية المجانية إلى أجهزة التليفزيون أو الفيديو سنتر الذى يعرض البرامج الكوميدية الممتعة. بالإضافة إلى سلسلة مطاعم وسوبر ماركت تتضمن جميع ما يحتاج إليه الإنسان بدءا من الهدايا وانتهاء بالمأكولات بمختلف أنواعها بأسعار محددة مثل باقى الأسعار فى خارج المطار ، علاوة على التليفونات المنتشرة التى يمكن عن طريق العملة أن تتحدث مع معظم دول العالم بدون معاناة ، أما دورات المياه فى المطار فهى على مستوى عال من النظافة ومجانية على الرغم من أن معظم هذه الخدمة فى المراكز التجارية ومحطات القطار البريطانية بالعملة ، حيث تضع العملات المعدنية فتنفتح لك أبواب تؤدى إلى الحمامات ، وهى طريقة غير معقدة تشبه تماماً بوابات مترو الأنفاق .

ولا يمكن أن تجد ظاهرة الأشخاص الذين يقفون على أبواب المراحيض العامة يحصلون منك مقابل استخدام الحمام كما هى الحال فى معظم الحمامات العامة فى بلادنا. ثم تسمع صوت ميكروفون ينادى على كل طائرة قبل موعد إقلاعها بفترة زمنية كافية وشاشات كمبيوتر سهلة توضح موعد إقلاع كل طائرة هناك والشرطيات البريطانيات الشابات ساحرات الجمال متنشرات فى كل مكان فى أيديهن أجهزة اتصال حديثة مرتبطة بشبكة تحكم قوية يمكنها السيطرة الأمنية والفنية على المطار الذى تقلع منه وتهبط إليه طائرة كل ثلاث دقائق تقريباً ، فهو يعد من أكثر مطارات العالم ازدحاماً كما أنه الأكثر دقة وتأمينا نظراً للتنظيم والخبرات البريطانية التى تتولى مهمة إدارته.

وكانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة مساء وجاء صوت المذيعة يعلن عن

موعد رحلة مصر للطيران المتجهة إلى القاهرة ، وكان كل شيء إنجليزيا إلى هذه اللحظة حتى توجهت إلى الموقع الذى تقف فيه (الإيرباص) المصرية بعدها تحول كل النظام من الإنجليزى إلى المصرى ، تفتيش الحقائب ومراجعة جوازات السفر والتفتيش الذاتى ، ساعتها أحسست بأنى فى مصر وأن رحلتى انتهت. لكن فى الطائرة التى كانت مزودة بأجهزة حديثة تكشف لنا عن خرائط تحدد موقع الطائرة منذ إقلاعها من مطار هيثرو حيث كانت أنوار مدينة لندن تظهر كأنها لوحة مرسومة وتبدو الطرق الدائرية الملتفة كحزام من النور يحيط العاصمة لندن ، ولاحظت أن الطائرة تطير على مستوى منخفض كأنها تعرف ما بداخلى أوكأن الطيار قرأ ما يدور فى نفسى من أمنيات بأن تطول رحلتى قليلاً حتى أتوصل إلى أسرار نجاح هذه الشعوب وأطلع على أسباب تفوقها وأدرك السبب فى استمرار تخلفنا عن اللحاق بهم.

ثم دارت الطائرة وابتعدت تدريجياً عن الأرض وعن لندن ثم بدأت تظهر على الشاشة الداخلية الدول التى تعبر الطائرة أجواءها بدءا من فرنسا ثم إيطاليا واليونان وحرصت على عدم النوم ، وجلست بجوار النافذة أتأمل وأفكر فى كل عاصمة تمر الطائرة فوق سمائها وأخذت أقارن ... حتى فجأة ظهرت فى الأفق أنوار مدينة الإسكندرية وساعتها زادت ضربات قلبى لا أعرف هل هى أحاسيس الفرح أم القلق أم .. أم..

لكن الذى لاحظته أن بلادنا رائعة عن بعد ومدهشة فى الخيال.. وراسخة فى الأذهان على الرغم من أن صورتها تختلف عن الواقع وربما تكون مزعجة فى بعض الأحيان ، ولا أعرف لماذا تذكرت جملة شهيرة للأستاذ محمد حسنين هيكل يقول فيها إنه عندما يكون فى مصر يشعر أنها مركز الكون وعندما يكون فى الخارج لا يشعر بوجودها على الكرة الأرضية. وهبطت الطائرة بسلام بعد حوالى ٢٥٠ دقيقة قضيناها فى السماء.

وفى القاهرة لم يكن أحد فى انتظارى. فتجنبت لحظات القلق والتوتر وكانت الساعة قد قاربت على منتصف الليل بسبب فارق التوقيت بين القاهرة ولندن الذى يصل إلى ١٢٠ دقيقة وعند دخولى إلى مبنى مطار القاهرة الجديد صدمنى مشهد

جندى أمن مركزى يحمل بجانبه سلاحه الآلى وتبدو على ملامحه الريفية البراءة والبساطة المصرية ، كما يحمل وجهه علامات اندهاش من أنواع البشر الذين يمرون أمامه ، وكل واحد منهم لديه أفكار وأحلام ليس لها أى ارتباط بطموحات هذا الشاب وأحلامه ، إن الاختلاف الضخم بين مطار هيثرو ومطار القاهرة جعلنى أفقد القدرة على المقارنة.. وفى صالة الوصول زحام محدود بسبب بطء الإجراءات ودقة المراجعة الأمنية على الرغم من أن الأجانب يدققون أكثر وأصعب من إجراءاتنا لكن الاختلاف أنهم حريصون ألا يشعر الإنسان بالقلق أو الضيق أما نحن فلا تهمنا مثل هذه الأمور.

وكنا محظوظين لأنه لم يحدث اشتباه فى الاسم مع شخص آخر مطلوب ، لأن ذلك يكون بمثابة الكارثة غير مضمونة العواقب. ومررت بسلام من إجراءات الدخول . وخارج الصالة كانت وجوه محدودة فى انتظار القادمين المصريين ، وحملت الحقيبة فى يدى ثم اتجهت إلى الخارج وكنت صيدا ثمينا لسائقى التاكسى ، وسمعت منهم قصصا مثيرة، فأحدهم حكى لى وهو يسير بجوارى أنه مستعد لتوصيلى بأى سعر لأنه لم يعمل منذ يومين وأن التدفق السياحى بطىء... ثم عرض آخر أن يوصلنى إلى أى مكان فى القاهرة مقابل جنيهات معدودة فكان عرضه مثيراً، وفى الطريق تبين لى أنه فخ لأن السائق بدأ يحكى ظروفه الاقتصادية الصعبة وأن الحياة أصبحت لا تحتمل بسبب الغلاء وارتفاع الأسعار.. وعلى كوبرى أكتوبر شاهدت اللوحات الإعلانية الكبيرة التى تحمل صور نجوم الغناء مع عناوين لأغانيهم، وسرحت مع هذه العناوين بعيداً عن الأسطوانة المشروخة التى ظل السائق الفظ يمليها على مسامعى كأنه يظننى سائحا عربيا ، المهم وصلت إلى المنزل ودفعت للسائق ضعف المبلغ المتفق عليه ثم صعدت إلى بيتى واستلقيت على سريرى وأنا أفكر فى أمر واحد وهو: أن الإنجليز والغرب ظلوا يخدعون الشعوب الفقيرة بأوهام الرأسمالية على الرغم من أن بريطانيا مازالت من أبرز الدول التى تحافظ على البعد الاجتماعى ويشهد على ذلك امتلاك الحكومة لمعظم المؤسسات الحيوية حتى الآن.

حمدى الحسينى

فهرس المحتويات

الإرهاب.. الموساد.. البيزنس

لاجيء في لندن



عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043

لاجئ في لندن

لقد أصاب ما جرى فى نيويورك وواشنطن - فى سبتمبر ٢٠٠١ - كل المسلمين فى كل ربوع المعمورة بالضرر، فلقد أصبح الإسلام فى الغرب رمزاً للرعب، ومثالاً للتخلف يظنون أنه عقيدة الضعفاء، ويتخيلون أنه ضد الحرية ويقدس القمع، ويدعو إلى الظلم وخاصة هضم حقوق المرأة، وكان ذلك مبرراً لمزيد من التشويه للإسلام والمسلمين.

ولعل المتطرفين الأوروبيين الغاضبين الذين قاموا بإحراق بعض المساجد والاعتداء على بعض المدارس والمنشآت التابعة للمسلمين، لا يدركون أن الإسلام ظل طيلة ثمانية قرون جزءاً من أوروبا، ولقد حافظ الإسلام من خلال وجوده فى أوروبا - الأندلس والبلقان - على العلوم والمعارف الإنسانية خلال عصور الظلام التى سادت مناطق أخرى من القارة كانت غير خاضعة للسيادة الإسلامية ما بين القرنين الثامن والخامس عشر.

إن المتبصرين يدركون أن الإسلام والغرب قد وصلا إلى مفترق طرق ولكن الحكمة تقتضى من الجميع الا يتركوهما يفترقان، ولعل من أفضل من عبر عن هذه الرؤية هو الأمير تشارلز ولى العهد البريطانى وهو يقول داخل أحد مدرجات مركز إكسفورد للدراسات الإسلامية التابع لجامعة إكسفورد البريطانية العريقة: «إننى أؤمن من صميم قلبى بأن العلاقات بين هذين العالمين تتسم الآن بالأهمية أكثر من أى وقت مضى، لأن درجة سوء الفهم بين العالمين الإسلامى والغربى لاتزال عالية على نحو خطير، ولأن الحاجة لتعايش الجانبين وعملهما معاً فى عالمنا المتعاون على نحو متزايد، هى الآن أعظم من أى وقت مضى».

إن بريطانيا التى من المحتمل أن يتولى عرشها «الأمير تشارلز» هى أهم جسر التقاء بين الإسلام والغرب وهى المكان المناس... ... التطرف فى الإسلام هو الاستثناء وليس القاعدة.

وهذا الكتاب هو رحلة باحث صحفى إلى لندن يرص... اللجوء السياسى والحضارى إلى لندن بعد أن أصب... العناصر المتهمة بالإرهاب، صدرت ضد البعض منه... كما أن الكتاب يرصد عموماً أحوال المسلمين والزا... للعمل والسياحة والاستشفاء وأيضاً للضياع.



حمدى الحسينى

- صحفى شاب يعمل بمجلة روزاليوسف المصرية العريقة
- قام بزيارة إلى لندن بعد ان اصبحت مأوى لرموز التطرف الدينى والعنف
- وهو يرصد فى هذه التجربة الأسباب التى جعلت من العاصمة البريطانية وكراً لجامعات العنف والمتاجرة بالإسلام
- كما التقى برئيس «المرصد الإعلامى» ياسر السرى وأجرى معه حواراً مطولاً.
- وكذلك التقى بكمال الهلباوى المتحدث الرسمى السابق لحركة «الإخوان المسلمين العالمية»
- ولقد عاصر.. تجربة محاولة إعلان الخلافة الإسلامية فى لندن، من خلال المؤتمر الذى دعا إليه حزب التحرير الإسلامى بزعامة القيادى «عمر بكرى»





دار الخيال - القاهرة - لندن